اسم الكتاب: .... شهيد الأُمّة و شاهدها

المؤلّف: .... الشيخ محمد رضا النعماني

إعداد و تحقيق: ... لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر رحمه الله

الناشر: .... مركز الأبحاث و الدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر رحمه الله

الطبعة: .... الاولى

تاريخ الطبع: ١٤٢١هـ

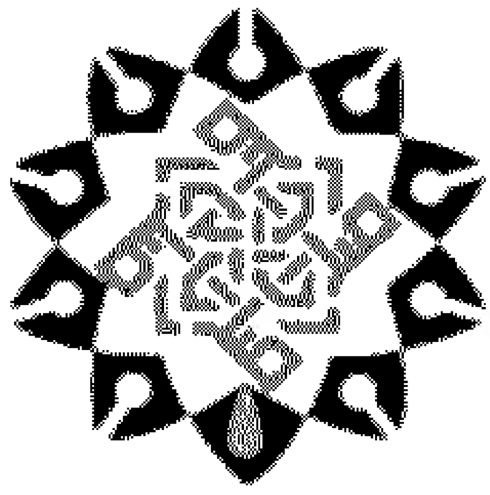
الكمّيّة: .... ٣٠٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿و لا تَحْسَبنَّ الَذّينَ قُتِلوا فِي سَبْيلِ اللهِ أمْواتاً بَل أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون*فَرِحينَ بِما ءَاتَهُمُ الله مِن فضلِهِ و يَستَبشِرونَ بِالَذينَ لَم يَلحَقوا بِهم مِن خَلفِهم ألّا خَوفٌ عَلَيهم و لا هُم يَحزَنُون *يَستَبشرُونَ بِنِعمَةٍ مِنَ اللهِ وَ فَضلٍ و أنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجر المؤمِنين﴾ (آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١)

سلسلة تراث الشهيد الصدر

٢١



شهيد الأمة وشاهدها

دراسة وثائقية لحياة وجهاد الإمام الشهيد
السيد محمد باقر الصدر رحمه الله

القسم الأول

حياته الشخصية والعلمية

تأليف
الشيخ محمد رضا النعماني

المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر رحمه الله

كلمة المؤتمر:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

منذ منتصف القرن العشرين، وبعد ليل طويل نشر أجنحته السوداء على سماء الأُمّة الإسلاميّة لعدّة قرون، فلفّها في ظلام حالك من التخلّف والانحطاط والجمود، بدأت بشائر الحياة الجديدة تلوح في اُفق الاُمّة، وانطلق الكيان الإسلامي العملاق ـ الذي بات يرزح تحت قيود المستكبرين والظالمين مدىٰ قرون ـ يستعيد قواه، حتّى انتصب حيّاً فاعلاً قويّاً شامخاً بانتصار الثورة الإسلاميّة في إيران تحت قيادة الإمام الخميني ﵀ يقضّ مضاجع المستكبرين، ويبدّد أحلام الطامعين والمستعمرين.

ولئن أضحت الأُمّة الإسلاميّة مدينةً في حياتها الجديدة على مستوى التطبيق للإمام الخميني ﵀ فهي بدون شك مدينة في حياتها الجديدة على المستوى الفكري والنظري للإمام الشهيد الصدر ﵀، فقد كان المنظّر الرائد بلا منازع للنهضة الفكريّة الجديدة، إذ استطاع من خلال كتاباته و أفكاره التي تميّزت بالجدة والإبداع من جهة، والعمق والشمول من جهة أُخرى، أن يمهّد السبيل للأمّة

ويشقّ لها الطريق نحو نهضةٍ فكريّة إسلاميّة شاملة، وسط ركام هائل من التيّارات الفكريّة المستوردة التي تنافست في الهيمنة على مصادر القرار الفكري والثقافي في المجتمعات الإسلاميّة، وتزاحمت للسيطرة على عقول مفكّريها وقلوب أبنائها المثقّفين.

ولم يقتصر الشهيد الصدر في عطائه على الانجازات العلميّة والفكريّة التي حقّقها لخلق الوعي والصحوة لدى أبناء الأُمّة الإسلاميّة، بل قام بخطوات عمليّة هامّة على أصعدة شتّى في المجالات الاجتماعيّة والسياسيّة والجهاديّة، وقدّم مشاريع وأُطروحات محكمة في هذا السبيل لدفع الأُمّة نحو السير والحركة بالاتجاه الذي كان قد أوضحه لها نظريّاً، وبهذا تمّت عناصر المشروع الحضاري نظريّاً وعمليّاً من أجل تفعيل حالة الحيويّة والفاعليّة والنهوض لدى الأُمّة.

فلم يقنع ﵀ بتقديم النظريّات إلى الملأ ملقياً حبل المسؤوليّة في الانطلاق العملي على غاربها، بل ساهم ميدانيّاً في عمليّة التغيير، ومدّ يده إلى أُمّته لانتشالها مما هي فيه، وعلّمها من أين تبدأ وإلى أين تنتهي في مسيرتها، وربّاها على كيفيّة صنع الموقف.

وإنّ المتصفّح لتاريخ هذا الطود الشامخ ليلمس معالم العظمة في كل معطى من معطياته النظريّة والعمليّة، ويجد ظواهر السموّ على كلّ مفردة من مفردات حياته العامّة والخاصّة، ويرى آيات الإصالة والمتانة في جميع ممارساته الاجتماعيّة و الشخصيّة، فكان نموذجاً رساليّاً فذّاً في عالمنا المعاصر.

وقد وجد المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر ﵀ نفسه ملزماً بتعريف هذا النموذج الفذّ إلى العالم وإلى الأجيال المقبلة، ومن هنا كان في طليعة مهامّ المؤتمر السعي الجادلتهيئة ترجمةٍ مستوعبة لمراحل حياته ﵀ وما تزخر به من أحداث ووقائع ومواقف وعبر، علماً بأنّ مهمةً كهذه أمر صعب مستصعب، إذ بالإضافة إلى

أنّ تحليل حياة العظماء بصورة عامّة يتوقّف على درك خصائصهم ووعيها، ويتطلّب التوفّر على الوثائق والمستندات والقدرة على تشخيص صحّة المنسوب إليهم أو سقمه، توجد هناك تعقيدات كثيرة في خصوص الظروف والملابسات التي عاشها الشهيد الصدر ﵀.

ولهذا رأينا أنّ دراسة حياة هذا الرجل العظيم مهما حظت بأسباب التوفيق والنجاح ومهما كان المباشر لها موسوماً بالقدرة والجدارة في هذا المضمار فسوف لايتمّ بها المستوى المثالي اللائق الذي نحلم به في مثل هذه الدراسة، لكنّ هذا لم يمنعنا عن الخوض في غمار هذه المهمّة تطبيقاً للفكرة المعروفة «ما لايدرك كلّه لايترك كلّه».

وعلى هذا الأساس قمنا بالمساعي التالية:

١ ـ تهيئة المصادر والوثائق والمستندات اللازمة لذلك قدر الوسع والإمكان وذلك بالاستفادة من الأرشيف الوثائقي الكبير الذي قام بتجميعه الأخ الفاضل حجّة الإسلام السيّد حامد الحسيني حفظه الله تعالى خلال سنوات طويلة وقدمّها إلى المؤتمر.

٢ ـ انتخاب شخص لمباشرة الكتابة في هذا المجال يمتاز بالعديد من المؤهّلات التي منها: قربه من الإمام الشهيد الصدر ﵀ ومنزلته لديه، لا سيّما في السنوات الأخيرة من عمره الشريف، ومعايشته عن كثب للأحداث والظروف التي مرّ بها أيام المحنة والحصار. ومنها: تجربته الكتابيّة السابقة في التأليف حول حياة الإمام الشهيد ﵀، إلى غير ذلك من المميزات التي قلّما تتوفّر طرّاً في شخصٍ واحد. ألا وهو فضيلة حجّة الإسلام المجاهد الشيخ محمّدرضا النعماني حفظه الله تعالى، الذي بذل غاية جهده لتأليف هذا الكتاب في ضوء الوثائق والمستندات التي أشرنا إليها.

٣ ـ إجراء بعض التعديلات الفنيّة والشكليّة في كيفيّة تبويب الكتاب، وتقسيم فصوله، وتنظيم عناوينه الأصليّة والفرعية، ووضع علامات الترقيم والفهرسة وغيرها. وربّما تصرّفنا في محتوى الكتاب أيضاً على مستوى الحذف بقدر ما اقتضته الضرورة.

وهكذا تمّ إعداد الكتاب بأفضل ما أمكن لنا إعداده في هذه الفرصة.

ونحن ـ في الوقت الذي نحمد المولى عزّ وجلّ على هذا التوفيق ـ ندعو سائر العلماء والمخلصين ممّن عاش في كنف الشهيد الصدر ﵀ وانتهلوا من غزير منهله في شتّى الميادين أن يزوّدونا بما لديهم من معلومات ووثائق عن حياة هذا الرجل العظيم في مختلف أبعادها و نواحيها ـ لا سيّما السياسيّة والجهاديّة ـ عسى أن نستطيع عرض ترجمة حياته بنحو أتمّ وأكمل في المستقبل إن شاء الله تعالى.

وأخيراً نرى لزاماً علينا أن نتقدّم بأسمىٰ آيات الشكر و الثناء إلى فضيلة الشيخ المؤلّف ـ حفظه الله ـ وإلى كلّ من ساهم في إنجاز هذه المهمّة، سائلين المولى سبحانه أن يتقبّل جهدهم بأحسن القبول، وأن يمنّ عليهم وعلينا جميعاً بالأجر والثواب، إنّه سميع مجيب.

المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر ﵀

أمانة الهيئة العلميّة

مقدمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيد الخلق محمد و اله الطاهرين.

وبعد: طلبت أمانة الهيئة العلميّة للمؤتمر العالمي الكبير بمناسبة مرور عشرين عاماً على استشهاد مفجّر الثورة الإسلاميّة في العراق سماحة آية الله العظمىٰ الإمام السيّد محمّد باقر الصدر ﷺ أن أكتب كتاباً مفصّلاً يتناول مختلف جوانب حياة السيّد الشهيد، و خاصّة فيما يتعلّق بجهاده السياسي و مقارعته لنظام الكفر و الإلحاد في العراق، للقيام بطبعه بهذه المناسبة الكريمة وقد أتاحت لي فرصة ثمينة و ذلك بوضع كافّة محتويات أرشيف الموتمر الذي قام بجمعه و تنسيقه ـ بعد جهود كبيرة و مشكورة و خلال سنوات عديدة ـ سماحة الأخ حجّة الإسلام السيّد حامد الحسيني حفظه الله الذي قدّم للسيّد الشهيد الصدر خدمة لا تنسىٰ نذكرها له هنا اعترافاً بالجميل.

و بما أنّي على يقين أنّ كلّ ما أكتبه لن يعبّر عن حقيقة الإمام الشهيد الصدر تعبيراً كاملاً، وأنّ الأحداث التي عاشها هي من الأهميّة و الخطورة بحيث تحتاج إلى أن يؤرّخها بقلمه الشريف فقد طلبت منه ذلك، و لا أنسىٰ عصر ذلك اليوم و قد

جلسنا معاً على سطح الدار، و قبة أمير المؤمنين علي عليه السلام أمامنا تتلألأ بأنوارها، وقد أدّينا الزيارة و السلام، و كانت هذه عادته في كلّ يوم، عندها جمّعت قواي وشددت همّتي فتجرّأت و طلبت من سماحته أن يحقّق هذه الأُمنية.

قلت لسماحته: إنّي أشعر بضرورة و أهميّة أن تكتبوا تاريخ حياتكم فأنتم أقدر على هذه المهمّة بالشكل الذي يشبع طموح أبناء الأُمة و علماءها و مفكريها، ذلك أنّ مسيرتكم العلميّة و الجهاديّة و المعانات الكبيرة التي عشتموها قد يصعب تصديقها إن كتبها غيركم، و ذكرت له بعض النماذج مما يصعب تصديقه بل وقوعه.

ثم قلت: إنّ تاريخ أئمتنا عليهم السلام حافل بالكثير من أمثال هذه التراجم و التي فرضتها الضرورة و ليس بدافع المجد الشخصي و الذاتي، لقد ترجم الإمام علي عليه السلام نفسه من علىٰ المنبر مرّات عديدة فذكّر بجهاده مع رسول الله صلى الله عليه وآله و مواقفه منذ بدء الدعوة الإسلاميّة، و ما تعرّض له من ظلم و اضطهاد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله. وهكذا فعل سيد الشهداء الإمام الحسين و من بعده ولده السجاد عليهما السلام ولم يفسّر ذلك على أنّه حبٌ للذات، او طلبٌ للشهرة، خاصة و إنّكم ترون أنّ نهاية المطاف هو الاستشهاد في سبيل الله عز وجل.

تردّد (رضوان الله عليه) في القبول بهذه الفكرة و قال:

«إنّ دمي هو الذي سيترجمني، فأنا لا أُريد إلّا خدمة الإسلام، و هو اليوم بحاجة إلى دمي أكثر من حاجته إلىٰ ترجمتي، أمّا أنت فقد عشت معي طويلاً وشاركتني محنتي، و عشت مراحل صراعي مع الظالمين، فعرفت الكثير من تلك الجوانب، فإن كتب الله ـ تعالى ـ لك السلامة فاكتب ما قد رأيته أو سمعته...».

و بعد حديث طويل جرىٰ بيننا عن هذا الموضوع قلت لسماحته: إنّ أحداثاً خطيرة و مهمّة وقعت في فترة الحجز فمن سيصدّق أنّها وقعت إن لم تُكتب بقلمكم؟

فقال: «نعم قد أكتب بعض ذلك...».

و الواقع كانت هناك مبرّرات عديدة حفزتني لأطلب من السيّد الشهيد الصدر كتابة تاريخه الجهادي والسياسي و مسيرته العلميّة، و سيرته الذاتيّة. و لعلّ أهمها ما يلي:

أوّلاً: أهميّة الأحداث التي عاشها، ابتداءاً من تأسيس جماعة العلماء وحتىٰ فترة الاحتجاز عام ١٩٧٩م، وما تخلّلها من أحداث كبيرة في مسيرة الصراع مع سلطة حزب البعث المتسلط على العراق، و كذلك الأسباب التي دعته إلى اختيار طريق الاستشهاد، وماإلى ذلك و هو تاريخ حافل بالمواقف الجهاديّة والتضحويّة التي تستحقّ الخلود في أعماق التاريخ و وجدان الأجيال.

و ثانيا: السيرة الذاتيّة للإمام الشهيد الصدر و ما كان يتمتّع به من خُلق إسلامي رفيع، ونكران للذات في سبيل المبادئ، و تفانٍ و تضحية، و زهد في حطام الدنيا، وحبّ للترابيّة و حياة البساطة. إنّني أعتقد أنّ الشهيد الصدر يعتبر مثلاً و نموذجاً فريداً في هذا المجال يحتذىٰ و يقتدىٰ به.

و ثالثاً: البعد العلمي والمعرفي بآفاقه الواسعة التي شملت الأبعاد الأُصوليّة والفقهيّة والفلسفيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة وغير ذلك.

لقد أبدع السيّد الشهيد الصدر في كلّ المجالات العلميّة التي تعرّض لها،أو كتب فيها، وتميّز بمنهجيّة جديدة لدىٰ خوضه تلك الميادين، وعُرف بـالدقّة والعمق والأصالة والتجديد.

إنّ هذه الأبعاد وغيرها بحاجة إلى اكتشاف دقيق يمتدّ إلى عمق كبير في هذا البحر الزاخر من العلم والمعرفة.

رابعاً: ما تعرّض له (رضوان الله عليه) من إيذاء و اضطهاد لا من قبل السـلطة المجرمة فحسب، بل ومن قبل بعض الأوساط العلميّة والحوزويّة، و هو تاريخ

حافل بالمآسي والآلام، و كشاهد على ذلك ما ذكره لي هو (رضوان الله عليه) حينما اجتمع به فاضل البراك ـ مدير الامن العام آنذاك ـ في الكوفة إذ قال له:

«سيّدنا: إني أتمكّن من إتلاف كلّ التقارير التي تكتب ضدّكم و التي ترفع إلينا من قِبل مديريّات الأمن، و لكن ماذا يمكن أن أفعل بالتقارير التي ترفع للقيادة مباشرة دون أن تمرّ بنا من قبل فلان و فلان ـ وذكر أسماءهم ـ ثم قدّم نماذج منها».

وأتذكر أنّ السيد الشهيد الصدر خرج من هذا الاجتماع مصفرّ الوجه مضطرب الحال وهو خلاف ما كنت أتوقع من تحسّن الأحوال والاوضاع، ولم أفهم السبب إلّا خلال الاحتجاز حيث بدأ يكشف النقاب عن هذا الأمر وأمثاله. وعلى كلّ حال فإنّ هذا الفصل من تاريخه يستحقّ الوقوف عنده طويلاً لأنّه ساهم في زجّه في أقبية مديريّة الأمن و الانتهاء به إلى الشهادة. و إنّي على يقين وثقة أنّ الزمن سيكشف في يوم من أيّامه عن حقائق مريعة لا يكون هذا الكتاب أمامها إلّا ذكرىٰ باهتة لا تعبّر إلّا عن الجزء البسيط مما وقع.

كما أنّي على يقين أنّ أحداً غير السيّد الشهيد الصدر لا يستطيع أن يخوض غمار هذا الميدان، و يكشف عن مرّ الحقّ، و حقائق الصراع غير النظيف على كلّ المقاييس و كشف الحقائق كما هي وسوف يتعرّض للتقريع و التشنيع و حملات التشهير و الاتهامات التي لا نهاية لها.

ان هذه المبررات وغيرها دفعتني أن أطلب منه (رضوان الله عليه) الكتابة عن نفسه في تلك المجالات و غيرها، و هذا من شأنه ـ لوحدث ـ أن يوثّق لنا المنهج الصحيح في كتابة التاريخ و رجال العلم و المعرفة و لكان رائعة تضاف إلى جانب (اقتصادنا) و (فلسفتنا) و (الأُسس المنطقيّة للاستقراء). و لكن ليس كلّ ما يتمنىٰ المرء يدركه، ففي نهاية المطاف وجدت نفسي مرغماً على كتابة هذا الشطر من

تاريخه العظيم بحكم معايشتي له فترة طويلة بما في ذلك سنوات المحنة و أيام الحصار.

و إنّي اعتذر واعترف أنّ هذه المحاولة تقصر عن التعبير بالشكل المناسب عن حقيقة الشهيد الصدر و دوره العظيم في المسيرة الإسلامية في العراق وتأسيسه لمرحلة جديدة من تاريخ العراق الحديث. وأعتقد أنّ الأجيال اللاحقة ستكتشف أبعاده العلميّة و القيادية و الحضاريّة و كونه ظاهرة استثنائيّة فيما نعرف في حدود معرفتنا للتاريخ من هذه الناحية.

و لم يكن من خيار أمامي و أنا أخوض غمار هذه المهمة الكبيرة إلّا إدخال كتابي (سنوات المحنة و أيام الحصار) كعنصر أساسي في التاليف الجديد ولكن بعد إضافات كبيرة و مواضيع عديدة بحيث أخرجته عن اسمه الأوّل و على هذا الاساس اقترحت أمانة الهيئة العلمية للمؤتمر أن يصدر باسم آخر و استجبت للطلب الكريم فاسميته (شهيد الأُمّة و شاهدها) و أرجو أن تكون التسمية منطبقة على المحتوىٰ و متناغمة مع الموضوع. هذا وقد امتاز هذا الكتاب عن سابقه بالأُمور التالية:

أولاً ـ تمّ توثيق عدد كبير من المعلومات التي لم توثّق في كتاب (سنوات المحنة و أيام الحصار) ورويتها اعتماداً على الذاكرة. او نقلتها عن طلّابه والمقرّبين منه. أمّا الباقي فسوف يأتي اليوم الذي يوثّق فيه بخطه الشريف ليكون الكتاب وثيقةً و ليس كتاباً بإذن الله تعالى.

ثانياً ـ اشتمل الكتاب على مواضيع جديدة لم اتطرّق إليها من قبل ووثّقتها كذلك بما تيسّر لي من رسائل بخطه الشريف، و من أهمّ هذه المواضيع (شكل نظام الحكم في الإسلام) هل هو الشورىٰ. او ولاية الفقيه العامّة. وقد استعرضت مسيرة تطوّر المسالة في مراحلها المختلفة تاركاً لأهل الاختصاص استنتاج ما يمكن استنتاجه في هذا الموضوع الهام.

ثالثاً ـ إنّ مواضيع كثيرة من الكتاب نالها قدر من التطوير او التعديل باستثناء بعض المواضيع التي تجنبنا التوسّع فيها حفاظاً على المصلحة العامّة وليس لأيّ سبب آخر.

رابعاً ـ و ضمّ الكتاب مجموعةً قيّمة من الرسائل و الوثائق و الاستفتاءات والوكالات و الصور شكّلت وجهاً جديداً للكتاب بنحو يتيح لكلّ من يريد الكتابة الموثّقة عن الإمام الشهيد الصدر أُفقاً رحباً و مادّة قيّمة.

و على كلّ حال فقد بذلت ما كان بوسعي، وجهدت في أن يحافظ الكتاب على الوحدة، و أن لا يكون مادّة للخلاف والاختلاف، وإن كان هذا لا يعفينا عن أداء حق السيد الشهيد الصدر بنقل الحقيقة كاملة للأُمّة والتاريخ وكشف الأُمور على حقيقتها بصوته أو خطّه

و قد حاولت إخراج الكتاب بروح جديدة، و بمادّة وثائقيّة تحمل بصمات السيّد الشهيد الصدر نفسه ليكون القارئ أكثر تقبّلاً لصفحات تاريخه المجيد الحافلة بألوان من النور، و أُخرىٰ مليئة بالكثير من الظلم الذي وقع عليه، لا ابتغي بذلك إلّا رضا المولى عز وجل راجياً منه أن نكون أوفياء في كتابة تاريخ الأُمم والقادة لا الحكّام و السلاطين. و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

محمد رضا النعماني

١/ربيع الاول/١٤٢١هـ

٢٠٠٠/٥/٤م

القسم الأوّل:

حياته الشخصيّة
و
العلميّة

- أُسرة آل الصدر.
- العائلة الكريمة و مولودها.
- مسيرته العلميّة في النجف الأشرف.
- أخلاقه وسيرته الذاتيّة.
- المرجعيّة والحوزة في حياة الإمام الشهيد الصدر.

حياته الشخصية و العلميّة

١

أُسرة آل الصدر

○ تمهيد.

○ السيّد صدر الدين الصدر.

○ السيّد اسماعيل الصدر.

○ السيّد حيدر الصدر.

○ السيّد اسماعيل بن السيّد حيدر.

تمهيد

طبيعة البحث فرضت عليّ أن أتطرّق بشيء من الإيجاز إلى الجانب الأُسري بالقدر الذي يقتضيه الموضوع فيما يتعلّق بحياة وشخصيّة الإمام الشهيد آية الله العظمىٰ السيد محمّد باقر الصدر (رضوان الله تعالى عليه) و ذلك لأنّني أعرف ذوقه السلبي من مثل هذه الأُمور، فهو لايُؤمن بشيء من تلك القيم الاجتماعيّة في إطار العمل المرجعي، لابل سعىٰ في ظلّ تصدّيه للمرجعيّة إلىٰ إبعادها عن تلك القيم الاجتماعيّة الذاتية و لعلّ أبرز الشواهد التي تركها بين أيدينا في هذا المجال على الصعيد النظري بحثه الرائع المسمىٰ بـ(مشروع المرجعيّة الموضوعيّة) الذي كتبه بنفسه و تناول فيه تأسيس قواعد ومبادئ للمرجعيّة تقوم على أُسس موضوعيّة بحتة بعيداً عن القيم الأُسرية و الذاتية و سوف يأتي الحديث عن ذلك في فصل المرجعيّة في حياة الشهيد الصدر.

و أمّا على الصعيد العملي فيكفي أن نشير إلى حقيقة معروفة للكثيرين و هي أنّه ﷺ قد اختار جميع أعضاء جهازه المرجعي من غير أرحامه و أقاربه، في الوقت الذي كان ـ في بعض الأحيان ـ بأمسّ الحاجة إليهم لأداء بعض الواجبات الاجتماعيّة و العرفيّة التي تقتضي تمثيله بعنوانه الشخصي لا المرجعي و الديني، وفي هذه الحالة كان ينيب سماحة حجة الاسلام و المسلمين السيّد حسين السيد

هادي الصدر أو ابن أخيه سماحة حجة الاسلام و المسلمين السيد حسين السيد اسماعيل الصدر (حفظهما الله) و كان أحدهما في بغداد و الآخر في الكاظمية.

و أتذكر أنّ السيد الشهيد حينما كان يؤمّ المصلين في الحسينيّة الشوشتريّة تخلّف يوماً عن الحضور، فطلب المصلون من سماحة آية الله الشهيد السيد محمد ابن المرحوم السيد محمد صادق الصدر ﴿رضي الله عنه﴾[1] ـ و هو معروف بالفضل و التقوى ـ ان يتقدمهم للصلاة جماعة، فصلى بهم الظهرين بعد إصرار و إلحاح شديدين من قِبلهم. و لمّا بلغ السيّد الشهيد ذلك تأثر تاثراً بالغاً، فأرسل إليه وعاتبه على فعله وطلب منه أن لا يكرّر ذلك في المستقبل مهما كانت الظروف.

و ما من شكّ أنّ الإمام الشهيد الصدر أراد بهذا العمل حماية صورة المرجعيّة في قلوب أبناء الأُمّة باعتبارها الممثل الحقيقي لخط ونهج الأئمة ﴿عليهم السلام﴾ الذي يقوم على أساس المقاييس الربانيّة لا على أساس العواطف و الرغبات الشخصيّة.

لقد عاش الإمام الشهيد الصدر أجواء النجف المفعمة بالنقد و التذمّر من بعض الممارسات التي صدرت من بعض البيوت المرجعيّة، و نحن لا نقول: إنّ ما صدر كان خطاءً، أو أنّ النقد كان صحيحاً ولكن ما علق في أذهان الناس من ضبابية كان بحاجة إلى تقويم و تصحيح و لذلك كان يقول (رضوان الله عليه):

«يجب على المرجعية أن ترسخ وجودها في القواعد الشعبيّة في النجف قبل أن تمتدّ إلى المدن الأُخرى، لأنّ النجف هي المدينة التي تحتضن المرجعيّة، فإذا ماربحتها كان امتدادها إلى غيرها أسهل».

---

١ ـ أحد طلاب السيد الشهيد الصدر المبرّزين، استشهد مع نجليه البارين السيد مصطفى و السيد مؤمّل في حادث اغتيال بشع في النجف الأشرف من قبل أزلام النظام يوم الجمعة ٣ ذي القعدة ١٤١٩ هـ = ١٩ شباط ١٩٩٩م.

لقد جسّد الإمام الشهيد الصدر في سلوكه المرجعي ما يؤمن به و يعتقد بضرورته و صحته من دون تعريض بالآخرين أو تخطئتهم فيما صدر منهم. كما لا يعني هذا أنّه رضوان الله عليه كان يتنكّر لأُسرته الكريمة من آباء وأجداد كانوا قمّة في الطهارة والإيمان و العلم و التقوىٰ بل كان يعتزّ و يفتخر بهم و يحرص علىٰ تخليدهم وإحياء مآثرهم، وعلم الله أني ما كنت أسمع منه ـ حين يذكرهم ـ غير مواقف التقوىٰ والجهاد والدفاع عن الإسلام والمسلمين، ولم يكن همّه المواقف الشخصيّة الدنيويّة ولا المفاخر الفارغة التي لا هدف منها سوىٰ الاستجابة لهوىٰ النفس و إشباع الرغبات النفسيّة التافهة.

وعلى كلّ حال فقد وجدت نفسي مضطراً إلى الكتابة عن أُسرة آل الصدر بعد تردّد كبير وتعثّر فيما يجب أن أكتبه أو أترك الكتابة عنه. وكانت الدوافع الموضوعيّة أقوىٰ من أن تترك لي الخيار في أن لا أفعل. ولعلّ أهمّ تلك الأسباب ما يلي:

أوّلاً ـ لقد لاحظت أنّ عدداً من الجامعيّين كتبوا رسائل جامعيّة عن شخصيّة الإمام الصدر تناولت الجوانب العلميّة و الدينيّة والسياسيّة و غيرها و أغفلت معلومات مهمّه عن أُسرة آل الصدر التي ينحدر منها شهيدنا العظيم. وكثُر السؤال منهم عن أُسرته وأُصولها ومواطن سكناها وأهمّ رجالها وعلمائها فكان لابدّ من سدّ هذا الفراغ، ولو بصورة إجماليّة قد تغني عن الرجوع إلى الموسوعات الرجاليّة المطوّلة التي تستهلك الكثير من الوقت. أضف إلى ذلك أنّ الدراسات العلميّة وخاصّة الاجتماعيّة تعتمد في منهجيّتها على دراستها للشخصيات على الأُسرة، تبحث عن أُصولها ومواطن سكناها، ومواقع رجالها العلميّة والدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، لأنّ الإنسان يتأثر نفسيّاً و تربويّاً بأجواء الأُسرة وطبيعتها وينعكس ذلك على سلوكه الاجتماعي و النفسي والتربوي، فكان لابدّ من سدّ هذا الفراغ بما ينسجم مع مهمّة هذا الكتاب، وكذلك بما يحقّق الغرض ولو بشكل يسير.

وثانياً ـ إنّ بعض الأُخوة الأعزاء و العلماء الأفاضل طلبوا أن لا تقتصر هذه المذكرات على أحداث خاصّة ـ وإن كانت هي الهدف الحقيقي لهذا الكتاب ـ كالمواقف والأحداث الجهاديّة والسياسيّة وفترة الاحتجاز فقط. فاقترحوا أن تتّسم هذه المذكّرات بقدر من الشموليّة بحيث تتناول الحديث عن أُسرة آل الصدر في محاولة للتعرّف على أهم المعالم والمحطّات فيها لتلبّي حاجة القارئ الكريم وتساعده على معرفة أشمل لشخصيّة الإمام الشهيد الصدر رضوان الله عليه.

و ثالثاً ـ و هو الأهم في نظري و الذي كان من بعض أهداف هذا الكتاب، وحفزني بشكل كبير على كتابة هذا الفصل، هو أنّ الذي يقرأ تاريخ هذه الأُسرة الكريمة، و يطّلع على سيرة معظم رجالها الذين عُرفوا بالعلم والتقوىٰ والورع والزهد والجهاد في الله حق جهاده، ونكران للذات، وحسن سيرة ودماثة أخلاق ـ فكلّ أجداد السيّد الشهيد الصدر علماء فطاحل، ومعظمهم مراجع كبار ـ يحقّ له أن يفتخر بهم لأنّه لا يفتخر بشكل ودم ولحم وإنما يفتخر بمكارم أخلاق ومواقف جهاد، وكنوز معرفيّة و علميّة. ولكن هل كان لذلك تأثير نفسي ـ لا شعوري ـ على طبيعة تفكير السيد الشهيد الصدر ووضعه النفسي والروحي و سلوكه الشخصي بحيث كان يرىٰ نفسه متميّزاً عن الآخرين، وأنّه من طبقة عليا تفوق الناس بحيث تنعكس سلوكيّاً على تصرّفه وطريقة تعامله معهم؟

كلّا والله كان لا يزيده العزّ إلّا تذلّلاً، ولا يزيده المجد إلّا تواضعاً، ولم يكن لهذه الأُمور موقعاً في نفسه و تفكيره و سلوكه، كان يعتزّ بكلّ أحد بمقدار صلته بالإسلام و تفانيه فيه وحبّه وتمسّكه به، سواء كان من أُسرة آل الصدر أو من عامّة الناس من أبناء الأُمة الاسلامية، كان هدفه الإسلام و أهداف الرسالة المقدسة والسعي لخدمتها، ولا مكان في قلبه لغير ذلك من الأهداف الشخصيّة المحدودة.

و هذا الأمر ـ كما أعتقد ـ من الدروس المهمّة في سيرة الإمام الشهيد

الصدر، وفي سلوكه الرسالي الهادف في مجال سعيه لبناء مرجعيّة دينيّة مثاليّة تعتمد المقاييس الاسلاميّة لا العواطف و الروابط الأُسريّة و الولاءات الشخصيّة. وسوف نلمس ذلك بوضوح تام من خلال جملة من الوثائق التي هي بخطّه خلال مواضيع هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

هذه الأُمور حتّمت عليَّ أن أتعرّض إلى لون بسيط من الترجمة لأُسرة آل الصدر عسىٰ أن تساهم في إعطاء صورة واضحة ذات عمق تاريخي في التعرّف على الإمام الشهيد الصدر في جذوره الاجتماعية والعلميّة والأُسرية، وإن كانت هذه الأُسرة غنيّة عن التعريف لأنّها درّة في جبين التاريخ لصحة نسبها المتّصل برسول الله (صلى الله عليه وآله) من دون أدنىٰ شكّ و شبهة، و لما يشهد الجميع لرجالها الأفذاذ بالعلم والتقوىٰ و الورع و المواقف الرساليّة علىٰ امتداد التاريخ.

ولنتحدّث بإيجاز عن أهمّ المعالم و المحطات عن هذه الأُسرة المباركة. ولا تخلو موسوعة رجاليّة من ترجمة لرجال أُسرة آل الصدر. فهذه الأُسرة المباركة أُسرة علميّة معروفة غنيّة عن التعريف كما قلنا. و لمّا كان هدفنا ترجمة أحد أبرز رجالها في هذا القرن وهو شهيدنا الخالد آية الله العظمى السيد محمّد باقر الصدر (رضوان الله عليه) وليس رجال الأُسرة جميعاً فقد اقتصرنا على ما هو الضروري و ما يتطلّبه الموضوع. و كان المرحوم حجة الاسلام و المسلمين السيد عبد الغني الأردبيلي[1] قد جمع من كتب الرجال و التراجم موجزاً عن أُسرة آل الصدر. و قد نقله عنه أُستاذنا الحجة آية الله السيد كاظم الحائري (دام ظله) فيما كتبه عن أُستاذه الشهيد الصدر في مقدمة كتابه «مباحث الأُصول» الجزء الأوّل من القسم

١ ـ السيّد عبد الغني الأردبيلي من طلاب السيّد الشهيد و المقرّبين منه، توفي في حادث سيارة في حياة السيد الشهيد ورثاه في مقدمة كتابه «دروس في علم الأُصول» كما سيأتي.

الثاني، وهنا أنقل ـ مع تغيير يسير و إضافات مناسبة ـ بعض ما جاء في تلك الترجمة.

«أُسرة آل الصدر معروفون بالفضل والتقى و العلم و العمل ومكارم الأخلاق، وقد كانوا مشعلاً للهداية و النور، ومركزاً للزعامة والمرجعيّة الدينيّة، ومداراً للإفادة و الإفاضة في مختلف الأجيال، وقد انحدروا من شجرة الرسالة والسلالة العلويّة من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

و هذه الأُسرة العريقة قد اتخذت ألقاباً مختلفة باختلاف العصور طيلة ما يزيد على قرنين، فكانوا يلقّبون:

تارة بآل أبي سبحة.

و أُخرى بآل حسين القطعي.

وثالثة بآل عبد الله.

ورابعة بآل أبي الحسن.

خامسة بآل شرف الدين.

أخيراً بآل الصدر.

و هنا نشير إلى عدد من الفحول العظام من سلالة هذه الشجرة الطيّبة التي أنجبت قائداً فذّاً، و مرجعاً عبقريّاً لم ترعين الزمان مثله ألا وهو شهيدنا الغالي السيد محمّد باقر الصدر (رضوان الله عليه).

السيّد صدر الدين الصدر

هو السيد صدر الدين محمّد بن السيد صالح، بن السيد محمّد، بن السيد إبراهيم شرف الدين، بن زين العابدين، بن السيد نور الدين الموسوي العاملي.

هو فخر من مفاخر الشيعة، و عالم فذّ من كبار علماء المسلمين، و من نوابغ العلم و الأدب، قلّ من يضاهيه في الفضيلة والتقوى.

ولد في قرية «معركة» من قرى جبل عامل، ونشأ ونما علميّاً في النجف الأشرف، ثمّ هاجر إلى الكاظميّة، ومنها إلى اصفهان، ثمّ عاد إلى النجف الأشرف، و توفي ودفن فيها ﷺ.

والده (السيد صالح)من أكابر العلماء، وكان مرجعاً للتقليد، و زعيم الطائفة الإماميّة في بلاد الشام، هاجر من جبل عامل إلى النجف الأشرف فراراً من الحاكم الظالم في جبل عامل وقتئذٍ (أحمد الجزّار) وتوفي في سنة (١٢١٧هـ)=(١٨٠٢م).

ولد السيد صدر الدين الصدر في (٢١) من ذي القعدة من سنة (١١٩٣هـ)=(١٧٧٩م) في جبل عامل، هاجر في سنة (١١٩٧هـ)=(١٧٨٣م) مع والده إلى العراق، و سكن النجف الأشرف، و اهتمّ بتحصيل العلوم الإسلاميّة و المعارف الإلهيّة في صغر سنّه، حتى إنّه كتب تعليقة على كتاب قطر الندى وهو ابن سبع سنين. وقد نقل عنه أنّه قال: حضرت بحث الأُستاذ الوحيد البهبهاني في سنة (١٢٠٥هـ)=(١٧٩٠م) وكنت أبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة، وكان الأُستاذ معتقداً بحجّيّة مطلق الظنّ، و مصرّاً على ذلك. و حضرت في نفس السنة بحث العلامة الطباطبائي السيد بحر العلوم، وقد قالوا: إنّ السيد بحر العلوم كان يُنظم آنئذٍ ما أسماه بـ(الدرّة) وكان يعرضها على السيد صدر الدين؛ لما لاحظ فيه من كماله في فنّ الأدب و الشعر.

وقد ذكر السيد حسن الصدر في تكملة «أمل الآمل» أنّ الشيخ جابر الكاظمي ـ الشاعر المعروف مخمّس القصيدة الأزريّة ـ قال: «إنّ السيد الرضي أشعر شعراء قريش والسيد صدر الدين أشعر من السيد الرضي».

بلغ السيد صدر الدين الصدر مرتبة الاجتهاد قبل بلوغه سنّ التكليف، وقد

أجازه بالاجتهاد صاحب الرياض ﷺ في سنة (١٢١٠هـ)=(١٧٩٥م) وصرّح بأنّه كان مجتهداً قبل أربع سنين.

وهذا يعني أنّه قد بلغ الاجتهاد في السنة الثالثة عشرة من عمره الشريف، وهذا ما لم يسمع نظيره إلّا بشأن العلامة الحلي و الفاضل الهندي، على أنّه يفوقهما في فنّ الشعر والأدب.

وقد ذكر السيد حسن الصدر في تكملة «أمل الآمل»: أنّ الشيخ محمّد حسن صاحب الجواهر والشيخ حسن بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء ـ وهما من أكابر أساتذة النجف الأشرف ـ كانا يُدينان بالفضل للسيد صدر الدين عند رجوعه من اصفهان الى النجف الأشرف، وكانا يجلسان لديه جلسة التلميذ لدى أُستاذه.

ودخل يوماً السيد صدر الدين على المحقّق صاحب الجواهر ﷺ فأقبل صاحب الجواهر إليه آخذاً بعضده، وأجلسه محلّه وجلس أمامه وتذاكرا في العلم والفقه، وأنجرَّ الكلام إلى اختلاف الفقهاء في مسألة مّا، فبيّن السيد ببيان فائق اختلاف الفقهاء في تلك المسألة مع اختلاف طبقاتهم من العصر الأوّل إلى زمانه، وفرّع الخلاف في ذلك على اختلافهم في المباني والمسالك، وشرح تلك المباني والفروق فيما بينها... فتعجّب الشيخ صاحب الجواهر من تبحّر السيد، وقال بعد ذهاب السيد: «يا سبحان الله، السيد جالس جميع العلماء و بحث معهم، ووقف على أذواقهم ومسالكهم. هذا والله العجب العجاب، ونحن نعدُّ أنفسنا من الفقهاء! هذا الفقيه المتبحّر».

و قد روى في «تكملة أمل الآمل» عن الشيخ الجليل عبد العلي النجفي الاصفهاني أنّه قال: دخل السيد صدر الدين في ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك حرم أمير المؤمنين ﷺ وبعد أن أنهى زيارته للإمام جلس خلف الضريح المقدّس لكي يقرأ دعاء أبي حمزة، وحينما قرأ الجملة الأُولى: «إلهي لاتؤدّبني بعقوبتك»

أخذه البكاء، و كرّر الجملة مراراً وهو يبكي إلى أن غشي عليه، فحملوه من الحرم الشريف إلى بيته.

وكانت للسيد ﵀ كلمات و مقاطع خاصّة لدى مناجاته لله تعالى منها قوله:

رضاك رضاك لا جنّات عدن   و هل عدن تطيب بـلا رضـاكـا

تزوّج السيد صدر الدين ﵀ ببنت الشيخ الأكبر صاحب كشف الغطاء، وولداابناً اسمه السيد محمد علي المعروف بـ(أقا مجتهد) وكان من أكابر عصره ونوادر دهره.

وقد ابتلى السيد ﵀ في أواخر حياته في اصفهان باسترخاء في بدنه شبه الفالج، ورأى في عالم الرؤيا الإمام أمير المؤمنين ﵇ فقال له: أنت ضيفنا في النجف الأشرف، فعرف السيد من هذه الرؤيا أنّ وفاته قد اقتربت، فهاجر الى النجف الأشرف، وقد توفي في ليلة الجمعة أوّل شهر صفر من سنة (١٢٦٤هـ)=(١٨٤٨م) ودفن في الزاوية الغربيّة من الصحن الشريف قريباً من الباب السلطاني.

مؤلّفات السيد صدرالدين:

١ ـ أُسرة العترة، كتاب فقهي استدلالي.

٢ ـ القسطاس المستقيم، في أُصول الدين.

٣ ـ المستطرفات في فروع لم يتعرّض لها الفقهاء.

٤ ـ شرح منظومة الرضاع، وهي مانظم بها كتاب الرضاع بأُسلوب رائع، ثمّ شرحها، كما شرحها أيضاً آية الله الميرزا محمّد تقي الشيرازي.

٥ ـ التعليقة على رجال أبي علي.

٦ ـ قرّة العين، كتاب في علم العربية كتبه لبعض أولاده. وقد ذكر تلميذه في

أوّل معدن الفوائد: أنّ كتاب قرّة العين على صغره يفوق المغني لابن هشام على طوله.

٧ ـ شرح مقبولة عمر بن حنظلة.

٨ ـ رسالة في حجيّة الظنّ.

٩ ـ رسالة في مسائل ذي الرياستين.

١٠ ـ قوت لا يموت، رسالة عمليّة باللغة الفارسيّة.

مشايخه:

روى السيد صدر الدين ﷺ عن أكثر من أربعين عالماً، نشير إلى بعضهم:

١ ـ روى عن والده وأُستاذه السيد صالح، عن جدّه السيد محمّد، عن أُستاذه الشيخ محمّد بن الحسن الحر العاملي بجميع طرقه المذكورة في آخر الوسائل.

٢ ـ روى عن العلامة الطباطبائي بحر العلوم المتوفى سنة (١٢١٢هـ)=(١٧٩٧م)، وكان يعبّر عنه بالأُستاذ الشريف.

٣ ـ روى عن العلامة المير علي صاحب الرياض، المتوفى سنة (١٢٣١هـ) =(١٨١٦م)

وكان السيد معجباً بصاحب الرياض، وكان يعتقد أنّه يفوق المحقّق القمّي صاحب القوانين في الفقه وقوّة النظر.

٤ ـ روى عن المحقّق السيد محسن الأعرجي صاحب «المحصول»، وكان السيد ﷺ معجباً بزهده وتحقيقاته، توفي سنة (١٢٢٨هـ)=(١٨١٣م).

٥ ـ روى عن شيخ الطائفة الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفي سنة (١٢٢٨هـ).

٦ ـ روى عن السيد الجليل المتبحّر الميرزا مهدي الشهرستاني الموسوي الحائري المتوفى سنة (١٢٧٨هـ)=(١٨٦١م).

٧ ـ روى عن الشيخ الجليل الفقيه الشيخ سليمان معتوق العاملي المتوفى سنة (١٢٢٨هـ)=(١٨١٣م).

طلابه:

و قد ربّى السيد صدر الدين علماء تخرّجوا على يده منهم:

١ ـ السيد ميرزا محمّد هاشم صاحب كتاب «أُصول آل الرسول».

٢ ـ السيد محمّد باقر الموسوي صاحب كتاب «روضات الجنّات».

٣ ـ شيخ الفقهاء والمجتهدين الشيخ مرتضى الأنصاري ﴿ره﴾ صاحب كتابي «المكاسب و الرسائل».

٤ ـ حجة الإسلام السيد محمّد حسن المجدّد الشيرازي ﴿ره﴾

٥ ـ الشيخ شريف العلماء.

السيد اسماعيل الصدر

أُستاذ الفقهاء والمجتهدين آية الله العظمى السيد اسماعيل الصدر ﴿ره﴾ ، ولد في اصفهان سنة (١٢٥٨هـ)=(١٨٤٢م). والده المرحوم السيد صدر الدين العاملي الذي مضت ترجمته.

بعد وفاة والده عام(١٢٦٤هـ)=(١٨٤٨م) تربّى في كنف أخيه السيد محمّد علي المعروف بـ(آقا مجتهد) وكان معروفاً بالذكاء الخارق حتى عدّ في أوائل بلوغه سنّ التكليف من العلماء الفضلاء.

هاجر في سنة (١٢٨٠هـ)=(١٨٦٣م) من اصفهان إلى النجف الأشرف

لغرض التتلمذ على يد الشيخ الأنصاري ﵀، ولكن حينما وصل إلى كربلاء توفي الشيخ الأنصاري ﵀ ،فلم ينثنِ السيد إسماعيل عن عزمه الهجرة إلى النجف الأشرف، فسافر إليها، و تتلمذ على يد الفقهاء والعلماء آنئذٍ، كما اشتغل بالتدريس وتربية الطلاب أيضاً.

اكتسب السيد ﵀ في فترة بقائه في النجف الأشرف إضافة إلى الفقه والأُصول والحديث معلومات أُخرى عقليّة، كعلم الكلام والفلسفة والرياضيات والهندسة والهيئة والنجوم على النسق القديم، مع الاطلاع على آراء جديدة. ولم يعرف من أين أخذ هذه العلوم، وعلى يد من تتلمذ فيها. ولم يكن يعرف أنّه مطّلع على هذه العلوم إلّا حينما كان يتعرّض لها بالمناسبة ضمن أبحاثه الأُصوليّة والفقهيّة.

وأخيراً أصبح من خواص تلاميذ المجدّد الشيرازي، وبعد هجرة المجدّد الشيرازي إلى سامراء بقي السيد الصدر يمارس نشاطه العلمي في النجف الأشرف.

سافر في النصف من شعبان من سنة (١٣٠٩هـ)=(١٨٩١م) إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين ﵇، و هناك وصلته رسالة من أُستاذه الشيرازي يطالبه فيها بالسفر إلى سامراء، فلبّى دعوة أُستاذه، و ذهب إلى سامراء، و كان عازماً على الرجوع إلى دار هجرته النجف الأشرف، لكنّه حينما وصل إلى سامراء ألزمه أُستاذه بالإقامة فيها. وكان السبب في ذلك أنّ السيد المجدّد الشيرازي كان قد ترك التدريس في سنة (١٣٠٠هـ)=(١٨٨٣م) تقريباً؛ لكثرة الأشغال والمراجعين وضعف المزاج، فأناط مسؤولية التدريس بالسيد إسماعيل الصدر، وذلك في عام (١٣٠٩هـ)=(١٨٩١م) فأصبح محوراً للتدريس في الحوزة في سامراء، وكان اجتماع أهل الفضل والعلم في درس السيد الصدر أكثر من غيره.

وهكذا استمرّت سامراء محوراً لإشعاع العلم، وكعبة لآمال العلماء، ومحط أنظار الفضلاء في التعليم والتعلّم، وتربية الأخلاق، وتهذيب النفس إلى أن فُجع العالم الإسلامي بوفاة المجدّد الشيرازي.

وانتقلت المرجعيّة والزعامة الشيعيّة من بعد المجدّد الشيرازي إلى السيد الصدر، وسلّم أولاد المجدّد الشيرازي ما بقي من أموال وحقوق شرعيّة بحوزة السيد الشيرازي إلى السيد الصدر.

وكان السيد الصدر زاهداً في الزعامة والمرجعيّة، ولهذا عزم بعد وفاة المجدّد الشيرازي بسنتين على ترك بلد مرجعيّته وقتئذٍ، وهو سامراء فتركها مهاجراً إلى النجف الأشرف، وطلب من العلماء والأكابر أن لا يتركوا سامراء. وحينما وصل في سفره إلى كربلاء استخار الله تعالى على الإقامة في النجف الأشرف، فكانت الاستخارة تدل على النهي، فاتّخذ من كربلاء مقراً له.

وقد هاجر من سامراء عدد من العلماء والأكابر رغم طلبه منهم عدم الهجرة، والتحق بهم بعد ذلك آخرون، فأصبحت كربلاء كعبة آمال العلماء والفضلاء إلى أن مرض السيد في سنة (١٣٣٤هـ)=(١٩١٦م) فسافر إلى الكاظميّة للعلاج، وتحسّن حاله في أوّل الأمر، ولكن تدهورت صحّته بعد ذلك، وتوفي رحمة الله عليه في (١٢جمادى الأُولى عام ١٣٣٨هـ =١٩١٩م) ودفن بجوار جدّه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في مقبرة عائليّة لآل الصدر.

وقد رثاه شعراء وأدباء وفضلاء بقصائد منهم المرحوم الشيخ مرتضى آل ياسين.

سيرته و أخلاقه:

كان رحمه الله آية في العفّة، وعلوّ الهمّة، والاعتماد على النفس، والتوكّل على الله

تعالى، وكان مروّجاً للدين، ومربّياً للعلماء، وعوناً للمشتغلين والدارسين، وكهفاً للفقراء والمساكين، يوصل الأموال إلى مستحقيها بلا منٍّ، و أحياناً لم يكن يعرف أنّ المال من قبله.

كان ﵀ يتتلمذ على يد السيد المجدّد الشيرازي ﵀ الذي هو تلميذ لأبيه السيد صدر الدين، ولأخيه السيد محمّد علي المعروف بـ(آقا مجتهد)، ولكنّه لم يعرّف نفسه للسيد المجدّد، والسيد لم يكن يعلم أنّه ابن أستاذه؛ ذلك لأنّه حينما هاجر من اصفهان إلى النجف الأشرف عزم على أن لا يعرّف نفسه لأحد، حتّى لأولاد عمه وأُسرته في بغداد والكاظميّة؛ زهداً بالمكانة الاجتماعيّة والمقامات التي تترتّب على ذلك، وليكون أكثر قدرة على تربية روحه وتهذيب نفسه، إلى أن صادف أنّه تشرّف بحجّ بيت الله الحرام، وبعد عودته إلى النجف الأشرف أخبر السيدَ الشيرازي بعضُ تلاميذه ممّن كان يعرف السيد الصدر بأنّه قد قدم من الحجّ السيد إسماعيل الصدر بن السيد صدر الدين، فعزم السيد الشيرازي ﵀ على زيارة ابن أُستاذه وهو لايعلم أنّه تلميذه المحبوب والمقرّب منه، فحينما زاره في بيته فوجئ بأنّ هذا هو ذاك التلميذ الذي كان موضع إعجاب أُستاذه، فوقف متعجّباً قائلاً: أنت السيد إسماعيل الصدر بن السيد صدر الدين؟

فقال: بلى، فيزداد الأُستاذ إعجاباً بهذا التلميذ وبمكارم أخلاقه.

وقد روي أنّ السيد اسماعيل الصدر كان عازماً على أن لا يقترض من أحد مالاً مدى العمر، وكان وفيّاً بعهده رغم معاناته في أيام دراسته في النجف الأشرف من الفقر والفاقة، إلى أن صادف ذات يوم أن أصبحت والدته البالغة حدّ الشيخوخة في حالة لا تطاق من مرض كان بحاجة الى علاج، فخاف السيد على سلامتها، وذهب السيد إلى الصحن الشريف وهو حائر بين أمرين: بين التكليف الشرعي الذي يطالبه بالمحافظة على حياة أُمّه؛ والذي قد يكون متوقّفاً على الاقتراض،

وبين عهده الذي عاهد نفسه عليه من عدم الاقتراض مدى العمر. فجلس جلسة المتحيّر المتفكّر في أمره عند حجرة من حجرات الصحن الشريف. وإذا برجل غير معروف يقف أمام السيد ويسأله: هل أنت سيد موسوي النسب؟ قال: بلى. فأعطاه خمسة توامين، وقال هذا نذر لسيد موسوي النسب. فأخذها وبقي وفيّاً بعهده مدى العمر.

وكان السيد الصدر ﷺ يحدّث أولاده أحياناً بأمثال هذه القصص والحكايات بهدف تهذيب نفوسهم وتربيتهم على مكارم الأخلاق.

أساتذته:

١ ـ أخوه السيد محمّد علي المعروف بـ(آقا مجتهد)، درس على يده السطح العالي وبعض كتب اللغة العربية والرياضيات.

٢ ـ الشيخ محمّد باقر الاصفهاني، درس على يده بحث الخارج لمدة عشر سنين.

٣ ـ الفقيه المتبحّر الشيخ راضي النجفي.

٤ ـ الشيخ الفقيه أستاذ العلماء والمحقّقين الشيخ مهدي بن الشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء.

٥ ـ الأُستاذ الأكبر المجدّد الشيرازي.

طلابه:

قد ربّى السيد إسماعيل الصدر تلاميذ وعلماء كثيرين تخرّجوا على يده في النجف الأشرف وسامراء وكربلاء والكاظميّة. نكتفي بالاشارة إلى أهمّهم:

١ ـ آية الله الحاج السيد أبوالقاسم الدهكوري الاصفهاني، تتلمذ على يد

السيد الصدر في سامراء، ثم هاجر إلى اصفهان، وأصبح مرجعاً عاماً من مراجع المسلمين.

٢ ـ حجة الإسلام الحاج السيد حسين الفشاركي الاصفهاني.

٣ ـ آية الله الشيخ عبد الحسين آل ياسين الكاظمي، وبعد وفاة أُستاذه أصبح أحد المراجع الكبار في الكاظميّة.

٤ ـ حجة الإسلام والمسلمين الميرزا علي آقا الشيرازي، ابن المجدّد الشيرازي.

٥ ـ حجة الإسلام والمسلمين السيد علي السيستاني، تتلمذ على يده في سامراء و كربلاء، وهاجر إلى مشهد الرضا عليه السلام و أصبح أحد المراجع العظام في تلك الديار.

٦ ـ أُستاذ الفقهاء والمجتهدين آية الله العظمى الميرزا محمّد حسين النائيني.

٧ ـ حجة الإسلام والمسلمين الميرزا محمّد حسين الطبسي.

٨ ـ آية الله الشيخ محمّد رضا آل ياسين.

٩ ـ آية الله المجاهد الإمام عبد الحسين شرف الدين.

أولاده:

خلّف من بعده أولاداً أربع كانوا جميعاً آية في العلم، ومحاسن الأخلاق، والورع والتقوى، وهم:

١ ـ آية الله السيد محمّد مهدي الصدر.

٢ ـ آية الله السيد صدر الدين الصدر.

٣ ـ حجة الإسلام والمسلمين السيد محمّد جواد الصّدر.

٤ ـ آية الله السيد حيدر الصدر.

السيّد حيدر الصدر

وهو والد سيدنا الشهيد الصدر (رضوان الله عليهما) كان مثال العالم العابد الزاهد. ولد في سامراء في شهر جمادى الأُولى عام (١٣٠٩هـ)=(١٨٩١م). قال بعض العلماء العامليين في تاريخ ولادته:

فحيدر واليمين قد جاءا معاً   فناد بالتاريخ يُمنٌ قد ظهر

هاجر بصحبة والده الى كربلاء في سنة (١٣١٤هـ)=(١٨٩٦م) و درس المقدّمات والعلوم العربية على يد عدّة من العلماء الفضلاء ثمّ درس بحث الخارج على يد أبيه السيد إسماعيل الصدر، وعلى يد السيد حسين الفشاركي، والمرحوم آية الله الحائري اليزدي في كربلاء، وأصبح في عنفوان شبابه من العلماء المرموقين المشار إليهم بالبنان.

قال عنه صاحب الذريعة في كتابه أعلام الشيعة: «وقد رأيته مراراً سواء في أيام والده أو بعدها، فوقفت على غزارة علمه، وكثرة فضله، وكان دائم الاشتغال كثير المذاكرة، قلَّ ما دخل مجلساً لأهل الفضل ولم يفتح باباً للمذاكرة والبحث العلمي، وكان محمود السيرة حسن الأخلاق محبوباً عند الناس».

وقال آية الله السيد عبد الحسين شرف الدين فيما نشر عنه في مجلة (النجف) السنة الأُولى العدد الثالث بتاريخ ١٥ ج ٢ ١٣٧٦هـ١٩٥٦م:

«عرفته طفلاً فكان من ذوي العقول الوافرة والأحلام الراجحة، والأذهان الصافية، كان وهو مراهق أو في أوائل بلوغه لا يُسبر غوره، ولاتفتح العين على مثله في سنّه. تدور على لسانه مطالب الشيخ الأنصاري ومن تأخّر عنه من أئمة

الفقهاء والأُصوليين، وله دلو بين دلائهم، وقد ملأه إلى عقد الكرب. يقبل على العلم بقلبه ولبّه وفراسته، فينمو في اليوم ما لا يمنو غيره في الأُسبوع، ما رأت عيني مثله في هذه الخصيصة، وقد رأيته قبل وفاته بفترة يسيرة ـ وقد استقرّ من جولته ـ في غاية الفضل لا تبلغها همم العلماء، ولاتدركها عزائم المجتهدين...»

وكتب عنه حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمّد تقي آل صادق العاملي في مجلة الغري: «لقد كان ﵀ آية بليغة في الأخلاق الفاضلة، والصفات الكريمة، تلقاه ـ وهو بتلك المكانة العلميّة السامية، وبذلك الرداء الجميل من الشرف والمجد ـ طلق المحيّا، باسم الثغر ندي الحديث، طري الأُسلوب، ليّن العريكة، يتواضع للصغير حتّى كأنّه بعض سُمرائه، ويتصاغر للكبير حتىّ كأنّه دون نظرائه...».

كان المرحوم آية الله السيد حيدر الصدر آية في الزهد والتقوى وعدم الاكتراث بالدنيا وزينتها، وكان همّه منصبّاً على العلم والمعرفة والتحقيق، لايترك فرصة تمرّ لا يستمثرها لطلب العلم، فقد رُوي عن المرحوم حجة الإسلام والمسلمين الخلخالي أنّه قال: «إنّ السيد حيدر الصدر كان يُدرّس أثناء إقامته في الكاظمية الكفاية، فاتّفق أنّ أحد أكابر الحوزة العلميّة فى النجف الأشرف ورد الكاظميّة وطلب منه السيد الصدر أن يتباحث معه في الكفاية خلال فترة بقائه في الكاظميّة فلم يقبل، وهنا حاول السيد حيدر الصدر ﵀ أن يستمثر الفرصة بأُسلوب آخر فطلب منه أن يتتلمذ عنده بتدريسه الكفاية خلال بقائه، فوافق على ذلك. فكان السيد حيدر الصدر يدرّس جمعاً كبيراً من الطلاب كتاب الكفاية، ثمّ كان يحضر لدى هذا العالم على أنّه طالب يدرس كتاب الكفاية عنده».

قال السيد علي الخلخالي «إنّي سألت السيد حيدر الصدر: ماذا صنعت بفلان الذي لم يقبل المباحثة معك في الكفاية؟

فأجاب: أنّي وصلت لما كنت أروم، ذلك أنّي أحضر لديه بعنوان التلميذ فيقرأ عليّ مقطعاً من الكفاية، فينفتح باب المناقشة والبحث وكان هذا هو المطلوب لنا».

وفاته:

توفي ﷺ في الكاظميّة ليلة الخميس ٢٧ جمادى الثانية ١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م ودفن في مقبرة لآل الصدر».[١]

و كنت قد سمعت زوجته تقول: «لمّا توفي السيد حيدر ﷺ بتنا تلك الليلة من دون عشاء لقلّة ما في أيدينا، واستمر حالنا في تقشّف وضيق لأكثر من شهر بعد وفاته». علماً أنّ المترجم له كان من كبار مراجع الشيعة في ذلك العصر، وهذا يلقي ضوءاً على زهده وعدم اكتراثه بالدنيا وزينتها، فطوبى له وحسن مآب.

مؤلّفاته:

١ ـ رسالة في مباحث وضع الألفاظ.
٢ ـ تعليقة على الكفاية.
٣ ـ رسالة في المعنى الحرفي.
٤ ـ رسالة في تبعيض الأحكام لتبعيض الأسباب.
٥ ـ الشبهة الحيدريّة في تلاقي أحد أطراف العلم الإجمالي.
٦ ـ تعليقة على العروة الوثقى.

وله رسائل أُخرى، وممّا يؤسف له أنّ هذه الكتب والرسائل كلّها مفقودة.

١ ـ كان ما تقدم قد اخذناه ملخصاً من الترجمة التي كتبها المرحوم السيد عبد الغني الاردبيلي بحسب نقل سماحة آية الله السيّد كاظم الحائري دام ظلّه.

عدا أنّ الشبهة الحيدريّة تعرّض لها الشيخ آقا ضياء العراقي (قده) في مجلس درسه، فكتبت بقلم بعض طلابه في تقرير بحثه.

أولاده:

خلّف السيد حيدر الصدر (قده) من بعده ابنين وبنتاً، يعتبر كلّ واحد منهم جوهرة لاتقدّر بثمن وهم:

١ ـ آية الله السيّد اسماعيل الصدر (قده) و ستقدّم ترجمته بقلم أخيه السيد الشهيد الصدر (قده)

٢ ـ آية الله العظمىٰ مفجّر الثورة الإسلاميّة في العراق شهيد العصر السيد محمّد باقر الصدر (رضوان الله عليه).

٣ ـ العلويّة الفاضلة الشهيدة السعيدة السيّدة آمنة الصدر (بنت الهدى) رضوان الله عليها. [1]

السيد اسماعيل ابن السيد حيدر

و عن ترجمة المرحوم السيّد اسماعيل الصدر (قده) كتب سيدنا الشهيد الصدر ترجمة نادرة طافحة باللوعة والحسرة على فقده لركن من أركان الإسلام، وعمود من أعمدة الشريعة، وأمل كانت تعلّق به الكثير من الطموحات لخدمة الرسالة المقدّسة. وهذه الترجمة تغني عن كلّ تعليق وهذا نصّها:

«ترجمة السيد اسماعيل الصدر (رضوان الله عليه): كان (قده) آية في الذكاء والفطنة و حضور الذهن وسرعة الانتقال، ومن الأفذاذ في خلقه و تواضعه وطيب نفسه وطهارة روحه، ونقاء ضميره وامتلاء قلبه بالخير والحب لجميع

١ ـ صدر للمؤلّف كتاب في ترجمتها باسم (الشهيدة بنت الهدى سيرتها ومسيرتها) فراجع.

الناس. رافقته اكثر من ثلاثين سنة كما يرافق الا بـن أبـاه، والتـلميذ اسـتاذه، والصديق صديقه، والأخ أخاه في النسب، وأخاه في الآمال و الآلام، وفي العلم والسلوك، فلم أزدد إلّا إيماناً بنفسه الكبيرة وقلبه العظيم الذي وسع النـاس جميعاً بحبّه ولكنّه لم يستطع أن يسع الهموم الكبيرة التي كان الفقيد يـعيشها من أجل دينه وعقيدته ورسالته، فسكت هذا القلب الكبير في وقت مبكّر.

كنت أراه وهو في قمّة شبابه منكبّاً على التحصيل والعلم لايعرف طعم النوم في الليل إلّا سويعات، ولا شيئاً من الراحة في النهار، مكدوداً باستمرار متنامياً باتصال، يزداد علماً يوماً بعد يوم، وهو الى جانب ذلك مكـدوداً فـي العـبادة والالتزامات الدينية التي تنميه روحياً ونفسياً والتي وصل بسببها في السنوات الأخيرة من إقامته في النجف الأشرف إلى درجة عالية من الصفاء والروحانيّة، ولا أزال أذكر مرة كنت أمشي فيها معه فبادرني مخبراً بأن حادثة معيّنة سوف تقع عندما نصل إلى النقطة الفلانيّة من الطريق، وقد وقعت بالفعل كما أخـبر دون أيّ ترقّب مسبق. وأنا أُقدّر أنّ المرحوم كانت له في تلك الفترة من هذه الانفتاحات الروحيّة الشيْ الكثير.

ولد ﵀ فـي الكـاظميّة سـنة (١٣٤٠هـ) [=١٩٢١م] فـي شـهر رمـضان، وترعرع في كنف والده، وقرأ بعض المقدّمات عليه، وقرأ السطوح علىٰ جماعة كعمّه الإمام السيّد محمد جواد الصدر، والحجة الميرزا علي الزنجاني.

بعد أن اكمل السطوح تأهب للهجرة إلى النجف وقد بلغ درجة عالية مـن الفضل اكبر نسبياً بكثير من مستوىٰ دراسة السطوح لما يتمتع بـه مـن ذكـاء ونبوغ وجِدّ. ولا انسىٰ أنه ألّف قبل هجرته الى النجف رسالة في طهارة اهل الكتاب، ورسالة في حكم القبلة للمتحير، وهما رسالتان لاتزالان بـخطه حـتىٰ الان، وهما تدلان علىٰ نضج علمي ودقة استيعاب لايصل اليه عادة الّا من طوىٰ مرحلة من بحث الخارج بجد وكفاءة. وقد اطلع وقتئذٍ على الرسالتين، او على الاولىٰ منهما فقيه آل ياسين آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين فاعجب بما

اطلع عليه وذكر ان هذا بوادر الاجتهاد.

وحينما هاجر إلى النجف الأشرف حضر بحث فقيه آل يسن ﷺ وأبحاث آيات الله الشيخ محمد كاظم الشيرازي والسيّد محسن الحكيم والسيّد عبد الهادي الشيرازي والسيّد أبو القاسم الخوئي والشيخ مرتضىٰ آل ياسين.

وقد أُجيز بإجازة الاجتهاد من آية الله السيّد عبدالهادي الشيرازي وآية الله الشيخ مرتضىٰ آل ياسين. وكتب آية الله الحكيم بشانه في جواب جماعة يسألونه عن حاكم شرعي يرجعون اليه في مرافعاتهم يشهد بانه حاكم شرعي نافذ الحكم.

وقد تمخّض عن نتاج فقهي جليل في تلك الفترة وهو كتابة شرح استدلالي موسع لكتاب بلغة الراغبين في فقه آل يسن، وهو الرسالة العملية لاية الله الامام الشيخ محمد رضا آل ياسين، وقد شرح المرحوم هذا المتن الفقهي في عدة مجلدات تربو على آلاف الصفحات، وهو شرح يدل على مرتبة عالية من الاجتهاد والفقاهة وسعة الاطلاع وحدة الذكاء.

وقد شرع ﷺ في تدريس الخارج وحضر عليه جماعة من الطلبة نصف دورة كاملة من الاصول الخارج. وقد انقطع تدريسه هذا بهجرته الى الكاظمية حوالى سنة (١٣٨٠هـ) [=١٩٦٠م] حيث اصبح هناك محوراً للعلم والدين ومركزا لزعامتها الدينية.

وقد بدأ في الكاظميّة ببحث في التفسير كان يحضره اكثر من مائة من الجامعيين والمثقفين، اضافة الى تدريساته الاخرىٰ في الفقه والاصول لعدد من علماء المنطقة في الكاظمية وبغداد.

وقد ازدهرت الحياة العلميّة وأساليب العمل الديني والتبليغ على يده ازدهاراً كبيراً.

وكان ﷺ يعطي باستمرار لخط عمله من روحه وقلبه وجهده. ويكلف نفسه فوق ما تكلف عادة. فهو المتهجد المتعبد الذي يقبل على عبادته إقبالاً

عظيماً، وهو المدرّس الذي يبذل من الجهد في تدريسه الشيءَ الكثير، وهو المسؤول الديني الذي يمارس مسؤوليّاته ويتفاعل معها بكلّ وجدانه وهمّته. كان ـ علم الله ـ في عناء مستمر، ورغم كلّ الاتعاب والجهود كان من أحسن خلق الله استقبالاً للناس ومن أوسعهم صدراً في المعاملة معهم حتى اختار الله له جواره قبل سنتين في ستة ذي الحجة (١٣٨٨هـ) [=١٩٦٨م].

خلّف عدداً كبيراً من المؤلفات التي تمثل بمجموعها تركة علميّة من أنفس التركات وهي كما يلي:

١ ـ شرح فقهي استدلالي موسع لكتاب بلغة الراغبين يحتوي على عدة مجلّدات، وهو أهمّ إنتاج علمي للمرحوم.

٢ ـ تعليقة على الكفاية في الأُصول ضمّنها آراءه ومناقشاته بصورة موسّعة.

٣ ـ تعليقة عمليّة على العروة الوثقىٰ مع اشارات إجماليّة إلى الدليل أحياناً.

٤ ـ تعليقة على كتاب التشريع الجنائي الإسلامي لعبد القادر عودة، قام فيها بإبراز رأي الفقه الجعفري في المسائل التي تعرّض لها الكتاب، طبع منها الجزء الأوّل.

٥ ـ محاضرات في تفسير القران، طبع منها الجزء الأوّل.

٦ ـ شرح رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين عليه السلام.

٧ ـ تقريرات السيد الخوئي في الاصول.

٨ ـ تقريرات السيد الخوئي في الطهارة.

٩ ـ تقريرات السيد الخوئي في المكاسب.

١٠ ـ رسالة في قاعدة الفراغ والتجاوز.

١١ ـ شرح لكتاب النكاح من العروة الوثقىٰ.

١٢ ـ تعليقة على الجزء الثاني من شرح اللمعة.

١٣ ـ رسالة في حكم التزاحم بين الحج والنذر.

١٤ ـ رسالة في تشخيص المدعي والمنكر.

١٥ ـ رسالة في بيع الصبي وأحكامه.

١٦ـ رسالة في أسباب اختلاف المجتهدين.

١٧ـ مستدرك الأعيان، يحتوي على ملاحظات على كتاب أعيان الشيعة.

١٨ ـ تعليقة عمليّة على رسالة بلغة الراغبين.

١٩ ـ تقرير البحث الفقهي للإمام الفقيد الشيخ محمّد رضا آل ياسين.

٢٠ ـ فوائد في الفقه والأُصول.

٢١ ـ فصل الخطاب في حكم أهل الكتاب.

٢٢ ـ رسالة في معنىٰ العدالة وأُخرىٰ في حدّ الترخص للمسافر.

٢٣ ـ رسالة في قبلة المتحير.

٢٤ ـ رسالة في صلاة الجمعة.

٢٥ ـ رسالة في اللباس المشكوك.

٢٦ ـ رسالة علميّة في فروع العلم الإجمالي.

وللمرحوم ولدان وبنت، والولدان هما السيد حيدر الصدر والسيد حسين الصدر الذي أقام صلاة الجماعة في صحن الامامين الكاظمين بعد والده، والبنت هي زوجة السيد حسين السيد محمد هادي الصدر»[١]

وقد حدثني سماحة حجة الاسلام والمسلمين السيد محمد جعفر الصدر انه لما توفيت والدة سيدنا الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) نقلوا جثمانها الى النجف الاشرف لتدفن في مقبرة الإمام شرف الدين التي تقع على الجانب الايسر للخارج من الصحن الشريف باتجاه شارع الطوسي، فهيئوا مكاناً لها داخل المقبرة الى جانب ولدها المرحوم السيد اسماعيل الصدر. وفي اثناء الدفن سقط الجدار الفاصل بين قبرها وقبر ولدها فوجدوا جسده (رضوان الله عليه) على حاله لم يتغيّر ولم يتبدّل رضوان الله عليه واسكنه فسيح جنانه مع أجداده الطاهرين.

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١) وهذه الترجمة تنشر لاول مرة.

العائلة الكريمة ومولودها

- نسب السيد الشهيد وولادته.
- والدة السيّد الشهيد الصدر.
- عبقريته المبكّرة.

نسب السيّد الشهيد وولادته

لآل الصدر شجرة نسب تتصل بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام ومنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يتوارثها رجال الأُسرة بعناية ودقّة ومما يميز هذا النسب أنّ السيد الشهيد يتصل بجدّه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إمّا بمجتهد أو عالم فاضل. فكلّ رجال هذه الأُسرة علماء أفاضل أو مراجع كبار. وهي ميزة فريدة قلّما تتوفّر لأُسرة من الأُسر.

نسبه رحمه الله :

شهيدنا العظيم آية الله العظمى السيد محمّد باقر الصدر.

ابن السيد حيدر، بن السيد إسماعيل، بن السيد صدر الدين، بن السيد صالح، بن السيد محمّد، بن السيد إبراهيم شرف الدين، بن السيد زين العابدين، بن السيد علي نور الدين، بن السيد حسين، بن السيد محمّد، بن السيد حسين، بن السيد علي، بن السيد محمّد، بن السيد تاج الدين، بن السيد محمّد، بن السيد عبد الله، بن السيد أحمد، بن السيد حمزة، بن السيد سعد الله، بن السيد محمّد، بن السيد علي، بن السيد عبد الله، بن السيد محمّد، بن السيد طاهر، بن السيد الحسين، بن

السيد موسى، بن السيد إبراهيم المرتضى، بن السيد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام[١]

ولادته رحمه الله :

في كنف جدّه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في مدينة الكاظميّة ولد شهيدنا الصدر يوم (٢٥)ذي القعدة عام (١٣٥٣هـ= ١٩٣٤م).

وهذا اليوم من الأيام المباركة، لما ورد من أنّ فيه دحت الأرض، وفي ليلته ولد إبراهيم الخليل وعيسى بن مريم عليهما السلام ،وشاء الله عزّ وجلّ أن يُعدّ هذا الوليد المبارك إعداداً يؤهّله فيه ليكون أميناً لِرُسُلِهِ وحصناً لشريعته، ومثلاً أعلى وقدوة صالحة لعباده، وليحمل من الآمال والطموحات والهموم ما هي بحجم هموم الأنبياء، ويسير على خطّهم وخط خاتمهم محمّد صلى الله عليه وآله .

حدثتني والدته (رحمها الله) أنّه كانت في غاية السعادة وهي تحتضن وليدها المبارك، فقد كانت ظروف الحياة الصحيّة قاسية، فالأمراض والآفات تأخذ الكثير ولاتدع إلّا القليل، فكانت ترقُب وليدها وتدفع عنه النوائب التي حرمتها من أشقاء له في سالف الأيام، والخوف والقلق يشوب الأمل في نفسها، وكانت تقول: «ماكان يعيش لي من الأولاد إلّا القليل» فقد كانت تجربتها ـ كأُمٍّ ـ قاسية جداً لكثرة من فقدت من أولاد.

ولكن شاء الله عزّ وجلّ أن يحرس ابنها العبقري بعينه، ويذخره لخدمة رسالة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، كما شاع تعالى أن يذوق شهيدنا العظيم اليُتم منذ سني حياته الأُولى، فلم يتمتع بعاطفة أبيه وحبّه، ولم يذق من طعم حنانه إلّا سنوات قليلة.

١ ـ اعتمدنا على سماحة آية الله السيد رضا الصدر ابن عم السيد الشهيد فيما ذكرناه من شجرة النسب.

ورافق الحرمان العافي فقر وضنك في العيش ليزيد من عملية صقل الوليد الفريد، ويرقى بتربيته وإعداده إلى أفضل ما يمكن، ولعلّ تلك سنة الله تعالى فيمن يختارهم لحمل أعباء رسالته: ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى...ووجدك عائلاً فأغنى**﴾

وقد سألته [illegible] عمّا إذا كان يتذكر والده السيد حيدر الصدر (رحمه الله) فقال: ليس في ذاكرتي شيء عنه إلّا صورة غير واضحة، وأنا بحكم من لم يرَ أباه.

لقد أثّرت هذه الظروف على شخصية السيد الشهيد تأثيراً إيجابياً، خلافاً لما قد يُتصوّر من أنّ اشتداد المحن وصعوبة الظروف تترك آثاراً سلبية في نفس الإنسان، فلا اليتم ولا الفقر حالا بينه وبين أن يشقّ طريقه نحو الهدف الذي كان يسعى إليه، فتجاوز كلّ الصعاب التي واجهته وهو في أهمّ وأخطر مرحلة من مراحل البناء والتكامل.

وممّا لاشك فيه أنّ لوالدته ولأخيه الأكبر المرحوم آية الله السيد اسماعيل الصدر رحمهما الله دوراً كبيراً في تخفيف وطأة المحنة التي تشتد قسوتها عادة على من هو في مثل هذا العمر، إلّا أنّ من المؤكّد أنّ المقوّمات الشخصيّة التي تمتّع بها كانت أقوى من آلام اليتم ومصاعب الفقر ومشاكل الحياة الأُخرى، ممّا جعل آل الصدر يترقّبون له مستقبلاً مشرقاً. فبالإضافة إلى قدرته على تجاوز تلك الصعاب، كانت علامات الذكاء والعبقريّة تثير إعجابهم رغم صغره.

والدة السيّد الشهيد الصدر

وأمّا والدته فهي العابدة التقية الصابرة بنت المرحوم آية الله الشيخ عبد الحسين آل ياسين، سلسلة الدين والتقى والعلم.

فأبوها هو آية الله الشيخ عبد الحسين آل ياسين أحد أعاظم فقهاء عصره، المعروف بالزهد والعبادة والتقوى.

ولد في الكاظميّة، وتربّى في كنف جدّه المرحوم آية الله الشيخ محمّد حسن آل ياسين، الذي كان من مفاخر علماء الشيعة، والذي أمضى الإمام صاحب الزمان عجّل الله تعالى فرجه نيابته عنه على مارود في قصّة المرحوم الحاج علي البغدادي المذكورة في مفاتيح الجنان في الصفحة (٤٨٤)[١]

وقال السيد حسن الصدر في «تكملة أمل الآمل» عن الشيخ محمّد حسن آل ياسين: «أنموذج السلف، حسن التقرير، مضطلع في الفقه والأُصول، خبير بالحديث والرجال، انتهت إليه الرئاسة الدينيّة في العراق بعد وفاة الشيخ العلّامة الأنصاري، كان المرجع العامّ لأهل بغداد ونواحيها، وأكثر البلاد في التقليد...».

هاجر المرحوم الشيخ عبد الحسين آل ياسين من الكاظميّة إلى سامراء، وتتلمذ على يد المجدّد الشيرازي، وبعد أن توفي جدّه الشيخ محمّد حسن انتقلت إليه زعامة الشيعة في بغداد والكاظميّة.

ثمّ هاجر إلى كربلاء، وتتلمذ على يد المرحوم السيد اسماعيل الصدر، فوصل إلى مرتبة عالية من الاجتهاد، وعاد بعدها إلى الكاظميّة، وأصبح من مراجع الشيعة في التقيلد والفتوى، وأصبحت مرجعيّته عامّة. توفي ﷺ في ١٨صفر ١٣٥١هـ=١٩٣٢م في الكاظميّة، ودفن في النجف الأشرف في مقبرة آل ياسين.

إخوتها :

أمّا إخوتها فهم :

١ ـ آية الله العظمى، شيخ الفقهاء الشيخ محمّد رضا آل ياسين، كان أُستاذاً ومرجعاً في عصره توفي في سنة (١٣٧٠هـ=١٩٥٠م) ودفن في مقبرة آل ياسين.

٢ ـ المرحوم المجاهد الشيخ راضي آل ياسين، كان من أكابر علماء

١ ـ سمعت السيد الشهيد يقول: إنّني اقطع بصحّة هذه القصّة.

الإماميّة، وهو صاحب تآليفات كثيرة منها كتاب (صلح الحسن) وكان ردحاً من الزمن عالماً في مدينة النعمانيّة.

٣ ـ المرحوم آية الله الورع التقي الشيخ مرتضى آل ياسين، كان من أكابر علماء الإماميّة ومرجعاً من مراجعهم الكبار.

لقد اطّلعت على بعض خصوصيات المرحومة والدة السيد الشهيد من خلال معايشتي لها فوجدتها والله مثال التقوى، امتلأت روحها حبّاً لله تعالى ورسوله وأهل بيته صلّى الله عليه وعليهم، وحتّى في الأيام الأخيرة من حياتها كان عشقها لأهل البيت ولأمير المؤمنين عليه‌السلام يطغى على ما كانت تعاني من آلام وأمراض فتخرج مستعينة بابنتها البارة الشهيدة بنت الهدى رحمهما الله لزيارة قدوتها وإمامها رغم ما كانت تعاني من صعوبة كبيرة في مشيتها.

وكانت لاتفارق القرآن، فهي رفيقته في كلّ وقت تتلوه آناء الليل وأطراف النهار، وكلّما انتهت منه عادت إليه.

وكانت دائمة الذكر لله تعالى، تلهج بتسبيحه وتحميده، وماانقطعت عن ذلك حتّى فارقت نفسها المطمئنّة برحمة ربّها بدنها الطاهر، ولقيت ربّها راضية مرضيّة، وكانت في فترة الحجز نموذجاً رائعاً في الصبر والثبات والاتكال على الله عز وجلّ، فلم تتململ يوماً ممّا كان يصيبها بسبب الحجز من فقد الدواء الذي كان به قوام حياتها، بل كانت تتظاهر بالصحّة والسلامة لتُشعر السيد الشهيد بعدم أهمية المعاناة الكبيرة التي تعيشها، رحمها الله وأسكنها الفسيح من جنّاته.

أولاد الشهيد الصدر:

خلف السيد الشهيد الصدر ولداً واحداً هو سماحة حجة الاسلام والمسلمين السيد محمد جعفر الصدر حفظه الله الذي يواصل نهج والده في العلم والتقوىٰ

وخدمة الدين الحنيف ولد في عام(١٩٧٠م=١٣٩٠هـ) وخلف كذلك خمس بنات طاهرات نقيات.

عبقريته المبكّرة

وممّا يروى في مجال عبقريّة السيد الشهيد (رضوان الله عليه) المبكّرة أنّه ﵁ حينما بلغ العاشرة أو الحادية عشرة من العمر وجد نفسه ـ داخل الأُسرة ـ بين نزعتين متخالفتين تتجاذبانه نحو منحيين متغايرين في التخطيط لمستقبله، فمن جانب كانت والدته تحثّه على الدراسة في الحوزة واختيار حياة الطلبة، ومن جانب آخر كان المرحوم السيد محمّد الصدر[1] يرغّبه في مستقبل يضمن فيه سعادة دنياه والعيش في رفاه ودعة بعيداً عن حياة الحوزة ومايكتنفها من فقر وفاقة.

أمّا السيد الشهيد فقد وقف موقفاً عملياً حسم به ذلك التجاذب وأشعر تلك الأطراف التي تقاطعت رغباتها بمستقبله بواقع ما يطمح إليه، فقد أضرب تقريباً عن الطعام من دون إعلان، واكتفى من الطعام بقطعة صغيرة من الخبز يسدّ بها رمقه طوال الليل والنهار.

بعد أيام أحسّ الجميع ـ بالإضراب الهادئ ـ فسألوه عن السبب فقال: إنّ الذي يستطيع أن يعيش على قطعة صغيرة من الخبز أياماً عديدة قادر على أن يستمر إلى آخر العمر كذلك، فأنا لاأخشى من الفقر ولا أخاف من الجوع.

واستطاع أن يقنع الجميع بصواب رأيه بالالتحاق بالحوزة العلميّة والانخراط في صفوف ورثة الأنبياء رغم ماقد يواجهه من صعوبة الحياة وجدب العيش فيها، وأثبت أنّ إرادته في اختيار هذا الطريق إرادة لايزعزعها شيء.

١ ـ كان رئيساً للوزراء ولمجلس النواب في الحكومات المتعاقبة في العراق.

وقد حدّثني (رضوان الله عليه) عن هذه المرحلة من حياته فقال:

«إنّ المرحوم السيد محمّد الصدر ـ رئيس وزراء العراق آنذاك ـ كان يصطحبني معه إلى مزرعته خارج بغداد على ظهر جواد له، فكان يمنّيني بمنصب كبير في الدولة وبحياة ناعمة مرفّهة إن أنا واصلت دراستي في المدارس الحكومية، فقلت له: إنّ حياة الحوزة والدراسة فيها هي خياري الوحيد، وإنّ قناعتي في ذلك تامّة رغم حاجتي للمال».

وكانت هذه بداية الطريق الى الحوزة العلمية.

ومما يجدر ذكره ان السيد الشهيد الصدر كان قبل أن يتفرغ للدراسة في الحوزة العلميّة قد تعلّم القراءة والكتابة، وتلقّىٰ جانباً من الدراسات الحديثة في مدارس منتدىٰ النشر الابتدائيّة في الكاظميّة، فكان رغم صغر سنّه موضع إعجاب الأساتذة والطلّاب لما وجدوا فيه من ذكاء كبير ووعي مبكّر، ونبوغ حادّ، وقابليات عظيمة ومما يروىٰ عنه في تلك الفترة ما كتبه الأُستاذ محمد علي الخليلي الذي كان زميله في الدراسة ونقله عنه سماحة السيد كاظم الحائري (دام ظله) في كتابه مباحث الاصول [1] قال:

«كانت تجمعنا به مدرسة واحدة ويفرقنا فارق السن والمرحلة الدراسية، إذ كان حينها في الصف الثالث الابتدائي، أمّا أنا فكنت في السنة النهائيّة من هذه المرحلة الدراسيّة.

وطبيعي ـ وللأمرين المذكورين ـ أن لا يكون اتصال مباشر، وعلى الرغم من ذلك فقد كان موضع اهتمامنا ومحط أنظارنا نحن تلاميذ المدرسة صغارا وكباراً،كما كان موضع تقدير واحترام معلّميه، وأكثر ما كان يلفت نظرنا هو اهتمام المعلمين به دون استثناء، فقد كانت له شخصيّة تفرض وجودها، وسلوك يحملك على احترامه والنظر إليه نظرة تختلف عن نظرتك لبقيّة زملائه.

١ ـ مباحث الاصول الجزء الاول من القسم الثاني الصفحة:٣٣.

كنّا نعرف عنه أنّه مفرط في الذكاء ومتقدّم في دروسه تقدّماً يبزّ فيه زملاءه كثيراً، أو ندر نظيره، وماطرق أسماعنا انّ هناك تلميذاً في المدارس الأُخرىٰ يبلغ بعض ما يبلغه من فطنة وذكاء، لذا اتخذه معلموه نموذجاً للطالب المجدّ والمؤدّب والمطيع. فما من درس يمرّ بنا إلّا وكان حديث المعلّم عنه يطغىٰ على ما يُلقّننا من مادّة، وكان ذلك يزيدنا احتراماً له وإعجاباً به، حتّىٰ أخذ بعض الطلبة يجهد نفسه في تقليده في مشيته وفي حديثه وفي جلوسه في الصف لينال ما يناله من احترام وإعجاب، وقد بلغ احترام زملائه له وجميع تلاميذ المدرسة احترامهم لمعلميهم إن لم يتعدّاه أحياناً، فهم يتهيّبون التحدّث إليه إلّا إذا شعروا برغبة منه في الحديث وإلّا أن يكون هو البادئ في الحديث.

وقد تجاوز هذا الإعجاب به والحديث عنه جدران المدرسة إلى الشارع والسوق والمدارس الأُخرىٰ وفي كلّ مكان، حتىٰ أنّني فوجئت يوماً أنّ أبي يدعني إلى ان اقتدي به في سلوكي وفي حديثي مع الناس. وقد كان هذا شأن كثير من الآباء مع أبنائهم لو أرادوا لهم النصح.

ومما زاد تعرّف الناس عليه هو قيامه بإلقاء الخطب والقصائد التي كان يهيّؤها له معلّموه المتمكّنون من اللغة العربيّة في المواكب الحسينيّة التي تنظّمها المدرسة كلّ عام في يوم عاشوراء، أو في وفيات بعض الأئمّة الأطهار، حيث كان يرتقي المنبر المعدّ له في الصحن الكاظمي ليلقي القصيدة أو الكلمة في المناسبة عن ظهر قلب، ويبدو وكأنّه يرتجل مسترسلاً دون توقّف أو تلكّؤ، وقد تعجب أيّها القارئ أنّ فترة حفظه لها لا تتجاوز مسيرة الموكب من المدرسة إلى الصحن الشريف، وكثيراً ما كنت أسمع أنا وغيري من الطلاب كلمات الاستحسان والتعجّب والتشجيع من قبل الناس المحتشدين حول موكب مدرستنا(مدرسة منتدىٰ النشر في الكاظميّة) وقد أعطىٰ ـ وهو في هذه السن ـ لموكبنا منزلة قد

تفوق منازل المواكب الأُخرىٰ، فقد كان الناس يرافقون الموكب منذ لحظة انطلاقه من المدرسة إلى الصحن الشريف حيث نجد عدداً كبيراً من الناس ينتظرون الموكب بشوق ولهفة، وكان تحشّدهم يزداد إذا كان هو الخطيب في ذلك اليوم، وأمّا إذا كان غيره ينفض عن الموكب الكثيرون منهم، فقد كان لإلقائه حلاوة وتأثير غريب فيِنفوس الجماهير يزيده روعة صغر سِنّه.

وفي تلك السنين القليلة عرفنا باقر الصدر ـ وليتها كانت طويلة ـ وعرفه الناس الذين يقصدون الكاظميّة من بغداد وضواحيها لحضور المواكب والمجالس الحسينيّة.

وإنّنا زملاؤه في المدرسة عرفناه أكثر في مواقفه هذه، وعرفناه طالباً مثاليّاً في سلوكه وفي جميع تصرّفاته. وما أتذكّر أنّه كان له حُسَّدٌ من الطلاّب، بل كان حبّهم له يطغىٰ على كلّ شيْ يتودّدون ويتقرّبون منه، وذلك بسبب سلوكه العقلاني معهم، واضفاء حبّه وحنانه على من هو أصغر منه، واحترامه لمن هو أكبر منه، وكنّا نشعر ـ وإن كبرناه سنوات ـ لقد كان والله معجزة وآية من آيات خلق الله، ولا أجدني مبالغاً مهما قلت عنه وأطنبت في امتداحه والثناء عليه وتعداد حسناته وصفاته التي لم نجد لها نظيراً في سمّوها لدىٰ غيره من كلّ تلامذة المدارس.

كان ينتحي زاوية من زوايا المدرسة انفرد هو بها ولم يقربها غيره احتراماً له وذلك في كلّ استراحة بعد كلّ محاضرة في الصف، وكان يلتف حوله في تلك الزاوية عدد من أترابه التلاميذ ورفاق صفّه أو في الصفوف الأعلىٰ. كنّا نراقب هذا الاجتماع ونرقبه وهو يتحدّث إلى المحيطين وكلّهم إصغاء له، يتحدّث إليهم بهدوء، ويلفّه هدوء، ويغطّيه سكون، والكلّ صاغون إلى حديثه، ساهون مسحورون، وقد أثارت فضولنا هذه الحالة وهذا الاجتماع، فهممنا عدّة مرّات لأن ننضمّ إليهم ولكنّ فارق السنّ ـ كما قلنا ـ كان يحول بين رغبتنا وبين تحقيقها.

وجاء ذلك الذي لم أنسه ولن انساه، كان يوماً جديداً لم يمرّ بنا مثله حين طغت علينا غريزة حبّ الاطلاع فاندفعنا ـ وكأنّنا مقادون ـ إلى حيث يعقد اجتماعه، وانضممنا إلى الثلة التي كانت تحيط به، وقد كانت خطوتنا هذه مفاجأة له، سكت عندها قليلاً عن الحديث، وبعد أن ألقىٰ علينا نظرات فاحصة كأنّه كان يريد أن يقول لنا هل أستمر في الحديث؟ وبعدها راح يواصل حديثه، حديث لم نألفه من قبل، فلا هو توضيح وشرح لما نأخذ من دروس عن أساتذتنا، فقد كان حديثاً تتخلّله عبارات هي بالنسبة لنا غير مفهومة أو صعب فهمها، ولأوّل مرّة سمعنا فيها كلمة (الماركسيّة) و(الامبرياليّة) و(الديالكتيكيّة) و(الانتهازيّة) وكلمات أُخرىٰ أظنها كانت تعني أسماء لفلاسفة وعلماء وشخصيّات لم يحضرني منها سوىٰ اسم (فيكتور هوغو) و(غوته) وغابت عني أكثرها إذ مرَّ عليها زمن طويل قارب الأربعين عاماً، ولأنّها كلمات كانت في حينها يصعب علينا نطقها وتلفظّها، كانت غريبة علينا جداً ولم نسمع بها أو بمثلها من الأسماء في كتبنا الدراسيّة، ولم نقرأ فيها إلّا (اديسون) و(نيوتن) وغيرهما ممن درسنا عنهم وعن اكتشافاتهم واختراعاتهم.

لقد كان يهيم في حديثه ويسبح في بحر من الخيال والتسامي او يغوص في بحر لجّي يلتقط منه العبارات والمعاني والأفكار.

لقد حَمَلنا شوقنا إلى المعرفة أن نكرّر انضمامنا إلى مجموعته التي أُطلق عليها اسم ـ الحوزة ـ وكلّنا نرغب رغبة ملحّة في أن نفهم ما يتحدّث به، ونحن لا ندري هل أنّ هؤلاء الصبية والأطفال المحيطين به يعون ويدركون ما يتحدّث به إليهم ويتفهّمون ذلك؟ وهذا ما كان يثير اهتمامنا بقدر ما كنّا نرغب في التزوّد من معارفه آنذاك والتي كنّا نراها أشياء جديدة علينا، ولكنّ فيها متعة ولذّة وإن لم ندرك أكثرها، وكنّا نستزيده فيزيد، ونطلب منه أن يعيد علينا ما حدّثنا به قبل يوم فيجيب دون أن يلتمس لنفسه عذراً أو يقابلنا برفض، فقد كان همّه كلّ همه أن نفهم

وأن نعي ما يحدّثنا وكأنّه نذر ساعات لعبه و لهوه ـ وهو بهذا السن ـ ليكون معلّماً ومفقّهاً.

واصلنا حضورنا حوزته هذه حتىٰ كانت نهاية العام، وبدأت العطلة فافترقنا حيث التحقنا نحن في المدرسة المتوسّطة وبقي هو في مدرسته قليلاً حتىٰ علمنا أنّه تركها لينصرف إلى الدرس.

كانت أياماً مضيئة وجميلة، وكانت حُلماً حلواً مؤنساً أخذنا فيها عنه أشياء كثيرة ساعدتنا على أن نفهم مانقرأ من كتب غير كتبنا المدرسيّة، كتبٌ كان يزوّدنا بها هو أحياناً كلّما التقىٰ واحداً منا، وقليلاً ماكنا نلتقيه اِلّا في داره حيث كنّا نجده مكبّاً علىٰ قراءة كتب لانعرف حتىٰ أسماءها وكتب كنا نقتنيها من المكتبات او نستعيرها من الاصدقاء زملاء المدرسة أو من المكتبات العامة باشارة و توجيه منه. وكنا نهتم بكل كتاب ينصحنا بقراءته، وان غمض علينا شيء منه كان يعيننا على فهمه بكل سرور ورحابة صدر وهو ممتن غير مانٍّ.

كانت لنا معه أيام حلوة سعيدة عادت علينا بعد ذلك بمرارة لانتجرعها ولانتحمل مرارتها، فقد رحل عنا شهيدنا، اغتالته فئة ضالة باغية وتركنا الى حيث يرتع في نعيم دائم وسعادة أبديّة وبقينا بعده غرقىٰ في شقاء مامثله شقاء وحياة مليئة بالقسوة والظلم والإرهاب، وصارت سنوات تلك الطفولة البريئة المرحة أياماً قاسية إلّا أنّه ترك فينا وعياً ومعرفة أعانتنا على أن نزيدها ونبلغ بها حداً نتفهّم فيه كلّ شيء في الحياة.

تلك كانت أيام طفولتنا وصبانا مع ذلك المعلّم ـ الصدر ـ المليْ بالعلم وهو طفل، وقد تغذّينا في حوزته ونحن أطفال».

ونشرت مجلة صوت الامة في العدد (١٣) السنة الثانية /رجب /١٤٠١هـ = ١٩٨١م مقالاً للسيد (ابوبراء) [1] جاء فيه:

١ ـ مباحث الاصول ج ١ من القسم الثاني :الصفحة ٣٨.

«شاءت الصدف أن أتخذ لي مكاناً إلى جانبه في أحدالمجالس التأبينيّة التي أُقيمت تخليداً لذكرىٰ الشهيد الصدر. وفي التفاتة مني إليه غير مقصودة وجدت عليه أمارات الألم و الحزن الشديدين، أمارات لم أجدها ترتسم على وجوه الآخرين، بل لا أُغالي إذا قلت: كانت عليه سيماء الثكل ولم ينتبه الىٰ التفاتتي فقد كان ساهياً منصرفاً عن كلّ ماهو حوله ومثبتاً عينيه على صورة للشهيد الصدر كانت معلّقة أمامه، وهو يصدر الآهة إثر الآهة، ويجذب الحسرة تلو الحسرة، وبين كلّ لحظة وأُخرىٰ تنحدر من عينيه دمعتان كان يكفكهما بمنديل يحمله بيده، كان يبكي ويتألّم بصمت. وقد لفت نظري كثيراً رغم أنّ كلّ من كانوا في الحفل أعرقتهم فاجعة الذكرىٰ بآلامها وأشجانها وربما علا صوت نحيب من هنا أو هناك لبيت شعر من قصيدة شاعر، أو لعبارة من كلمة خطيب تثير في النفوس شجاها و تحرّك عواطفها وأحاسيسها إلّا هذا، فما سمعت منه الّا الآهات والتنهدات والأنّات الخفيّة.

إنّ كلّ الذين كانوا في الحفل أو جلّهم يعرفون الصدر إمّا عن كتب، أو من خلال جهاده في سبيل إعلاء كلمة الحقّ، إذن لابدّ أن يكون لهذا شأن آخر، هكذا قدّرت وقد أصاب تقديري فسألته وقطعت عليه وجومه وشرود فكره، وقد جاء سؤالي كمتنفّس له وداع إلى بثّ ما في جنبيه من ألم دفين وحزم كمين، ويبدو أنّه عرفني و اطمأنّ إليّ فراح يحدّثني و بنبرات تقطّعها الآهات والحسرات.

قال بعد تنهدة عميقة: إنّ علاقتي بالفقيد علاقة الأخ الكبير بأخيه الصغير الوحيد، كان ذلك في السنوات الأخيرة من الأربعينيات يوم كان طالباً في المراحل الأُولىٰ من الدراسة الابتدائيّة، وكنت معلّماً في المدرسة التي كان يتعلم بها وهي مدرسة منتدىٰ النشر الدينيّة الابتدائيّة في الكاظميّة، وقد رأيت أنّ هذا التلميذ يوليه المدير عناية خاصّة ويرعاه رعاية يشوبها الاحترام والتقدير،

فعجبت في بادئ الأمر لذلك، وأخيراً اتضح لي بأنّ هذه العناية لم يكن مبعثها لأنّه ينتمي لعائلة كريمة الحسب عُرف كثير من أفرادها واشتهروا بالعلم والتقىٰ والورع، أو لأنّه يتيم فقد أباه وهو بعد صغير لم يبلغ الحلم. ولكن عنايته كانت موجهة إليه لأسباب أخرى. فأحببت أن أتعرّف أكثر على هذا الطفل سيما وإنّني حديث عهد بالعمل في المدرسة المذكورة. وشاءت الصدف أن انفرد بالسيد المدير فأستوضح منه عمّا كان يشغل تفكيري بشأن هذا الطفل فأجابني: أرجو أن ترعاه كما يرعاه زملاؤك من الهيئة التدريسيّة فقد سبق وأوصيتهم به خيراً لأنّني أتوسّم فيه أن يكون له مستقبل كبير باعث على التفاخر والاعتزاز بما يقوم به والدرجة العلميّة التي أترقّب أنّه سيصلها ويبلغها، فرحت أرقب هذا الطفل عن كثب، فأقرّبه إليَّ واتحدّث معه كلّما سنحت الفرصة مظهراً إليه حبي وودّي اللذين نميا مع الأيام بل الساعات، فصار محبّاً لي متعلّقاً بي لا يفارقني في الصف أثناء الدرس أو بعده أثناء فترة الاستراحة.

وقد كان طفلاً يحمل أحلام الرجال ويتحلّىٰ بوقار الشيوخ، وجدت فيه نبوغاً عجيباً وذكاءً مفرطاً يدفعانك على الاعتزاز به ويرغمانك على احترامه وتقديره، كما شاهدت كلّ المدرسين أيضاً يكنّون له هذا الاحترام وهذا التقدير.

لقد كان كلّ ما يدرس في هذه المدرسة من كافّة العلوم دون مستواه العقلي والفكري، كان شغوفاً بالقرائة محبّاً لتوسيع دائرة معرفته ساعياً بجهدٍ إلى تنمية مداركه ومواهبه الفذّة. لا تقع عيناه على كتاب إلّا وقرأه وفقه ما يحتويه، في حين يعزّ فهمه على كثير ممّن أنهوا المرحلة الثانويّة. ما طرق سمعه اسم كتاب في أدب أو علم أو اقتصاد أو تاريخ إلّا وسعىٰ إلى طلبه. كان يقرأ كلّ شيء وقد حدّثني أحد الزملاء ممّن كان لديهم إلمام بالماركسيّة واطلاع على كثير من الكتب التي كتبت فيها قائلاً لي: لقد جاءني يوماً مُبدياً رغبته في أن يقرأ بعض الكتب

الماركسيّة ونظريّاتها ليطّلع على مكنونات هذه النظريّة، تردّدت في بادئ الأمر عن إرشاده إلى ذلك لأنّه طفل، وخشيت أن تتشبّع أفكاره بالماركسيّة و نظريّاتها. وبعد إلحاح منه شديد ولما كنت لا أحب ردّ طلبه أرشدته إلى بعض المجلّات والكتب المبسّطة في كتابتها عن الماركسيّة وفي عرضها لها. وقد أخذت على عاتقي تهيئة ماتيسّر لي من هذه المجلّات والكتب وهي نادرة وعزيزة لأنّها كانت آنذاك من الكتب المحرّم بيعها في المكتبات. وبعد أن تسلّمها منّي تهلّل وجهه فرحاً ثم أعادها إليّ بعد أن قرأها، مكرّراً طلبه أن أجد له كتباً أكثر موضوعيّة وأعمق شرحاً وعرضاً لآراء الماركسيّة، فهيّأت له ما طلب، وكنت أظنّ أنّه سوف لايفقه منها شيئاً لأنّني أنا نفسي رغم مطالعتي الكثيرة في هذا الموضوع أجد أحياناً صعوبة في فهمها. وبعد مدّة أسبوع واحد أعادها إليّ وطلب غيرها، وأضاف المدرّس قائلاً: أحببت أن أعرف ما الذي استفاده هذا الطفل من قراءته لهذه الكتب وإذا به يدخل في شرح الماركسيّة طولاً وعرضاً، فأخذت عن شرحه لها كلّ ما غمض عليّ معناه عند قرائتي لها، فعجبت لهذا الطفل المعجزة وهو لمّا يزل في المرحلة الثالثة من الدراسة الابتدائيّة. وقد زاد في اطمئناني عندما راح يشرح لي أنّه كان يأتي على مناقشة كلّ رأي على حدة مناقشة العالم المتبحّر في العلم فاطمأننت بأنّه لم يتأثّر بالماركسيّة مطلقاً، وأنّه كان يقرؤها كناقد لاكدارس لها.

وحدّثني عنه مدرّس اللغة فقال: والله لولا الأنظمة والقوانين ولو كانت هناك حكومة تقدّر النبوغ و الكفاءة لمنحته الشهادة الثانويّة بأعلى الدرجات، وفتحت له أبواب الكليّات ليختار منها ما يشاء وكفيته أمر الذهاب إلى المدرسة والعودة منها الى البيت. إنّ إلمامه بعلوم اللغة العربيّة يفوق حدّ التصوّر لطفل في سنّه. وكم من مرّة جعلني أقف أمامه محرجاً لا أحير جواباً فأضطرّ أن أؤجل

الجواب على سؤاله إلى يوم آخر لئلا أكون في موضع العاجز عن الجواب أمام تلامذتي، وقال هذا الشيء عينه مدرّس الدين وأضاف إنّه يصلح أن يكون مدرّساً للدين وأصوله. وقال كذلك مدّرسوا العلوم الأُخرىٰ مبدين دهشتهم وحيرتهم في نبوغ هذا الطفل ومستواه خائفين أن يقتله ذكاؤه.

كان ﷺ أوّل من يدخل الصفّ وآخر من يخرج منه، وكان كلّه إصغاء وانتباه إلى ما يقوله المُدرّس، وكأنّ ما يتلىٰ شيئ جديد بالنسبة له، وكأنّه لم يحفظ في ذاكرته أضعاف ما يتلىٰ عليه في الصفّ. وما وجدته يوماً وقد ارتكبه الغرور، او طغىٰ على العجب بنفسه، أو تعالىٰ على زملائه التلاميذ مما عنده من علم ومعرفة. وكان مؤدّباً جدّاً يحترم معلميه وزملاءه ويفرض احترامه على الجميع وكثيراً ما كنّا نفتقده متغيّباً لشهر أو حواليه من المدرسة ثمّ إذا به يحضر عند الامتحان فينال الدرجة العليا ولو كانت هناك درجة أعلىٰ لاستحقها بجدارة. وكنّا عند تغيّبه نستفهم من الإدارة عن السبب فيكون الجواب الذي اعتدناه: إنّه يحضر دروساً خاصّة تشغله عن حضور المدرسة.

كنا نختاره وخاصّة مدرّس الدروس الدينيّة في درس الصلاة إماماً يؤم زملاءه في الصلاة فكان والله جديراً بها يؤديها بخشوع العابد الزاهد المتوجّه إلى ربّه العلي الكريم. وكان يُختار من بين طلّاب كلّ المدرسة لإلقاء القصائد والكلمات في الصحن الكاظمي الشريف منذ كان في الصف الثاني الابتدائي وذلك في موكب العزاء الذي اعتادت المدرسة أن تنظّمه في كلّ عام. وليس عجيباً على مثل هذا الطفل أن يستظهر قصيدة تضمّ ثلاثين بيتاً أو اكثر، أو كلمة عن ظهر قلب خلال ربع ساعة، بعدها يتلوها علينا بكلّ فصاحة متجنباً اللحن حتىٰ إذا قُرئت له ملحونة.

كان شعلة ذكاء، وقدوة أدب، ومثال قويم ونفس مستقيمة. مافاه والله بحياته في المدرسة بكلمة إلّا وبعثت في نفس سامعها النشوة والحبور، وماالتقت

عيناه قط لفرط خجله مرة عيني أحد مدرّسيه، فهو لايحدّث إلّا ورأسه منحن وعيناه مسبلتان. أحببته طفلاً صغيراً بريئاً وأجللت فيه شيخاً كبيراً لما ألمّ به من علم ومعرفة حتّىٰ أنّني قلت له ذات يوم: إنّني أتوقع أن يأتي يوم ننهل فيه من علمك ومعرفتك ونهتدي بأفكارك وآرائك. فكان جوابه بكلّ أدب واحترام وقد علت وجهه حمرة الخجل: عفواً أُستاذ. فأنا لاأزال وسأبقىٰ تلميذكم وتلميذ كلّ من أدّبني وعلّمني في هذه المدرسة، وسأبقىٰ تلميذكم المدين إليكم بتعليمي وتثقيفي .. ثمّ ختم الرجل حديثه بقوله: أتريدني بعد كلّ هذا أن لا أحزن عليه حـزن الثاكل...».

والواقع انني لااعتقد ان هناك مبالغة او نوع مـن التـطرف أمـلاه واقـع الإعجاب بالسيد الشهيد الصدر في هذين المقالين دفع صاحبيهما إلى الإطراء والمديح لأنّ واقع الحال يشهد لصحتهما فمن المعلوم أنّ أوّل من تناول الماركسيّة نقداً أساسيّاً مفعماً بالحجج القويّة والبراهين الدامغة كان هو الشهيد الصدر ﵀ رغم أنّ المناهج الحوزويّة ـ وخاصّة في تلك الفترة الزمنيّة ـ لاتعرف هذا اللون من الدراسات، وكون السيّد الشهيد الصدر أوّل من طرق هذا الباب كان يقتضي أنّه قد بحث هذا الموضوع ـ ولو بشكل بدائي ـ في مرحلة مبكّرة من عمره ويشهد لذلك أنّ النتاجات الفكريّة له ومنها كتاب فلسفتنا كانت سابقة رتبة علىٰ نتاجاته الفقهيّة والأُصوليّة إجمالاً، وهذه الملاحظة يمكن أن تشكّل قرينة قويّة على صحّة ما جاء في المقالين السابقين.

وعن شدّة اهتمامه ـ رضوان الله عليه ـ في الدراسة والبحث وتوسيع آفاقه العلميّة في تلك الفترة ما حدثتني به أُخته الشهيده بنت الهدىٰ ـ رحمهاالله ـ قالت:

«كنت مع أخي في تلك الفترة نجمع ما نحصل عليه من مال قليل فيشتري السيد به كتاباً فنطالعه ونستوعبه، ثم يبيع الكتاب ليشتري بثمنه كـتاباً آخـر، وهكذا استمرّ الحال حتىٰ بعد هجرتنا إلى النجف الأشرف».

٣

مَسيرته العلميّة في النجف الأشرف

- الهجرة إلى النجف الأشرف والدراسة فيها.
- العبقريّة والعمق العملي.
- نشاطه التدريسي ومؤلّفاته.

الهجرة إلى النجف الأشرف والدراسة فيها

النجف الاشرف مهوىٰ الأفئدة ومحط القلوب، إليها تشدّ الرحال على مرّ الأجيال، كيف لا وهي تضمّ في رحابها باب مدينة العلم وصيّ رسول ربّ العالمين، الذي ببركة نفحاته عاشت الحوزة العلميّة التي خرّجت فطاحل العلماء الأجلاء، فكان من الطبيعي ان يستهوي ذلك قلب المرحوم آية الله السيد اسماعيل الصدر ومعه شهيدنا السيد الصدر رضوان الله عليه فهاجرا الى النجف عام (١٣٦٥هـ=١٩٤٥م) مع كافة أفراد العائلة. ومن هذا التاريخ بدأت مسيرة السيد الشهيد العلميّة.

وعن مجمل تلك المسيرة الدراسيّة المباركة كتب (رضوان الله عليه) ـ ضمن أسئلة وجّهها إليه المرحوم السيد عبد الغني الأردبيلي رحمه الله على ماأظن ـ مايلي:

تاريخ يوم ولادة آية الله العظمى السيّد الصدر دام ظلّه: «٢٥ ذي القعدة ١٣٥٣».

تاريخ مبدأ اشتغاله دام ظله:

«في الحادية عشرة من عمره كان يدرس المنطق وقد ألّف رسالة في المنطق في هذا التاريخ ضمّنهابعض الملاحظات والمؤاخذات على بعض الكتب المنطقيّة. وأكثر كتب المقدّمات والسطوح فهمها بدون درس حتىٰ أنّ شرح اللمعة

باحث كتاب الطهارة منه ـ قبل ان يدرس شيئاً منه ـ للشيخ عباس الشامي. وفي أوائل الثانية عشرة كان يدرس المعالم عند أخيه، وكثيراً ماكان يعترض على مطالب المعالم حين إلقاء الدرس عليه باعتراضات صاحب الكفاية ومثال ذلك في بحث الضدّ فقد اعترض على الاستدلال على حرمة الضدّ بالمقدميّة بإشكال الدور»

تاريخ هجرته الى النجف دام ظله:

«١٣٦٥هـ[١٩٤٥م]»

تاريخ حضوره دام ظلّه عند أساتذة الخارج مع بيان أسمائهم:

«آية الله العظمىٰ الشيخ محمد رضا ال ياسين (تنقل القصة).

آية الله العظمىٰ السيد الخوئي.

مجلس تحشية بلغة الراغبين»

تاريخ انتهاء حضوره لدى أساتذة الخارج:

«حوالي سنة ١٣٧٥[=١٩٥٥م] أنهىٰ حضور أبحاث الاصول وحوالي سنة ١٣٧٨هـ[=١٩٥٨م] أنهىٰ حضور أبحاث الفقه»

تاريخ شروعه دام ظلّه في تدريس الخارج:

«سنة ١٣٧٩هـ[=١٩٥٩م] شرع في تدريس الخارج الاصول وبعد ذلك بحوالى سنتين شرع في تدريس الخارج الفقه العروة الوثقىٰ»[١]

والقصة التي اشار إليها ـ عند ذكره للاساتذه الذين حضر عندهم بعد ان ذكر المرحوم خاله الشيخ محمد رضا آل ياسين ـ بقوله (تنقل القصة) هي ان المرحوم آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين كان يظن ان حضور السيد الشهيد الصدر

١ ـ راجع الوثيقة رقم ٢١.

رضوان الله عليه لبحثه حضور تشريفي وليس لغرض التحصيل العلمي وذلك لأنّ عمره لم يكن يتناسب مع مستوىٰ بحث الخارج، فمن المعلوم في أوساط الحوزات العلميّة أنّ الطالب الذي يحق له حضور أبحاث الخارج يحتاج إلى مقوّمات علميّة خاصّة تؤهّله للاستفادة من تلك الأبحاث وهي بطبيعتها تحتاج إلى فترة زمنيّة طويلة من الدرس والجهد المكثّف. ولم تكن شخصيّة الإمام الشهيد الصدر العلميّة وقابليّاته الذاتيّة معروفةً لدى المرحوم آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين إذ أنّه رضوان الله عليه كان يكتفي بالاستماع لأبحاث أُستاذه ويتجنّب المناقشة أو الاعتراض التي هي أحد المنافذ التي يمكن للاستاذ أن يُقيّم مستوىٰ تلاميذه من خلالها، وعلىٰ هذا الأساس كان الاعتقاد السائد أنّ حضور السيّد الشهيد الصدر لبحث خاله كان شكليّاً.

إلّا أنّه حدث ما غيّر من تصورات الشيخ محمد رضا آل ياسين ﷺ وجعله يعتقد أنّ السيّد الصدر يستحقّ ـ وبجدارة ـ حضور بحث الخارج وهو في هذا السنّ المبكّر. والذي حدث هو أنّ الشيخ ﷺ كان يبحث مسألة فقهيّة وهي: أنّ الحيوان هل يتنجّس بعين النجس ويطهر بزوال العين التي نجّسته، أو لا يتنجّس بعين النجس؟ فذكر ﷺ أنّ الشيخ الأنصاري ذكر في كتاب الطهارة أنّ هنا ثمرة في الفرق بين القولين تظهر بالتأمّل. وقال: إنّ أُستاذنا المرحوم السيّد اسماعيل الصدر حينما انتهىٰ بحثه إلى هذه المسألة طلب من تلاميذه أن يكتشفوا ثمرة الفرق بين القولين، فبيّنّا له ثمرة الفرق بين القولين، وأنا أُطلب منكم اكتشاف الثمرة والإتيان بها في بحث اليوم التالي.

وفي اليوم التالي حضر شهيدنا الصدر قبل الآخرين وقال للشيخ: إنّي جئت بثمرة الفرق بين القولين، وذكر الثمرة، ممّا أثار إعجاب الشيخ ﷺ وقال له: أعد

بيان الثمرة لدىٰ حضور باقي الطلّاب. فلمّا حضروا طالبهم الشيخ آل ياسين بالثمرة، فلم يتكلّم منهم أحد، فقال الشيخ: إنّ السيّد محمد باقر الصدر أتىٰ بثمرة جديدة غير الثمرة التي ذكرناها لأُستاذنا، وهنا بيّن شهيدنا الصدر الثمرة بين القولين، فأثار إعجاب الحاضرين وعُرف من ذلك الوقت بالعلم والفضيلة رغم صغر سنّه.

ورغم عبقريّة السيّد الشهيد الصدر وما كان يتمتّع به من ذكاء خارق ولياقات تؤهّله للاستغناء عن الحضور لدىٰ اساتذة وعلماء، وهو كما قال قد فهم أكثر كتب المقدّمات من دون أُستاذ، فإنّه مع ذلك حرص على التتلمذ بما هو سائد في المناهج والأعراف الحوزويّة فلم يتكبّر ولم يتعال عن الحضور والجلوس أمام الأساتذة والتلقي منهم و الاستفادة من أبحاثهم، لابل كان يعتزّ بحضوره ويفتخر به، وسوف نرىٰ في طيّات هذا الكتاب مجموعة من الرسائل الخطيّة تشير إلى مدىٰ احترامه واعتزازه بأساتذته.

هذه وقد حضر ﵀ عند جملة من الاساتذة او استفاد منهم بشكل وآخر غير من تقدم ذكرهم وهم آية الله الشيخ ملاصدرا البادكوبي، درس عنده الجزء الثاني من الكفاية والأسفار الأربعة، وحضر لدىٰ آية الله الشيخ عباس الرميثي، وآية الله الشيخ محمد تقي الجواهري، درس عنده الجزء الأوّل من الكفاية وقسماً من كتاب اللمعة.

هؤلاء أساتذة شهيدنا الصدر ﵀ وقد حضر عند بعض الأساتذة الآخرين بعض المواد الدراسيّة ككتاب المكاسب الذي اتفق مع أُستاذه ـ وهو المرحوم آية الله السيد محمد الروحاني ﵀ ـ على أن يستمع الأُستاذ لشرح السيد الشهيد للمادة العلميّة ويناقشه في الموارد التي تحتاج إلى نقاش الأُستاذ أو توضيحه.

تعليقته على (بلغة الراغبين):

وممّا يذكر عن نبوغ وذكاء السيد الشهيد (رضوان الله عليه) في تلك الفترة، والمكانة التي وصل إليها وهو في سن مبكرة أنّه لمّا توفي الشيخ آل ياسين ﵀ في سنة (١٣٧٠هـ=١٩٥٠م)علّق المرحوم آية الله الشيخ عباس الرميثي على رسالة آل ياسين المسمّاة بـ«بلغة الراغبين» ولشدة اعتقاده بذكاء ونبوغ السيّد الشهيد طلب منه حضور المجلس الخاصّ بكتابة التعليقة ليشارك هو أيضاً بعمليّة الاستنباط.

وكان الشيخ الرميثي يقول له في ذلك التاريخ: «أنّ التقليد عليك حرام».

وهذا يدلّ على أنّ السيد الشهيد ﵀ كان قد بلغ مرتبة الاجتهاد وهو في سنّ مبكّرة جدّاً.

وقد سمعت السيّد الشهيد يقول: إنّي لم أُقلّد أحداً منذ بلوغي سنّ الرشد.

وكان السيد الشهيد (رضوان الله عليه) في تلك الفترة قد كتب أيضاً تعليقة على رسالة المرحوم الشيخ آل ياسين المسمّاة بـ«بلغة الراغبين»، وكان يأسف على ضياع تلك النسخة التي تعتبر من أغلى ذكريات عمره العلمي.

وشاء الله تعالى أن أعثر على تلك النسخة، وكان لذلك قصّة هي:

كنت قد سمعت من السيد الشهيد ومن والدته (رحمهاالله) أنّ سادن الروضة الحسينيّة (الكليدار)في زمن والد السيد الشهيد أهدى لمراجع ذلك الوقت ومنهم المرحوم السيد حيدر الصدر (تربة) للصلاة كان قد أحضرها من تراب قبر سيد الشهداء ـ أي التراب القريب جدّاً من جسد الإمام الحسين ﵇ ـ فكانت هذه التربة الشريفة يتغيّر لونها منذ طلوع فجر يوم العاشر من محرم الحرام في كلّ عام، ففي أوّل الفجر من اليوم العاشر يبدأ لونها بالإحمرار تدريجياً حتّى يشتدّ فتصير عند

الزوال كأنّها علقة دم. وكان السيّد الشهيد يشير بيده إشارة توحي إلى أنّها تتحوّل إلى دم حقيقي، وبعد الزوال يبدأ لونها يعود إلى حالته الأُولى. فكان السيد الشهيد يقول: كنّا لانشكّ في يوم العاشر من المحرم بسبب خاصيّة هذه التربة المقدّسة.

وذكرت لي والدته (رحمها الله) قصصاً عجيبة وكرامات عديدة لهذه التربة في شفاء الأمراض.

وفي يوم من الأيام سألت السيد الشهيد عن هذه التربة المقدّسة هل لازالت موجودة؟ فقال: كلا، لقد فقدت أثناء هجرتنا إلى النجف أو بعدها بقليل.

وكانت بعض المخلّفات والمتروكات من حاجيات منزل السيد الشهيد قد حفظت في صناديق ووضعت في (سرداب) المنزل، فدفعني أمل العثور على التربة إلى التفتيش والفحص، فكنت في أوقات الفراغ أقلّب محتويات تلك الصناديق وأُفتّش صغيرها وكبيرها بحثاً عن تلك التربة، فلم أعثر على شيء، إلّا أنّي وجدت في أحد الصناديق مجموعة كبيرة من الأوراق والدفاتر، كان منها النسخة الأصليّة لكتاب «اقتصادنا»، ووجدت كتاباً مطبوعاً سقطت عدّة صفحات من أوّله، عليه تعليقات فقهيّة بخطّ السيد الشهيد، فاعتقدت أنّها كتاب «بلغة الراغبين» الذي تحدّث عنه السيد الشهيد، فأخذتها مسرعاً وقدّمتها لسماحته، وقلت له: لعلّ هذه هي تعليقتكم على «بلغة الراغبين» قد عثرت عليها في الصناديق المودعة في (السرداب).

أخذها السيد الشهيد (رضوان الله عليه) وقلّب صفحاتها ثمّ قال: نعم، هذه تعليقتي على «بلغة الراغبين». وبعد ذلك حاول أن يعرف مقدار الفرق الحاصل في فتواه في الفترة ما بين تاريخ تعليقته على «بلغة الراغبين» وحتى تاريخ كتابته للفتاوى الواضحة، فوجد بعد الفحص والتدقيق أنّ التطابق بين الفتاوى كبير جدّاً، وموارد الاختلاف يسيرة وقليلة.

وليس هذا عجيباً بالنسبة لمن يعرف مستوى نبوغ وذكاء الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) إذ ليس من دأب شهيدنا العبقري أن تحوم أبحاثه العلميّة حول سطوح المطالب بعيداً عن العمق، بل كان يغور إلى أعماقها حتّى تبدوله خفاياها بحيث لا يترك مجالاً لأيّ باحث من أن يزداد عليه تحقيقاً أو تعميقاً، ولم يكن متردّداً في ما يرتّبه من نتائج أو ما يختاره من حلول وآراء، وكان يمتلك قدرة فائقة على سبر غور المطالب العلميّة رغم تعقيدها وتشعّبها دون أن تختلط عليه مباحثها، بل كان يمتلك من الوضوح ما يمكّنه من الإحاطة التامّة بها، ويقلل إلى درجة كبيرة فيها خطأه. فكان يأتي فيها بالتحقيق الجديد أو الإبداع المبتكر فتراه مهيمناً بشكل مطلق على كلّ المطالب العلميّة التي بحثها أو كتبها.

كان (رضوان الله عليه) حينما يقرأ أو يكتب أو يفكّر ينقطع عن المحيط الذي يعيش فيه، وينسجم مع الحالة التي هو فيها انسجاماً بنحو لا يشعر معها بما حوله وكنت في أحيان كثيرة أردع أطفاله الصغار عن اللعب أو الصياح ظنّاً منّي أنّ ذلك يوفّر له جواً مناسباً للتفكير والمطالعة، إلّا أنّي لاحظت أنّ شهيدنا لا يعبأ بما يحدث حوله، ولا يتضجّر من الضجيج والصياح، فسألته عن سبب ذلك فقال لي:

«حينما أنسجم مع المطالب العلميّة لاأشعر بما حولي»

ولقد سمعت من زوجته العلوية التقية أمّ جعفر تقول: حينما يستغرق السيد في المطالعة أو التفكير ينسى كلّ شيء، حتّى طعامه، فأراني مضطرة في آخر الأمر إلى قطع تأمّله أو مطالعته، فأقول له: لقد قرب الظهر ولاشيء عندنا، عندها يقوم ليشتري بنفسه ما نحتاج إليه. ومن الطرائف في هذا الباب ما كان يذكره من أنّه كان يستغرق أحياناً في التفكير بشكل مستمر طوال اليوم والليل ولا ينقطع إلّا عند النوم، ثمّ إنّه عندما كان يستيقظ يبدأ من نفس النقطة التي انتهى إليها عند النوم، وبذلك يفسّر قدرته على استيعاب جميع هذه المطالب.

هذه الحالة هي إحدى خصائص السيد الشهيد (رضوان الله عليه)، وهي خاصيّة قلّ من يستطيع أن يربّي نفسه عليها، ولذلك فإنّ معظم من عاش مع السيد الشهيد يعرف أنّ كلّ مولّفاته كتبها مرّة واحدة وبلا إعادة نظر فيها، فهو لا يعرف مانسمّيه بـ(المسودّة والمبيضّة)، وحتّى أخطر كتبه وأدقّها وأصعبها، وهو كتاب «الأُسس المنطقيّة» كتبه مرّة واحدة ،وهذا أمر يثير الدهشة. وإضافة إلى ذلك فقد كانت سرعته في الكتابة عجيبة قلمٌ يلتهم الصفحات فيملأها نوراً وعلماً وحكمة.

محاورته العلميّة مع السيّد الخوئي:

وعن عبقريته وذكائه العجيب يروي سماحة آية الله السيد كاظم الحسيني الحائري (دام ظله) في كتابه «مباحث الأُصول» [1] المحاورة العلميّة التالية التي جرت بين السيد الشهيد وأستاذه السيد الخوئي ﷺ ـ والسيد الخوئي معروف بقدرته الكبيرة على النقض ـ فقال:

«ذكر الأُستاذ الشهيد (رضوان الله عليه) أنّه أورد على أُستاذه فيما بين الصلاة والدرس بأنّ الأُصول العمليّة لا تجري بلحاظ الحكم الظاهري، حيث إنّ التنجيز والتعذير إنّما يكونان بلحاظ الواقع ولامجال لجريان أصالة البراءة أو الاشتغال بلحاظ الحكم الظاهري؛ لأنّها إن جرت بلحاظ الحكم الظاهري على خلاف ما هي جارية بلحاظ الحكم الواقعي فلابدّ من الأخذ بما جرى بلحاظ الواقع، وإن جرت بلحاظ الحكم الظاهري بالشكل المماثل لجريانها بلحاظ الواقع فهي لغو، إذ كان جريانها بلحاظ الواقع مغنياً عن جريانها بلحاظ الظاهر.

قال الأُستاذ الشهيد (رضوان الله عليه): إنّ كلامي هذا كان وفق مبنى السيد الأُستاذ القائل بعدم جريان الاستصحاب في الشبهة الحكميّة، فلا تبقى إلّا

١ ـ الجزء الأوّل، الصفحة ٢٠٧.

أصالة البراءة والاشتغال وقد قلنا: إنّهما إنّما يجريان بلحاظ الواقع.

وقال أُستاذنا الشهيد ﷺ: إنّ السيد الأُستاذ أجاب على الكلام بالنقض، فأجبت على النقض ،فأتى بنقض آخر، وأجبت عليه، هكذا إلى النقض السابع، فأجبت عليه، وأخذ يفكّر في الموضوع إلّا أنّه حان وقت الدرس فبدأ بالتدريس وانقطعت سلسلة البحث في هذه المسألة.

وقد نقل لي الأُستاذ الشهيد ﷺ تلك النقوض السبعة مع أجوبتها من دون الالتزام بالترتيب بين النقوض...»

وأذكر أيضاً أنّ مناقشة حدثت بين السيد الشهيد وأُستاذه السيد الخوئي في مسائل الحج فاستطاع (رضوان الله عليه) أن يغيّر أكثر من عشرة فتاوى للسيد الخوئي في موضوع الحج خلال ساعة واحدة أو ما يقارب ذلك.

العبقرية والعمق العلمي

ولأجل إحاطة القارئ الكريم بصورة أشمل عن جوانب العبقرية والعمق العلمي في شخصية السيد الشهيد أنقل هنا ما كتبه أبرز تلاميذه، وهما سماحة آية الله السيد كاظم الحائري وسماحة آية الله السيد محمود الهاشمي (حفظهما الله) باعتبارهما من جملة طلابه الذين واكبوا مسيرة السيد الشهيد العلميّة، وقرّرا أبحاثه، ونالا درجة الاجتهاد عنده، مضيفاً ـ إلى ماكتباه ـ بعض ذكرياتي عن نفس الموضوع وإن لم أكن بصدد تقييم ودراسة شخصية السيد الشهيد العلميّة في هذا الكتاب؛ لأنّي اعتقد أنّ مهمة كهذه تحتاج إلى جهود متكاتفة ومتظافرة لعدد كبير من العلماء الأكفّاء وأهل الخبرة، ولكن مع ذلك وجدت أنّ طبيعة الموضوع تقتضي التعرّض لذلك ولو بشكل محدود عسى أن يكون في ذلك البداية المتواضعة لدراسة أشمل وأوسع عن هذا الجانب من شخصية السيد الشهيد الصدر .

وصفه العلمي على لسان السيّد الحائري:

كتب سماحة آية الله السيد كاظم الحائري (دام ظله) عن هذا الجانب مايلي:

«تتميّز الأبحاث العلميّة لأُستاذنا الشهيد عن سائر الأبحاث العلميّة المألوفة بالدقّة الفائقة والعمق الذي يقلّ نظيره من ناحية، وبالسعة والشمول لكل جوانب المسألة المبحوث عنها من ناحية أُخرى، حتّى أنّ الباحث الجديد لها قلّ ما يحصل على منفذ للتوسيع أو التعميق الزائدين على ماأتى به الأُستاذ.

إضافة إلى كلّ هذا نرى من مميزات أُستاذنا العلميّة أنّ أبحاثه لم تقتصر على ما تعارفت عليه أبحاث العلماء في النجف الأشرف وقتئذٍ من الفقه والأُصول، بل شملت سائر المرافق الفكريّة الإسلاميّة كالفلسفة والاقتصاد، والمنطق، والأخلاق، والتاريخ، وفي كلّ مجال من هذه المجالات ترى بحثه مشتملاً على نفس الامتيازين الملحوظين في أبحاثه الأُصوليّة والفقهيّة من العمق والشمول.

ففي علم الأُصول نستطيع أن نعتبر المرحلة التي وصل إليها مستوى البحث الأُصولي على يد الأُستاذ عصراً رابعاً من أعصر العلم وتطوّراته التي مرّ بها علم الأُصول على حدّ مصطلحات أُستاذنا في كتاب «المعالم الجديدة للأُصول»، حيث قسّم (رضوان الله عليه) الأعصر التي مرّبها علم الأُصول من المراحل التي بلغ التمايز النوعي فيما بينها إلى ما ينبغي جعله حدّاً فاصلاً بين عصرين قسّمها إلى ثلاثة أعصر:

١ ـ العصر التمهيدي.

٢ ـ عصر العلم.

٣ ـ عصر الكمال العلمي.

أقول: لئن كان الفارق الكيفي بين بعض المراحل وبعض حينما يعتبر طفرة وامتيازاً نوعيّاً في هوية البحث يجعلنا نصطلح على ذلك بالأعصر المختلفة للعلم، فحقّاً إنّ علم الأُصول قد مرّ على يد أُستاذنا الشهيد بعصر جديد. فلو أضفناه إلى الأعصر التي قسّم إليها فترات العلم في (المعالم الجديدة) لكان هذا عصراً رابعاً هو عصر ـ ذروة الكمال ـ ترى فيه من الأبحاث القيّمة، والجواهر الثمينة، والدرر المضيئة ما يبهر العقول، وهي تشتمل على مباحث فريدة في نوعها وفيها:

ما تكون تارة جديدة على الفكر الأُصولي تماماً، أي أنّها لم تبحث من قبل.

وأُخرى تكون مغيّرة لما اختاره الأصحاب في أبحاثهم السابقة ببرهان قاطع وأُسلوب فائق.

وثالثة تكون معدّلة لنفس ما اختاره الأصحاب، ومصلحة له ببيان لم يسبق له نظير.

فمن القسم الأوّل: ما جاء به من البحث الرائع لسيرة العقلاء وسيرة المتشرّعة، فقد تكرّر لدى أصحابنا المتأخّرين التمسّك بالسيرة لإثبات حكمٍ مّا، ولكن لم يسبق أحد أُستاذنا ؒ فيما أعلم في بحثه للسيرة، وإبراز أُسس كشفها، والقوانين التي تتحكّم فيها، والنكات التي ينبني الاستدلال بها على أساسها.

ومن هذا القسم ـ أيضاً ـ بحثه القيّم عمّا أسماه بنظرية التعويض، وهو إن كان أقرب إلى فن البحوث الرجاليّة منه إلى الأُصول، ولكنّه قد بحثه بالمناسبة ضمن مباحث حجّيّة خبر الواحد، ووضّح فيه كيف أنّنا نعوّض ـ أحياناً ـ المقطع السندي المشتمل على الضعف البارز في سند الحديث بمقطع آخر غير بارز لدى الناظر بالنظرة الأوّليّة.

وهذا الأمر وإن وجدت بذوره لدى من تقدّم على الأُستاذ ؒ ولكن لم أرَ أحداً قبله يتعرّض لهذه الفكرة على مستوى البحث العلمي ويدقّق في أُسس هذا التعويض وأقسامه.

ومن القسم الثاني: بحثه البديع في حجيّة القطع الذي أثبت فيه أنّ رأس الخيط في البحث إنّما هو مولويّة المولى وحدودها، وانحدر من هذا المبدأ إلى الآثار التي تترتّب على ذلك، وانتهي إلى إبطال ما بنى عليه المحقّقون جيلاً بعد جيل من قاعدة (قبح العقاب بلابيان)، وآمن بمنجّزيّة الاحتمال، وأنّ البراءة التي نؤمن بها هي البراءة الشرعيّة، أمّا البراءة العقليّة فلا.

ومن هذا القبيل إبطاله لحكومة الأُصول بعضها على بعض حينما تكون متوافقة في النتيجة، كحكومة استصحاب الطهارة على قاعدة الطهارة، أو الأصل السببي على الأصل المسبّبي الموافق له. وكذلك إبطاله لحكومة الأمارة على الأصل لدى توافقها في النتيجة.

ومنه أيضاً إبطاله لما اشتهر من جريان أصالة الطهارة في ملاقي بعض أطراف الشبهة المحصورة.

ومنه أيضاً بحثه البديع في الوضع، وابرازه لنظرية (القَرن الأكيد).

ومن القسم الثالث: بحثه الرائع عن حقيقة المعاني الحرفيّة، حيث يوافق فيه على أصل ما اختاره المحقّقون المتأخّرون من كون المعاني الحرفيّة هي المعاني النسبيّة والمغايرة هوية للمعاني الاسميّة. ولكن مع إدخال تعديل وإصلاح جوهريين على ما أفاده الأصحاب.

ومن هذا القبيل بحثه الذي لم يسبق له نظير عن الجمع بين الأحكام الظاهريّة والواقعيّة، حيث اختار نفس ما أثبته المحقّقون من إمكانيّة الجمع بينهما، وعدم التنافي والتعارض فيما بينهما. ولكن مع التعديل الجوهري لطريقة الاستدلال وكيفية الجمع.

وقبل أن أترك هذه النقطة لا يفوتني أن أُشير إلى أنّ من أبحاثه البديعة أيضاً أبحاثه عن الترتّب، وعن التزاحم، وعن قاعدة (لاضرر) التي تعارف البحث عنها في الأُصول رغم أنّها قاعدة فقهيّة»

وعن البعد الفقهي من شخصية السيد الشهيد:

«ترى إبداعاته (رضوان الله عليه) لاتقلّ عن إبداعاته في علم الأُصول، وقد طبع من أبحاثه الفقهيّة أربعة مجلّدات بإسم «بحوث في شرح العروة الوثقى» فيها من التحقيقات الرشيقة التي لم يسبقه بها أحد ما لا يحصى، وأُشير هنا كمثال إلى بحثين من أبحاثه التي ينبهر بها الفقيه الألمعي:

أحدهما: بحثه الرائع في تحقيق نكات قاعدة الطهارة الواردة في المجلّد الثاني من البحوث المشتمل على عمق وشمول لاتراها في أبحاث أُخرى عن تلك القاعدة.

والثاني: بحثه القيّم في مسألة اعتصام ماء البئر عن كيفية التخلّص من الروايات الدالّة على الانفعال، وهو وارد أيضاً في المجلّد الثاني من البحوث، حيث ساق البحث بأُسلوب فائق لم أره لدى باحثي المسألة قبله.

ولم يوفّق (رضوان الله عليه) لكتابة الكثير عن الفقه المستدل ماعدا المجلّدات الأربعة في الطهارة، وما درّسه من الفقه المستدل أكثر ممّا كتبه، كما وقد درّس قسماً من أبحاث الخمس وغير ذلك.

والذي كان يصبو إليه ﷺ هو تطوير بحث الفقه من عدّة جوانب، وفّق لبعضها بمقدار ما كتب أو درّس، ولم يوفّق للبعض الآخر، وتلك الجوانب هي كما يلي:

١ ـ تعميق دراسته بنحو لم يسبق له مثيل، وقد وفّق لذلك بمقدار ما كتب أو درّس.

٢ ـ تبديل النزعة الفرديّة، والنظرة الموضعيّة، إلى النزعة الاجتماعيّة والنظرة العالميّة في البحوث التي تتطلّب ذلك.

وهاتان النظرتان أو النزعتان لهما الأثر البالغ في كيفية فهم القضايا الفقهيّة. فمثلاً أخبار التقية والجهاد تُفهم بإحدى النظرتين بشكل، وبالنظرة الأُخرى بشكل

آخر. وأدلّة حرمة الربا قد تفهم بإحدى النظرتين بشكل يمكن معه تحليل نتيجة الربا ببعض الحيل، وتفهم بالنظرة الأُخرى بشكل اخر لاتؤدّي إلى هذه النتيجة. وما إلى ذلك من الأمثلة الواسعة في الفقه.

٣ ـ توسيع أُفق البحث الفقهي لشتّى أبواب الحياة بالشكل المنسجم مع متطلّبات اليوم، وبأُسلوب يتجلّى به أنّ الفقه يعالج كلّ مناحي الحياة ويواكب الوضع البشري الفردي والاجتماعي حتّى النهاية، وبشكل يتّضح أنّ البحث الفقهي متحرّك يواكب حركة الحياة.

وقد شرع ﷺ لتجسيد هذا الجانب في رسالته العمليّة المسمّاه بـ«الفتاوى الواضحة»، إلّا أنّ استشهاده قد حال بينه وبين إكمال الكتاب.

٤ ـ تطوير منهجيّة عرض المسائل وتبويبها بالشكل المنعكس في مقدّمة الفتاوى الواضحة.

٥ ـ وكان ﷺ عازماً على أن يبحث فقه المعاملات بشكل مقارن بين فقه الإسلام والفقه الوضعي؛ كي يتجلّى أنّ الفقه الإسلامي هو الجدير بإدارة الحياة و إسعادها دون غيره، وقد حالت جريمة البعث الكبرى بينه و بين إتحافنا بهذا البحث القيّم..».

وعن البعد الفلسفي في شخصية السيد الشهيد قال:

«ألّف الأُستاذ الشهيد ﷺ كتاب «فلسفتنا» الذي قارع فيه الفلسفات المادّيّة والمدارس الفلسفيّة الحديثة الملحدة، وبالأخصّ الديالكتيكيّة الماركسيّة، بأسلوب بديع وببراهين قويمة ومناهج رائعة. وهذا الكتاب قد أصدره بجهود تظافرت مدّة عشرة أشهر فحسب.

والرأي الذي اعتنقه ﷺ في فلسفتنا في نظرية المعرفة قد عدل عنه إلى رأي آخر في كتابه المسمّى بـ«الأُسس المنطقيّة للاستقراء»، يختلف عن رأيه الأوّل في عدد مهم من أقسام المعرفة البشريّة.

وقد بدأ أخيراً بتأليف كتاب فلسفي معمّق ومقارن بين آراء الفلاسفة القدامى و الفلاسفة الجُدد، وبدأ ببحث تحليل الذهن البشري ولم يوفّق لإتمامه، ولانعلم بمصير ما كتبه في ذلك، ولعلّه صُودر من قبل البعث العميل الكافر ضمن ماصودر من كتبه وممتلكاته.

وفي المنطق تعرّض الأُستاذ الشهيد ﵀ ضمن أبحاثه الأُصوليّة لدى مناقشته للأخباريين حجّيّة البراهين العقليّة إلى نمط التفكير المنطقي الأُرسطي ونقده بما لم يسبقه به أحد. وبعد ذلك طوّر من تلك الأبحاث وأكملها وأضاف إليها فأخرجها بأروع صياغة بإسم كتاب «الأُسس المنطقيّة للاستقراء».

ومن جملة ما أوضحه في هذا الكتاب عدم بداهة قسم من العلوم التي يقول المنطق الأُرسطي ببداهتها: كالمحسوسات بالحسّ الظاهري، والمتواترات، والتجربيّات، والحدسيّات، وأنّ هذه العلوم إنّما تبتني على أساس حساب الاحتمالات، وليس على أساس البداهة والضرورة.

وفي الأخلاق: تعرّض الأُستاذ الشهيد ﵀ لأرقى بحث أخلاقي علمي ضمن أبحاثه الأُصوليّة لدى البحث عن الحسن والقبح العقليين بمنهج لم يسبق له نظير.

وفي التفسير تعرّض (رضوان الله عليه) في أواخر حياته لأبحاث تفسيريّة قيّمة تختلف في أُسلوبها عن نمط التفاسير التجزيئيّة المتعارفة، أعطاها عنوان (التفسير الموضوعي) وتلك أبحاث ألقاها في محفل عامّ للبحث. ولم يكن الحضور فيه خاصّاً بفضلاء طلابه أو المحقّقين العلماء؛ ولذا لم يكن من المتوقّع أن يلقي هذه الأبحاث بما هو المأمول منه من مستوى العمق والدقّة، إذ أنّ ذلك يناسب الحضور الخاصّ وليس الحضور العامّ، ومع ذلك ترى في تلك الأبحاث من العمق والتحليل الدقيق مايبهر العقول. ويدلّ على مدى شموخ المستوى الفكري لهذا المفكّر العظيم.

وفي مجال الاقتصاد: كتب أُستاذنا الشهيد كتاب «اقتصادنا» لنقد المذاهب الاقتصاديّة الماركسيّة و الرأسماليّة، وتوضيح خطوط تفصيليّة عن الاقتصاد الإسلامي، ولا أقول: إنّه لم يوجد قبله فحسب كتاب في الاقتصاد الإسلامي بهذا المستوى، بل أقول: لم يوجد حتّى يومنا هذا ـ الذي مضى على تأليف كتاب اقتصادنا حوالي ربع قرن ـ من كتب بمستواه.

وفي التاريخ كتب (رحمه الله) تاريخاً تحليليّاً عن قصة فدك، وكان عمره وقتئذٍ حوالي سبع عشرة سنة، وترى في هذا الكتاب الذي يمثّل السنين الأُولى من بلوغه سنّ التكليف ما يعجبك من روعة التأليف وعمق التحقيق والتدقيق. وممّا يزيدك إعجاباً بهذا الكتاب أنّه جاء فيه ببعض المناسبة بعض المناقشات الفقهيّة الدقيقة لما جاء في كلمات أكابر الفقهاء، وهذا ما لايصدر عادة إلّا من العلماء المحقّقين الكبار في سنين متأخّرة من أعمارهم.

هذا، وبعد ردح من الزمن جاءت لأُستاذنا الشهيد أبحاث في منتهى الروعة في تحليل تاريخ أئمتنا الأطهار (عليهم السلام) من زاوية عملهم لإعلاء كلمة الله على وجه الأرض، كان يلقيها على طلابه في أيام وفيات الأئمة (عليهم السلام) كأُطروحة شاملة متناسقة لكل أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في المنهج الذي نهجوه لخدمة الإسلام الحنيف.

وجميع أبحاثه (رضوان الله عليه) ترى فيها إضافة إلى الدقّة والعمق مع السعة والشمول منهجة فنّيّة رائعة في طريقة العرض»[1].

أرقام مضيئة عن حياته العلميّة:

وهنا أُضيف بعض المعلومات التي تساهم في إلقاء الضوء على هذا الجانب

١ ـ آية الله السيد كاظم الحائري، مباحث الأُصول، ج١،من القسم الثاني، ص ٥٧ ـ ٦٥.

من شخصية السيد الشهيد ﵀:

١ ـ يعتبر علم أُصول الفقه من أهمّ العلوم واصعبها في المنهج الدراسي للحوزات العلميّة خاصّة بشكله المعمّق الذي وصل إليه على أيـدي عـلمائنا الأبرار، ووصل إلى ذروة الكمال على يد السيد الشهيد حسب تعبير سماحة آية الله السيد كاظم الحائري.

والذي أُريد أن أُثبّته هنا أنّ السيد الشهيد (رضوان الله عليه) استطاع إكمال الدورة التدريسيّة الأُولى لعلم الأُصول ـ بحث الخارج ـ اعتماداً على ذاكرته فقط، ولم يعتمد على شيء قد أعدّه لهذا الغرض، سوى التحضير اليومي، والمراجعة العادية للمصادر الخاصّة بهذا العلم. ولذلك حينما بدأ بتدريس الدورة الثانية كتب إلى سماحة السيد الحائري ـ وكان قد ترك العراق وهاجر إلى إيران بسبب مطاردة السلطنة البعثيّة له ـ أن يصوّر له بعض ماكتبه من تقريرات لأبحاثه ويبعثها إليه، وكان سماحة السيد الحائري قد كتب دورة أُصوليّة كاملة لأبحاث السيد الشهيد (رضوان الله عليه)، فصوّر له القسم الذي طلبه وبعثه إليه فكان قبل أن يذهب إلى البحث يلقي نظرة على الموضوع الذي هو محل حاجته منها كعملية استذكار فقط، وهكذا استمر الحال إلى أن ترك التدريس بسبب حجز السلطة له[١].

واعتقد أنّ المشاكل الصعبة، والظروف القاسية، والضغط الذي مارسته سلطة حزب البعث عليه هي التي جعلته يحتاج إلى عملية الاستذكار هذه، وإلّا فإنّه قادر على تدريس الدورة الثانية ـ لوكانت الظروف طبيعيّة ـ دون حـاجة إلى ذلك الاستذكار.

وممّا يؤيد هذه الحقيقة أنّه (قدس الله روحه) ألّف كتاب «دروس في علم

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٣).

الأُصول» ـ وهو كتاب دراسي منهجي دقيق وضعه للتدريس في الحوزة ـ من دون تحضير وإعداد. وهذه الحقيقة يعرفها كلّ من كان قريباً منه.

دخل هذا الكتاب الواقع العملي ليكن أُعجوبةً في العمق والشمول والمنهجة العلميّة الدقيقة.

وفي اعتقادي أنّ الأعجب من عملية كتابة هذا الكتاب أن يستطيع ﷺ تجاوز مستواه العلمي الذي أَلِفَه ليتمكّن من كتابة مادة الأُصول على مستويات مختلفة تبدأ بالطالب المبتدئ في هذا العلم ويتدرج به حتّى آخر مرحلة وهي مرحلة الإعداد لبحث الخارج.

٢ ـ وهذه الحقيقة تجلّت أيضاً في كتابته للفتاوى الواضحة، التي هي رسالته العمليّة الحاوية على فتاواه في بعض المسائل الشرعيّة. فبعد أن تكرّر عليه الطلب بطبع رسالة عمليّة، وحصلت له قناعة بذلك فكّر في أُسلوب جديد لكتابة رسالته العمليّة واتفق أن كان المرحوم الشيخ محمّد جواد مغنية ﷺ ضيفاً عند السيد الشهيد في تلك الفترة. والشيخ مغنية كاتب إسلامي معروف بقدرته على كتابة المطالب المعقّدة بأُسلوب وعبارة مفهومة للجميع، وكان يُعرف بكاتب الشباب، وكتبه متداولة بينهم ومحبوبة عندهم لهذا الامتياز. فاقترح البعض أن تناط مهمّة كتابة رسالة السيد الشهيد إليه.

وباشر المرحوم الشيخ محمّد جواد مغنية بتكليف من السيد الشهيد كتابة نماذج تجريبيّة للمسائل الشرعيّة و الفتاوى بما كان يعتقد أنّها الصياغة المثلى التي تحقّق الغرض المطلوب، وبعد مناقشة السيد الشهيد لها تبيّن للشيخ مغنية خلاف ذلك.

وكرّر الشيخ محاولاته وكان في كلّ مرّة يواجه مشكلات، إمّا لأنّ الصياغة التعبيريّة قاصرة عن إفادة الحكم الشرعي المقصود، وإمّا لأنّ الصياغات التعبيريّة لا تخلو من تعقيد ولا تحقّق التبسيط المطلوب.

وبعد فشل تلك المحاولات قرّر السيد الشهيد (رضوان الله عليه) تبنّي المهمة بنفسه. وهي محاولة في غاية الصعوبة لمن يعرف طبيعة المادة الفقهيّة التي لا تقبل التساهل والمسامحة مادة ولفظاً، خاصّة أنّه أراد لرسالته العمليّة أن تكون نموذجية ومثالية في التعبير والمنهجية والتبويب، وخالية من كل غموض وتعقيد قد ينشأ من اصطلاحات الفقهاء وتعبيراتهم. ويتاح لكل أحد فهمها واستيعابها. وبعبارة اخرىٰ رسالة عمليّة تكتب لكل طبقات الأمة على اختلاف مستوياتها، لاللعلماء كما هو شأن معظم الرسائل العملية الاخرىٰ.

باشر السيد الشهيد (رضوان الله عليه) كتابة (الفتاوىٰ الواضحة) وبدأ عمله فاختار عدة مواضيع فقهية كتبها بصياغات مختلفة، ومستويات متعددة وأمرني بعرضها على نخبة مختارة تمثل مختلف الشرائح الاجتماعية، وخاصة طلاب المدارس، وأن أطلب منهم التأشير على العبارات الغامضة، أو التي لاتفهم بسهولة.

ونفّذنا هذه التجربة وكررناها عدّة مرّات، حتّىٰ استطاع أن يتوصّل إلى الأُسلوب الأفضل والتعبير الأسهل مع الاحتفاظ بمتانة المادّة الفقهيّة.

ومسك اليراع المبارك القلم فانطلق يكتب، فكانت ولادة (الفتاوىٰ الواضحة) الرسالة العملية المثالية التي لا زالت يتيمة زمانها.

وممّا لاشكَ فيه أنّ السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) أهتمّ بـ(الفتاوىٰ الواضحة) اهتماماً كبيراً لا لأنّها رسالته العلميّة التي مثلت خلاصة جهود فقهيّه علميّة معمّقة، بل لما يفترض أن تحققه هذه الرسالة من خدمات للإسلام على أساس الخصائص التي تمتّعت بها وتميّزت بها عن باقي الكتب الفقهيّة الأُخرىٰ.

وعلى ضوء مابأيدينا من وثائق بخطّ السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) يمكن أن نتعرّف على بعض خصائص الفتاوىٰ الواضحة وعن سبب اهتمامه بها.

ففي رسالة له يصف الفتاوىٰ بانها كُتب بلغة حديثة وواضحة، قال:

«وقد بدأنا بتأليف رسالة مستقلة بلغة حديثة واضحة وتبويب مبسط وتمَّ إنجاز الجزء الاول منها وهو تحت الطبع فعلاً والمامول ان يتم خلال بضعة أشهر ان شاء الله تعالى..» [١]

وكماقلنا سابقاً فان عملية تبسيط المادة الفقهية ليست عملية سهلة لأن طبيعتها تتسم بالجمود والتيبس حتىٰ يظن الظان انها خلقت هكذا، وليس بالامكان تجاوز هذا الواقع بسهولة والارتقاء الى اساليب العصر الحديثة في الكتابة والتبسيط.

وفي رسالته اخرىٰ يرىٰ انّ الرسالة العملية لاتعنىٰ مجموعة فتاوىٰ ومسائل شرعيّة تعبّر عن رأي هذا الفقيه أو ذاك بل هي الواجهة النظريّة للمرجعيّة أمام الأُمّة فيجب أن تكون هذه الواجهة جذّابة بالقدر الذي يحقّق كسباً حقيقياً للاسلام.

جاء في هذه الرسالة مايلي:

«وبعد فقد تسلمت رسالتكم الكريمة الاخيرة التي تخبرون فيها عن وصول الفتاوىٰ الواضحة إليكم وقد أكّد سروركم بالفتاوىٰ وايمانكم بوضوحها وجوانب التجديد والابداع فيها شعوري بأهمية هذا العمل في موازين التجديد المرجعي لأنّ الرسالة العمليّة هي الواجهة النظريّة للمرجعيّة أمام الأُمّة وقد بلغ الإقبال والتهافت على الفتاوىٰ الواضحة حداً لم يسبق له مثيل حتىٰ ان أكثر من أربعة آلاف نسخة اشتريت وسدّدت أثمانها وهي لاتزال في المطبعة لم تصحف بعد وصاحب المطبعة يقول اني منذ ثلاثين سنة حتىٰ الآن أُمارس هذه المهنة فلم يتّفق أن شاهدت شيئاً من هذا القبيل وكذلك أصحاب المكتبات فإنّهم مبهورون...»

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٤١).

فهل كان ذلك يعني كسباً شخصياً للمؤلف أم انه يجري في نطاق الهدف الأكبر الذي نذر نفسه له؟ ويجيب (رضوان الله عليه) بقوله:

«وهذا يوجب الشعور بالسعادة بقدر ما يكشف عن تمسّك الأُمّة بدينها وتلهّفها عليه حين يعرض بلغة العصر ومنهجته ومن قبل مرجع تثق به فنسال الله تعالى القبول والتوفيق لخدمته وإعلاء كلمته..»[١]

وفي رسالة أُخرىٰ أشار الى بعض الآمال التي كان يتوخّاها من «الفتاوىٰ الواضحة» فذكر أنّ عدداً من إخواننا السنّة رغبوا بتقليده على أساس ماوجدوا في كتاب الفتاوىٰ الواضحة من تجديد وحداثة ولغة عصريّة حديثة. ومن المؤكد أنّ الأمر يتّسم باهميّة خاصّة وذلك لأنّ من أهمّ أسباب اختلاف المسلمين هو جمود أكثرهم على تقليد فقهاء لمذاهب إسلاميّة قدّموا حصيلة فقهيّة اجتهاديّة كانت تنسجم مع متطلّبات ذلك العصر، وأغلقوا باب الاجتهاد الذي هو بطبيعته يكفل نوعاً من الحيويّة الكبيرة للفقه تنسجم مع واقع الحياة ومتطلّباتها المتجدّدة دائماً ويقلص من حجم الفوارق والاختلافات بين المسلمين، يقول رضوان الله عليه:

«...واما أصلها العربي فهو الآن يطبع طبعة ثانية وقد تحقّقت بدايات بعض الآمال التي أسعىٰ إلى تحقيقها فإنّي كنت أُفكّر أنّ المرجعيّة النائبة عن الإمام الصادق عليه السلام إذا استطاعت أن تقدّم أحكام الشريعة في إطار فقه أهل البيت إلى العالم بلغة العصر ومنهجة العصر وبروح مخلصة فسوف تستطيع أن تقنع عدداً كثيراً من أبناء السنة بالتقليد للمجتهد الإمامي باعتباره اجتهاداً حيّاً واضحاً على مستوىٰ العصر وبذلك يعود نائب الإمام الصادق مرجعاً للمسلمين عموماً كما كان الإمام كذلك ويكون هذا التقليد مرحلة للانتقال إلى التشيع الكامل. وهذا ما تحقّقت بعض بوادره لأن بعض المدرّسين المثقّفين من السنة في بغداد راجعوني طالبين تحويل تقليدهم من أبي حنيفة إلى الفتاوىٰ الواضحة. وعلى

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٥١).

هذا الأساس فقد قرّرنا طبع الفتاوىٰ الواضحة في القاهرة إن شاء الله تعالى ليقدّم صورة واضحة للفقه الإمامي المليء تقوى وورعاً وإيماناً بين يدي المتعلّمين من أبناء مصر..»[١]

وأشار في رسالة أُخرىٰ إلى تحقّق رغبته بطباعة الفتاوىٰ في مصر لاجل ان تُنشر في مختلف البلدان الإسلامية وتقديم أحد علماء مصر لها بمقدمة قيّمة:

«وقد اطلعنا أخيراً على أن دار الكتاب المصري اللبناني قد طبع الفتاوى الواضحة من أجل أن ينشرها على نطاق واسع في مصر والجزائر وتونس لتعريف الفقه الإمامي للمسلمين في تلك البلاد، وقد أرسل إلينا نسخة من الكتاب وهي لطيفة وقد أخذ مقدّمة من عالم من علماء السنة المصريين، وتحدث هذا العالم في المقدّمة عن الفقه الإمامي وفضائله حديثاً منصفاً وفضله على غيره والحمد لله ربّ العالمين.»[٢]

هذا وقد نالت الفتاوىٰ الواضحة اهتماماً كبيراً من قبل الاوساط المثقفة والواعية في العراق ومصر ومختلف الدول الاسلاميّة وهذا ماعبّرت عنه الرسائل الكثيرة التي وردت للسيد الشهيد (رضوان الله عليه) من مختلف الدول وكان إقبال أبناء الأُمّة الإسلاميّة في العراق متميّزاً فقد: «نفذت الطبعة الاولى تقريباً في أقل من شهر وهذه سرعة مثاليّة لانظير لها في المجالات المشابهة السابقة وهذا يدل على مدىٰ عمق تمسّك الأُمّة بعقيدتها ورسوخ صلتها بمرجعيتها القادرة على التفاهم والتخاطب معها»[٣]

وكم سيكون رائعاً لو أُتيح للسيد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) إكمال كتابة الأجزاء الأُخري من الفتاوىٰ الواضحة التي كانت ستسد فراغاً كبيراً لازلنا نعاني

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٦).

٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٧).

٣ ـ راجع الوثيقة رقم(٨)

منه في مجال الكتابة المنهجيّة التجديدية للفقه الإسلامي، يقول (رضوان الله عليه) في رسالة من رسائله لسماحة حجة الاسلام والمسلمين السيد محمد الغروي (حفظه الله) :

«بقية الفتاوىٰ الواضحة لم تؤلف حتىٰ الآن وأرجو أن تدعو لابيك ليتمكّن من إنجاز ذلك فاني أحسّ بأن صحّتي البدنيّة تتهدّم بالتدريج ولا أدري كيف سأكون قادراً على أشياء من هذا القبيل في المستقبل...»[1]

ولكنّ الأسف الشديد لا لأنّ صحته لم تساعده على كتابة باقي الأجزاء بل لشهادته الدامية المروعة على يد حكّام البعث في العراق.

٣ ـ أرسل أحد رؤساء الدول العربية مبعوثاً خاصاً للسيد الشهيد ﷺ وكان المبعوث مصريّاً يحمل شهادة الدكتوراه، فأبلغ السيد الشهيد أنّ الرئيس (...) يطلب مساعدتكم لتقنين الأنظمة والقوانين في بلاده بما يوافق الشريعة الإسلاميّة، وقدّم للسيد الشهيد دعوة رسمية تتضمن ذلك .

وجرى حديث طويل عن هذا الموضوع كان من جملته ما يلي:

قال المبعوث: «سيدي الصدر لاندري كيف نستطيع أن نطبّق الشريعة الإسلاميّة في هذا العصر الذي يعتبر معظم العقوبات الشرعيّة مخالفة لحقوق الإنسان، فمثلاً الجلد والرجم والقطع وغير ذلك يعتبره العالَم عملاً بشعاً ينافي حقوق الإنسان، وفي نفس الوقت لايمكننا رفع اليد عن هذه الإحكام لأنّها أحكام ربّانيّة، فهل هناك حلول لمعالجة هذه المشكلة المعقّدة؟»

فأجابه السيد الشهيد:

«إنّ الإسلام ـ في بعض الموارد ـ يتشدّد في النظرية ويتسامح في التطبيق، فقد ورد مثلاً (إدرأوا الحدود بالشبهات) أي أنّ الإسلام يتشدّد في وسائل

١ ـ راجع الوثيقة رقم ٩١.

إثبات الجريمة التي يترتّب عليها الحدّ، فمثلاً يصعب إثبات الزنا علـى ضـوء الشروط المقرّرة لكيفيّة الشهادة عليه، وهكذا القول بالنسبة لباقي الأُمور التي توجب الحدّ».

وإنّي وإن كنت لا أتذكر تفاصيل هذه الجلسة وأمثالها، لأنّنا نحن الذين كنّا نعيش في كنف السّيد الشهيد لم نكن ندوّن هذه الوقائع ونؤرّخها، وهذا ممّا يؤسف له، إلّا أنّي أذكر أنّ هذا المبعوث كان ينبهر بالأجوبة التي كان يتلقّاها من السيد الشهيد.

والشيء المثير في هذه القضيّة أنّ لهذا الرئيس روابطاً قويّة بالأزهر في مصر، وهو على المقاييس المذهبيّة يُعدُّ سنّي المذهب وكانت طبيعة الحال هذه تقتضي أن يستعين بالأزهر لا بالنجف، فما هو مبرّر هذه المبادرة؟ ولماذا جاء يستعين بالسيد الشهيد دون غيره؟

لقد كفانا هذا المبعوث الجواب، فقد قال للسيد الشهيد: «لقد بحثنا هذا الأمر وبذلنا جهوداً مكثّفة فحصلت للسيد الرئيس قناعة كاملة بأنّ المفكر الإسلامي الوحيد القادر على تحمّل أعباء هذه المسؤولية الخطيرة هو سماحتكم...»

٤ ــ وحادثة أُخرى مشابهة لتلك هي أنّ رئيساً لدولة عربية مجاورة للعراق بعث برسالة شفوية، عن طريق الإمام موسى الصدر طلب فيها من السيد الشهيد أن يسعى عن طريق إرسال مبلّغين من النجف إلى دولته لتغيير البُنية العقائديّة لشعب تلك الدولة وكان منبهراً بكتب السيد الشهيد وأفكاره وطريقة عـرضه للـفكر الإسلامي بما ينسجم مع متطلبات العصر. رغم كون ذلك الرئيس يؤمن بالأفكار التي فنّدها السيّد الشهيد في كتابيه فلسفتنا و اقتصادنا.

ولا أهدف من ذكر هذه الحوادث إبراز عظمة شخصيّة السيّد الشهيد من خلال انبهار رؤساء دول وحكومات أو شخصيّات كبيرة، فليس هذا المقياس

الذي نؤمن به في إطار تقييمنا لشهيدنا الصدر، وإنّما استهدف من ذلك الإشارة إلى المدى الذي امتدّ إليه كمفكر إسلامي يستطيع تلبية حاجة الاُمّة الإسلاميّة بمختلف مذاهبها واتّجاهاتها، بل وتجاوز العالم الإسلامي إلى اوربا والغرب ،كما سنعرف ذلك من خلال بعض الأحداث التي سنذكرها.

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الامتداد لم يكن نتيجة جهود إعلاميّة، أو نشاطات دعائيّة، فالكلّ يعرف أنّ شهيدنا الصدر أرفع من ذلك، وإنّما بسبب العمق والعبقريّة التي عُرف بها من خلال كتاباته وتأليفاته التي تبهر العقول في عمقها وأصالتها ووضوحها.

وفي عام ١٣٩٨هـ=١٩٧٨م حينما كنت برفقة السيد الشهيد في مكة المكرمة لأداء العمرة اتفق أن كنّا بقرب مكتبة تقرب من المسجد الحرام وقف السيد الشهيد يتصفّح بعض كتبها فوجد كتاب (اقتصادنا) في مقدّمة الكتب المعروضة للبيع فسأل صاحب المكتبة: بكم تبيع هذا الكتاب؟ فقال: بكذا ريال، ثمّ قال للسيد الشهيد بلهجته الحجازية: «ياحاج اشتري هذا الكتاب، إنّه كتاب زين، هذا كتاب الصدر، هذا ضد الشيوعية». ومن المؤكّد أنّ العمر والفرصة لو كانا أُتيحا لسيدنا الشهيد لأتحف العالم الإسلامي بروائع وآيات زاهرة من الفكر الإسلامي الأصيل، والأحكام الإسلاميّة المقدّسة مقارنة بالأفكار والقوانين الوضعيّة ولأثبت من خلال البحث العلمي وبالدليل القاطع أنّ الرسالة الإسلاميّة هي خيار الإنسانيّة الوحيد، وأنّ سعادتها لا تتحقّق إلّا بها. ولكن ما نقول لنظام همجي عميل جعل العالم الإسلامي يتكبّد هذه الخسارة الفادحة التي لاتعوّض.

يقول الدكتور زكي نجيب محمود المفكّر المصري الشهير على ما نقلته صحيفة (كيهان العربي) في عددها (٦٩١) نقلا عن صحيفة (الأهرام) المصرية:

«إنّ إعدام مفكّر ساهم في تنمية العقل العربي الإسلامي تثير لدينا مشاعر

التقزّز والاشمئزاز. فالدول المتقدّمة تكرّم أفذاذها، أمّا العراق فيعدم مفكريه».

٥ ـ وفيما يتعلّق بكتب السيد الشهيد ومؤلّفاته، والنتائج التي حقّقتها على الصعيد العالمي أذكر الحادثة الطريفة التالية، وهي أيضاً تلقي الضوء على هذا الجانب من شخصيّة السيد الشهيد (رضوان الله عليه).

في عصر صائف من أيام النجف الحارة، طرق الباب رجل كبير السن وبعد أن فتحه خادم السيد الحاج عباس ـ الذي كان يقوم ببعض الخدمات كتحضير الشاي للضيوف، أو توفير بعض احتياجات المنزل ـ سأل الرجل الكبير: هل هذا منزل الشيخ محمّد باقر الصدر؟ فقال له الحاج عباس: نعم.

فقال: هل يمكن أن ألتقي بسماحة الشيخ الصدر؟

فقال له: نعم، تفضّل أجلس سوف أُخبر السيد بذلك وأستأذنه لكم.

وكان السيد الشهيد لاينام الظهيرة رغم الجو الحار الذي ينهك القوى فقد كان من عادته أن يصلّي الظهر والعصر ثمّ يتغدّى وبعد ذلك يذهب الى مكتبته يطالع أو يكتب حتّى المساء تقريباً[١]

وكان هذا حاله دائماً وفي كل يوم إلّا في حالات استثنائيّة قليلة، وكان الحاج عباس يعرف ذلك، فصعد إلى غرفة المكتبة، وأخبر السيّد الشهيد بأنّ ضيفاً من مصر يطلب اللقاء بكم، فاستجاب السيّد وأذن له بزيارته، وكانت هذه الزيارة هي الأُولى له، ولم يكن رأى السيد الشهيد قبل ذلك.

لم يكن أحد يعرف أنّ الزائر هو الدكتور محمّد شوقي الفنجري[٢] رغم أنّه

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١٠) التي جاء فيها بخطّه الشريف: «... والخلاصة أنّي منذ أشرب كوب الشاي صباحاً أبدأ بالعمل إلى الساعة العاشرة ليلاً».

٢ ـ الدكتور الفنجري يحمل شهادة الدكتوراه في الاقتصاد وكان مستشاراً اقتصادياً للرئيس المصري أنور السادات وأستاذاً في عدد من الجامعات المصريّة والعالميّة.

كان قد بعث إلى السيد الشهيد رسائل عديدة عبّر فيها عن إعجابه الشديد بمؤلّفات السيد الشهيد (اقتصادنا، وفلسفتنا)، وكانت هذه الرسائل قمّة في الثناء والإطراء.

صعد الدكتور الفنجري إلى الطابق الأعلى حيث تكون مكتبة السيد الشهيد، والسيد جالس في الزاوية التي اعتاد الجلوس فيها، وهنا حدثت المفاجأة، وكشف الدكتور الفنجري عمّا كان يخالج نفسه من شكّ في حقيقة ما يرى، فهل الصدر الذي عرفه من خلال اقتصادنا وفلسفتنا هو هذا الرجل المتواضع البسيط الذي يعيش في مقبرة عائليّة من المقابر المتعارفة في النجف؟ هل الصدر هو هـذا الجالس هنا بتواضع، في مكتبة متواضعة جداً؟ كانت مشاعر من الشكّ والارتياب تخالج الدكتور الفنجري في حقيقة ما يرى.

فوقف عند باب الغرفة والدهشة ملأت كيانه كلّه، وأذهلته حتّى عن التحية، فخاطب السيد الشهيد:

بالله عليك أنت الشيخ محمّد باقر الصدر؟

فأجابه السيد الشهيد والابتسامة تعلو وجهه: نعم، تفضّل، أهلاً وسهلاً.

الفنجري: مش معقول!!

وكرّر سؤاله مرّة ثانية وثالثة، ويتكرّر الجواب نفسه. وأراد أن يقطع الشكّ باليقين فقال: أنت الشيخ الصدر مؤلّف كتاب اقتصادنا وفلسفتنا؟

فقال السيد الشهيد: نعم، تفضّل.

عندها دخل الدكتور الفنجري إلى المكتبة محيّياً السيد الشهيد بأجـمل التحيات، ويردّ عليه شهيدنا بأرقّ منها، وقد هدأت نفسه، واطمأن قلبه وأيقن أنّ هذا الذي أمامه هو ذلك الصدر الذي يريد اللقاء به. وهنا قال للسيّد الشهيد:

جئت مدعوّاً لحضور مؤتمر في بغداد يعقد من قبل حكومة العراق، وكنت في الطائرة أُفكّر في أن استغلّ هذا الفرصة الوحيدة التي يمكن أن ألتقي فيها

بفضيلتكم، وكنت أقول لنفسي كم يجب عليّ أن أنتظر حتّى أحصل على موعد خاصّ للقائكم، بل هل يمكن أن يتحقّق ذلك؟ أمّا أن آتي إلى النجف وألتقي بكم بهذه البساطة وخلال عشرة دقائق، فهذا مالم يكن يخطر ببالي.

هنا حدّثه السيد الشهيد؟ عن حياة الطلبة والعلماء في النجف الأشرف، وما تتّسم به من بساطة وتواضع، وزهد في المظاهر والزخارف، وقال أنا أحد هؤلاء الطلبة، وهذه هي حياتنا.

بعد ذلك حاول الدكتور الفنجري أن يتعرّف على الوضع العلمي والدراسي لشهيدنا الصدر، وفي أيّ جامعة من جامعات العالم تلقّى دراساته وعلومه، وكيف وصل إلى هذا المستوى العلمي الرفيع فقال:

سماحة الشيخ، أنّ كتبكم تعتبر آية في عمقها ودقّتها العلميّة، وفي محتواها الفكري، فقد نالت إعجابي وإعجاب عدد كبير من أصدقائي الأساتذة، ومنهم المفكّر الفرنسي روجيه غارودي الذي يرغب هو أيضاً بزيارتكم، فأين تلقيتم دراساتكم؟ وفي أيّ جامعة من جامعات العالم؟

فقال السيد الشهيد: لم أدرس في أيّ جامعة من جامعات العالم التي تقصدها، لا في العراق ولا في غيره، بل لم أخرج من العراق في حياتي إلّا مرتين، مرّة إلى حجّ بيت الله الحرام، والأُخرى إلى لبنان لزيارة بعض أرحامنا هناك.

الفنجري: إذاً أين درستم؟

الشهيد الصدر: في المساجد، الطلبة والعلماء هنا في النجف يدرسون في المساجد.

قال الفنجري: وقد أُصيب بالذهول والحيرة:

والله، إنّ مساجد النجف أفضل من جامعات اوروبا كلّها، وأظنّه قال: أفضل ألف مرّة من جامعات اوروبا.

ثمّ اقترح الدكتور الفنجري على السيد الشهيد (رضوان الله عليه) أن يسعى لترجمة كتاب الأُسس المنطقيّة للاستقراء، وقال: لو ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزيّة ترجمة دقيقة فسوف يُحدث (ثورة) في اوروبا. واقترح أن يقوم بالترجمة الدكتور زكي نجيب محمود.

وطلب أيضاً ترجمة كتب السيد الشهيد الأُخرى، وكان يعتقد أنّها لو ترجمت فسوف تأخذ مكانتها المرموقة في العالم الأُوروبي الذي لايعرف شيئاً عن الفكر الإسلامي بالمستوى الموجود في كتب السيد الشهيد.

وعلى كلّ حال فقد امتدّت الجلسة والدكتور الفنجري يرغب بالمزيد، وهو لايكاد يصدّق أنّ الشهيد الصدر ـ الفكر والعبقريّة والنبوغ ـ هو هذا الرجل المتواضع الزاهد.

٦ ـ وتعتبر محاولة ترجمة «الأُسس المنطقيّة للاستقراء» من النقاط الجديرة بالذكر؛ لأنّها تشير إلى العمق العلمي لشهيدنا الصدر (رضوان الله عليه). فلك أن تتصوّر القاهرة بما تمتلك من أرصدة علميّة وعلماء عُرِفوا بالعمق والدقّة تعجز عن ترجمة كتاب لأحد علماء النجف يعيش في زقاق من أزقتها بكلّ بساطة وتواضع وترابيّة.

وهو أيضاً لم يتلقَّ دراساته في جامعات العالم الحديثة التي تهتمّ بهذا النوع من الدراسات والأبحاث المعمّقة والدقيقة، بل كان معتمداً على إمكاناته الخاصّة، وجهده الشخصي، وما يتمتّع به من ذكاء خارق ونبوغ متميّز مكّنه من تجاوز كلّ المستلزمات الضروريّة لمثل هذه الدراسات والأبحاث التخصّصيّة

وقصّة هذه المحاولة بدأت حينما أقنع الدكتور محمّد شوقي الفنجري شهيدنا الصدر ﵀ بضرورة ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزيّة، فتمّ الاتصال بالدكتور زكي نجيب محمود، وعرضت عليه الفكرة.

طلب الدكتور زكي نجيب فرصة لمطالعة الكتاب ليقرّر بعد ذلك طبيعة الردّ. ولكنّه بعد أن قرأ الكتاب اعتذر عن تحمّل أعباء هذه المسؤولية بسبب ظروفه الصحيّة وكبر سنه. والكتاب يحتاج إلى جهد كبير لاتسمح به كلّ تلك الأُمور. إلّا أنّه وعد السيد الشهيد بتكليف أحد أفضل وأذكى تلاميذه وهو أيضاً يحمل شهادة الدكتوراه وكانت رسالته الجامعيّة التي منح على أساسها شهادة الدكتوراه في الاستقراء، وتعهد هو بالإشراف على الترجمة فحسب [1]

وتمّ الاتفاق مع الأُستاذ الذي رشّحه الدكتور زكي نجيب ـ وللأسف لاأتذكّر اسمه ـ واتفقا على مبلغ من المال إزاء الترجمة. وعلى الفترة الزمنيّة التي كان من المفروض أن ينجز فيها ترجمة الكتاب

وكان السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) في هذه المرحلة يفكّر بالطريقة التي يمكن أن يتأكّد من خلالها باستيفاء الترجمة لمادّة كتاب الأُسس المنطقيّة للاستقراء، وهل تعبّر عن محتواه تعبيراً دقيقاً. وذلك لأنّه يعلم أنّ مطالب كتاب الأُسس المنطقيّة بدرجة من العمق والتعقيد بحيث لا يتسنّى فهمها إلّا للأفذاذ من العلماء. فهل يتمكّن هذا الأُستاذ من تحقيق ذلك، وينجز هذه المهمّة الكبيرة.

إلّا أنّ الحيرة لم تدم طويلاً فقد وصلت رسالة من هذا الأُستاذ اعتذر فيها عن ترجمة بقية الكتاب بعد أن ترجم ما يقرب من مائة صفحة. وذكر في رسالته أنّه بحاجة ـ قبل أن يمضي في ترجمة الكتاب ـ إلى دراسته عند السيد الشهيد لفهم واستيعاب مطالبه العلميّة كي يتمكّن من ترجمة الكتاب فيما بعد.

وهكذا عجزت القاهرة بما تزخر به من علم ومعرفة عن ترجمة كتاب الأُسس المنطقيّة للاستقراء.

١ ـ راجع وثيقة رقم (١١) التي جاء فيها بخطّه الشريف «تمّ اختيار شخص جيّد لترجمة كتاب الأُسس المنطقيّة للاستقراء...».

وقد حرص السيد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) واهتمّ بترجمة هذا الكتاب اهتماماً بالغاً لقناعته بان اطلاع العالم عليه سيحقّق تفوّقاً للفكر الإسلامي الأصيل، لأنّه عبّر عن طفرة علميّة هائلة في هذا المجال سوف تنبهر به الجامعات والمعاهد العلميّة في اوروبا والعالم كله، وقد شاركه في هذا الرأي الدكتور المصري الكبير زكي نجيب محمود ففي رسالة للسيد الشهيد بهذا الشأن جاء فيها:

«بالنسبة إلى الدكتور إمام زاده لاباس بأن يشترك هو وشخص آخر أو شخصان آخران في الترجمة غير أنّ المهم عندي أن يكون السيّد أبوالقاسم مشتركاً في الترجمة اشتراكاً فعليّاً لأنّ تضلّعه في الرياضيّات وذكاءه الجيّد وقرائته لبحوث كتاب الأُسس المنطقيّة عليَّ يجعله أكثر قدرة على استيعاب المضمون الذي يبلغ في بعض فصول الكتاب غاية الدقّة، وبقدر ما تكون الترجمة دقيقة في نقل الأفكار تكون مؤثّرة على النحو الذي تنبأ الدكتور زكي نجيب محمود حين قال: إنّ فلاسفة الإنجليز سيقرأون فكراً جديداً إذا أُتيح لهم أن يقرأوا ترجمة الأُسس المنطقيّة للاستقراء»[١]

وهذا الواقع جعل السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) يستعدّ لتحمّل جهدٍ مادي إضافي في سبيل إنجاز ترجمة متقنة لكتاب الأُسس المنطقيّة للاستقراء وذلك لما يترتّب عليه من آثار دينيّة كبيرة، فقد كتب (رضوان الله عليه) رسالة إلى سماحة السيد كاظم الحائري بشأن ترجمة الكتاب جاء فيها:

«بالنسبة إلى كلفة ترجمة كتاب الأُسس المنطقيّة للاستقراء على يد جناب الدكتور السيد ابوالقاسم امامزاده فقد كنا كتبنا إليكم قبل أكثر من شهر (أبو حوراء لأبي أحمد) رسالة نطلب رأيكم ورأي السيد علم الهدى ورأي الشيخ الإسلامي في صحة طلب كمثل هذه الكلفة، وبعد ذلك كتبت رسالة إلى السيد علم الهدىٰ طلبت رأيه في الموضوع، وحتىٰ الآن لم أحصل لا على رأيكم ولا

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٦١) التي مضت الإشارة إليها.

على رأيه، نعم كتب الشيخ الإسلامي يؤكد أنّ الإقدام على دفع مثل هذه الكلفة معقول وصحيح، وأنا أيضاً أظنّ أنّ الكلفة ليست مبالغاً فيهاكثيراً بحسب أسعار اليوم، ولكنّ التردّد نشأ من كونهاكبيرة علينا خصوصاً أنّ وضعنا في الشهرين الأخيرين أصبح وضع من يقترض ليعيش ولكنّ إيماني بالأهميّة الدينيّة للترجمة المذكورة يجعلني أرضخ للواقع...»[١]

وكان ﷺ يعتز كثيراً بكتاب الأُسس المنطقيّة للاستقراء من بين كتبه الأُخرىٰ ويراه معبّراً عن مستواه العلمي والفكري، وحصيلة لجهود علميّة مكثّفة، كان يعبّر عنه بحصيلة العمر.

وللأسف الشديد لم يأخذ هذا الكتاب موقعه المطلوب والمرجو وبقي محدوداً في تداوله، وكأن الكنوز قَدَرها ان تبقى قابعة في بطن الارض حتى يقيّض الله عز وجل لها من يكتشفها ليكشف عن جوانب الروعة والابداع فيها. إنّ كلّ ما نعرفه عن هذا الكتاب أنّه يشير إلى عبقريّة الشهيد الصدر ﷺ ولكن ماذا جاء في الكتاب، وماهو محتواه، وماالذي أراد تحقيقه به؟ إنّ كلّ ذلك بقي من دون جواب إلّا عند عدد محدود من طلابه.

وأعتقد أنّ المسئوليّة تقع عليهم للنهوض لأداء هذا الواجب الكبير وأملنا أن يتحقّق ذلك قريباً في خطوة وفاء للسّيد الشهيد الصدر ﷺ ومدرسته العلمية، ويعتمدوا خطة ليكون هذا الكتاب وأمثاله من جملة المناهج العلميّة الدراسيّة في الحوزات العلميّة.

ومن الجدير أن نشير إلى كتاب (مجتمعنا) الذي لم يَرَ النور، إذ لم تسمح الظروف للسيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) بكتابته، وبقيت المكتبة الإسلاميّة تعاني من فراغ كبير في هذا المجال. فهل هي إرادة الله عزّ وجل التي حالت بينه وبين

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١٢).

تأليف كتاب (مجتمعنا) ليكون ذلك تحدياً عمليّا للعلماء والمفكّرين والحوزات العلميّة في مجال سدّ هذا الفراغ بنفس مستوىٰ فلسفتنا واقتصادنا؟ هل هي إرادة الله عزّ وجل أن يجعل هذا الفراغ تحدّياً يشير إلى تلك العبقريّة النادرة؟

٧ ـ القضيّة التي سأذكرها هنا اقتضت طبيعة الموضوع ذكرها، لأستدل من خلالها على حقيقة مهمّة وهي أنّ الوهج العلمي للسيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) امتدّ بتأثيره حتّى على ألدَّ أعدائه وهم البعثيون، فوقعوا تحت تأثيره وإن كان الحقد والحسد يحول بينهم وبين الاعتراف بذلك على الملأ العام.

وفي هذا المجال أذكر بعض الحقائق التي تشير إلى ذلك:

الأُولى: كان أحمد حسن البكر رئيس الجمهوريّة العراقيّة آنذاك يرغب أن يضيف إلى رصيده الكبير من الألقاب والصفات، صفة العالِم والمفكّر، وكان بإمكان البكر أن يمنح نفسه أعلى المناصب والرتب الحكوميّة والعسكريّة؛ وذلك لأنّ القانون في العراق ـ كما يعلم الجميع ـ بيد الرئيس يصرّفه كيف يشاء، فما أيسر أن يطبّق مادّة قانونيّة يمنح نفسه من خلالها أكبر الرتب، أو المناصب الحكوميّة، أو العسكريّة، إنّ ذلك لايحتاج إلى أدلّة وبراهين؛ لأنّها أُمور اعتباريّة جعليّة لا قيمة لها.

أمّا أن يدّعي أنّه مفكّر كبير، وعالِم ضليع، فهذا مايحتاج إلى برهان عملي، ودليل بيّن، وهنا لاتستطيع (المراسيم الجمهوريّة) أو التلاعب بالقانون منح البكر ذلك.

وهنا حاول البكر ـ وهي محاولة تدلّ على غباء مفرط ـ أن يستفيد من طاقات السيّد الشهيد العلميّة فبعث إليه السيّد عدنان البكّاء أولاً، ثم بعث السيّد علي بدر الدين ليستكشف إمكانيّة ما إذا كان السيّد الشهيد مستعدّاً لتأليف كتاب بمستوى كتبه العلميّة الرائعة ويطبع باسم أحمد حسن البكر.

بالطبع رفض السيّد الشهيد ذلك، وباءت هذه المحاولات بالفشل فحاول مرّة ثالثة ولكن هذه المرّة كان مبعوثه مدير الأمن العامّ فاضل البرّاك. ويعتبر إرسال فاضل البرّاك تلويحاً باستعمال القوّة والعنف وإن لم يصرّح بذلك؛ لأنّ البرّاك رئيس أكبر مؤسسة إجراميّة في العالم، فماذا سيكون ردّه ـ لو رفض السيّد الشهيد الاستجابة لطلبه ـ غير القوّة والإرهاب.

قال البرّاك: إنّ السيّد الرئيس يرغب بتأليف كتاب، إلّا أنّ انشغاله الدائم بإدارة شؤون البلاد يحول دون ذلك، فاختاركم للقيام بهذه المهمّة على أن تبقى سريّة، والسيّد الرئيس مستعدّ لتقديم أي مبلغ من المال تطلبونه، وأضاف ـ على سبيل الإغراء ـ أنّ هذه الخطوة إن تمّت فسوف تحقّق لكم موقعاً خاصّاً عند القيادة، وتخلق صداقة وثقة تكون فوق الشبهات والاتهامات والشكوك التي تدور حولكم.

إلّا أنّ السيد الشهيد (رضوان الله عليه) لم يستجب لطلبه ورفض كلّ العروض الأُخرى المشابهة التي جاءت بعد هذا العرض .

أمّا السيّد الشهيد بنفسه الكريمة، وروحه السامية، وذوبانه في المبادئ التي آمن بها ونذر نفسه لها، وسخّر كلّ طاقته من أجلها، وفي النهاية قدّم نفسه قرباناً لها فهو كما يروي سماحة السيد الحائري حيث يقول:

«حدثني ﴿﴾ ذات يوم: أنّه حينما كتب كتاب فلسفتنا أراد طبعه باسم جماعة العلماء في النجف الأشرف بعد عرضه عليهم متنازلاً عن حقّه في وضع اسمه الشريف على هذا الكتاب. إلّا أنّ الذي منعه عن ذلك أنّ جماعة العلماء أرادوا إجراء بعض التعديلات في الكتاب، وكانت تلك التعديلات غير صحيحة في رأي أُستاذنا الشهيد، ولم يكن يقبل بإجرائها فيه، فاضطرّ أن يطبعه باسمه»[1]

١ ـ مباحث الأُصول، ج ١، ص ٤٥.

ويتجلّى هذا السمّو الروحي، والترفّع عن طلب المكانة والابتعاد عن الشهرة فيما عُرف عن السيّد الشهيد من خلوّ جميع كتبه من التعابير المتعارفة الدالّة على مكانته العلميّة، وكان يكتفي بكتابة اسمه فقط مجرّداً، ولا يسمح لأحد بإضافة أيّ صفة لاسمه ممّا تعارف لدى الأوساط العلميّة.

وأتذكّر أنّ السيد الشهيد (رضوان الله عليه) حينما أكمل كتابه (الفتاوى الواضحة) وأردنا إرساله إلى المطبعة كتبت على الدفتر الأوّل منها عبارة (تأليف سماحة آية الله العظمى السيد محمّد باقر الصدر) فلمّا رأى ذلك شطب على عبارة (سماحة آية الله العظمى) وقال لي:

«لا حاجة إلى ذلك، قدّمها إلى الطبع بهذا الشكل».

الثانية: في زيارة من زيارات فاضل البرّاك مدير الأمن العامّ للسيّد الشهيد (قدس سره) طلب وبشكل خاصّ ـ وسري ـ أن يشرف سماحته على رسالته العلميّة التي كتبها وأخذ عليها شهادة الدكتوراه من جامعة روسيّة، وكان شديد الرغبة في أن يتحقّق ذلك تمهيداً لطبعها.

وهنا أقول كان الشيء الطبيعي بالنسبة لفاضل البرّاك أن يستعين بميشيل عفلق الذي كان حيّاً يباشر أعماله يومئذٍ في بغداد، وهو ـ حسب المُدّعى ـ مفكّر الحزب، وعبقري التنظير، وقمّة المعرفة. وفاضل البرّاك أقرب إليه من السيّد الشهيد الصدر، فما الذي دفع فاضل البرّاك إلى تجاوز «مفكّر الحزب!» الذي يؤمن بأفكاره ويعتنق مبادئه، إلى «عدوّ الحزب» الشهيد الصدر؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ الوهج العلمي، لشخصية السيد الشهيد، وما يمتلك من خصائص ومقوّمات استثنائيّة في مجال المعرفة العامّة جعلت فاضل البرّاك وغيره يقع تحت تأثير هذا الوهج، ويتجاوز (مفكّر الحزب) إلى (عدو الحزب)، ولقد قال البرّاك يوماً للسيد الشهيد: «إنّنا سوف نقتلك ونبكي عليك» مشيراً بذلك إلى هذه

الحقيقة. وصدق في الجزء الأوّل من كلمته، وكذب في الجزء الثاني منها، فقد قتلوه ولم يبكوا عليه، بل دعاهم حقدهم إلى إخفاء قبره وقبر شقيقته، ألا لعنة الله على الظالمين .

الثالثة: في الفترة التي اضطرّت فيها السلطة إلى إعطاء الحزب الشيوعي العراقي نوعاً من الحريّة على أساس الاتّفاق الجبهوي بين حزب البعث والحزب الشيوعي العراقي، نَشِطَ الحزب الشيوعي في شنّ حملة ثقافيّة قويّة هدّدت كوادر وقواعد حزب البعث العميل.

واستطاعت كوادر الحزب الشيوعي أن تهدّد كيان حزب البعث الحاكم، ووقع الحزب في حرج كبير، بعد أن فشلت أدبيّات الحزب وأفكاره، وعجز قائده ومفكّره ميشيل عفلق من الوقوف بالمستوى المطلوب أمام هجمة الحزب الشيوعي الفكريّة.

لقد كان بإمكان السلطة قمع التحرّك الشيوعي، بل واجتثاث الحزب نفسه عن طريق القوّة، وهو ما حصل فيما بعد، إلّا أنّ الظروف لم تكن مناسبة في تلك الفترة، وكانت الخطة تقتضي الاستمرار بالسماح للحزب الشيوعي في نشاطه الفكري والثقافي، إمّا بسبب ضعف السلطة في ذلك الوقت، أو بسبب ضغط الاتحاد السوفياتي عليها.

ومن المؤكّد أنّ السلطة فتّشت كلّ ما عندها من أرصدة ثقافيّة وعلميّة فلم تجد كتاباً يستطيع الوقوف بوجه الهجمة الشيوعيّة، فلجأت إلى كتاب (فلسفتنا) ،وكان من الكتب الممنوعة في ذلك الوقت[1].

وكتاب (فلسفتنا) بالقدر الذي يفنّد الفكر الشيوعي يفنّد الفكر الاشتراكي

١ ـ راجع وثيقة رقم (١٣) وهي عبارة عن كتاب رسمي من بعض المسؤولين في السلطات العراقيّة يعبّر عن ممنوعيّة مؤلّفات السيّد الشهيد ﷺ وبطلب إتلافها.

الذي يؤمن به حزب البعث الحاكم، فكان من غير المنطقي أن تسمح السلطة بتداول كتاب (فلسفتنا) بشكله الحالي من دون إجراء تعديلات عليه تنسجم مع طبيعة متبنّياتها الفكريّة. فبعث مدير الأمن العام فاضل البرّاك ليبحث مع السيد الشهيد (رضوان الله عليه) فكرة السماح بطبع كتاب فلسفتنا بعد إجراء تعديلات عليه. وكان السيد الشهيد يعلم بالمأزق الذي وقعت السلطة فيه، إلّا أنّه تجاهل ذلك أمام فاضل البرّاك، وأخبره بأنّه لايشعر بضرورة لطبع كتاب (فلسفتنا)، إلّا أنّ فاضل البرّاك أصرّ على طبع كتاب (فلسفتنا)، مبرّزاً ذلك بأنّ الفكر الإلحادي بدأ يتفشّى في العراق، ولابدّ من مواجهته بكلّ الوسائل المتاحة. وقد تحدّث البرّاك عن أهميّة هذا الموضوع، وعن اهتمام (القيادة) به.

وأحسّ السيد الشهيد ﵁ بأنّ السلطة مصمّمة على تنفيذ هذه الفكرة، وسواء أَقِبلَ بذلك أم لا فإنّها ماضية فيعزمها. ولكن هل الأفضل أن يترك السلطة تتصرّف بالكتاب كيف تشاء، أو أن يختار بنفسه الجزء الذي سيُحذف والذي لا يؤثّر كثيراً على ما استهدفه كتاب (فلسفتنا) من حقائق؟

ووجد أنّ الخيار الثاني هو الأفضل، وعلى هذا الأساس جرى الحديث مع البرّاك على المقدار الذي سيحذف من الكتاب، وأنّ الإشراف على طبع الكتاب يجب أن يكون للسيد الشهيد.

ووافق فاضل البرّاك على هذه الشروط، وطبع الكتاب في مطبعة الميناء في بغداد، وقد أمرني ﵁ بالإشراف على طباعته احتياطاً على أن لا يحذف منه إلّا المقدار الذي حدّده.

وما أعنيه من ذكر هذه الحادثة هو أنّ حكّام البعث العميل بكلّ ما يحملونه من غرور وكبرياء، ورغم أنّ السيد الشهيد يعتبر عدّوهم اللدود، مع ذلك فإنّهم رضخوا لحقيقة البعد العلمي العظيم، والعبقريّة الفذّة في شخصيّة السيد الشهيد ﵁

فخضعوا له مرغمين، وأذلّوا أنفسهم مكرهين. ونحن نعلم أنّ هؤلاء الحكّام بما يحملون في أنفسهم من كبرياء وغرور، ومن تأثّر بكرسيّ الحكم وقوّة السلطان يصعب عليهم هذا القدر من الاعتراف بعظمة عدوّ لهم يعيش في ظلّ سلطانهم وهو مجرّد من كلّ قوّة ماديّة يمكن أن تخيفهم.

٨ ـ كان للسيد الشهيد (رضوان الله عليه) مجلس عام يلتقي فيه بالناس والمراجعين قبل ظهر كلّ يوم، وفي يوم من الأيام دخل رجل وقور فسلّم على السيد الشهيد ﵀ فردّ عليه السلام ورحّب به أحسن ترحيب، وبعد دقائق تكلّم الضيف الجديد، فقال للسيد: أُعرّفكم بنفسي، أنا الدكتور عبد الفتاح عبد المقصود. فرحّب به السيد الشهيد ترحيباً آخر واستبرّ به، وأثنى على كتاب له عن الإمام علي ﵇ بما يستحق.

وبدأت بشائر الفرح والسرور تلوح في وجه الأُستاذ عبد الفتاح عبد المقصود، فقد فهم من هذا الكلام أنّ السيد الشهيد قد قرأ كتابه، فسأله عن رأيه بالكتاب:

فقال: كتاب رائع، ومحاولة مباركة، وأثنى عليه كثيراً ثمّ قال: ولنا عليه ملاحظات، وأخذ السيّد الشهيد يذكر له ملاحظاته على كتابه ـ والكتاب مكوّن من عدّة أجزاء ـ والأُستاذ عبد الفتاح عبد المقصود يستمع بانبهار وتعجّب، ويُسلم له بكلّ ملاحظاته على الكتاب ووعده بإجراء التعديلات اللازمة على ضوء هذه الملاحظات في الطبعة الجديدة للكتاب.

ولشدّة انبهار الأُستاذ عبد الفتاح بشهيدنا الصدر، قام إليه وقبّل يده تعبيراً عن تقديره للسيّد الشهيد (رضوان الله عليه).

والغريب أنّ السيّد الشهيد لم يكن يتوقّع زيارة الأُستاذ عبد الفتاح عبد المقصود لكي يتهيّأ لمناقشة ما في كتبه من أفكار، أو نقاط ضعف، أو يسجّل ما

عنده من ملاحظات عليه، وإنّما كانت زيارته مفاجأة بمعنى الكلمة. والأغرب من ذلك أنّ مكتبة السيّد الشهيد تخلو من كتاب الأُستاذ عبد الفتاح عبد المقصود، ولم أره يوماً فيها، وإذا كان قد طالعه فإنّ الفاصلة الزمنيّة بين مطالعته للكتاب ولقائه بمؤلّفه لا تقلّ عن عشر سنوات على أقلّ تقدير.

ولعلّ الأُستاذ عبد الفتاح عبد المقصود قد أدرك من طبيعة مناقشة السيّد الشهيد لكتابه والتي تدلّ على استحضار كبير لمادّة الكتاب، أنّ هذا ليس بإمكان كلّ أحد، بل هو شأن العلماء الأفذاذ، ممّا أثار إعجابه وانبهاره.

٩ ـ ومن الوقائع الخالدة في الذاكرة ماحدث للدكتور عصمت سيف الدولة، مؤسس النظرية الاشتراكيّة المصريّة، وهو محامي مرموق، وشخصية مصريّة كبيرة.

لقد دُعي الدكتور المذكور لحضور مؤتمر للمحامين العرب في بغداد، وكان أحد المحامين العراقيين من عائلة نجفيّة معروفة هم السادة آل الخرسان قد شجّع الدكتور عصمت سيف الدولة على زيارة السيد الشهيد باعتبار أنّه مفكّر معروف، وكان هدفه من ذلك إثبات أنّ الاشتراكيّة بكلّ صيغها وأشكالها تواجه معضلات فكريّة كبيرة، ولاتستطيع أن تصمد أمام النقد، بل ليست هي الأُطروحة الصحيحة القادرة على حلّ مشاكل الإنسان الاقتصاديّة، وأنّ النجف تملك من المفكّرين مالا نظير له في العالم، ولكن ياترى من يستطيع أن يُثبت ذلك بالوضوح الذى لا يدع مجالاً للنقاش، ومن يستطيع أن يجلي هذه الحقيقة كالشمس في رابعة النهار لرجل يعتبر مؤسس نظريّة في الاشتراكيّة؟

لا شكّ أنّه الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) بما يحمل من عبقرية فذّة ونبوغ فريد.

وجاء وفد كبير يضمّ نخبة من المحامين، كان في مقدّمتهم الدكتور عصمت سيف الدولة، وتمّ اللقاء الذي استمر ما يقرب من ساعتين والسيد الشهيد (رضوان الله

عليه؛ يجيب على كلّ سؤال يرد منهم بالدقّة المعروفة عنه، والعمق المعهود فيه. ثمّ عرّج على الاشتراكيّة يقطّع أوصالها، ويُهدّم أركانها حتّى رأى الجميع الهزال والخواء في كلّ حلقاتها ومفاصلها بعد ان جرّدها من كلّ ماكان يسترها من شعارات برّاقة تغري الفقراء والضعفاء فيتأثّرون بوهجها وبريقها.

ثمّ أثبت لهم أنّ الإسلام الشريعة الربّانيّة الخالدة، القادر الوحيد على إنقاذ البشريّة، وتخليصها من مأزق الفقر، لو أنّ البشريّة آمنت به، وتمسّكت بعروته، وكان (رضوان الله عليه) يقدّم الدليل بعد الدليل، والحجّة بعد الحجّة، والكلّ في حالة من الانبهار والإعجاب.

وفي هذا اللقاء لم يتمكّن أحد من مواجهة سيل الأدلّة التي قدّمها الشهيد الصدر لإثبات ما ادّعاه، أو دحض بها الأفكار الاشتراكيّة التي يحملها هؤلاء منهم الدكتور عصمت سيف الدولة.

وانتهى هذا اللقاء، وأخذ الواحد منهم بعد الآخر يودّع السيد الشهيد، وكان آخرهم المحامي العراقي الذي أشرت إليه، فقد قبّل يد السيد الشهيد وخاطبه قائلاً: «لقد بيّضت وجوهنا، بيّض الله وجهك يا سيدي».

كانت هذه الأحداث وأمثالها تثيرني، وكنت أسعد بها، ولكن بمرور الزمن، ولكثرة التكرار أصبحت ظاهرة طبيعيّة ففي كلّ يوم جديد يضاف إلى الرصيد السابق ممّا أُسميه بالكرامات العلميّة لسيدنا الشهيد الصدر (رضوان الله عليه).

ياترى ما هو السرّ وراء تلك العبقرية، وماهي خلفيّة ذلك العمق العلمي والفكري الذي تميّزت به شخصيّة الشهيد الصدر؟

لا يمكن أن نُعزي ذلك إلّا لأمرين:

الأوّل: الإخلاص المنقطع النظير لله ـ تعالى ـ في طلب العلم والمعرفة، وتسخير ذلك لخدمة الدين الحنيف، والشريعة المقدّسة، بنيّة خالصة لاتشوبها مصالح شخصية أو منافع مادّيّة.

لا أقول ذلك اعتباطاً أو مدحاً، فإنّ الرجل الذي أبى أن يتنازل للسلطة، وضحّى بحياته من أجل الرسالة التي آمن بها، والمبادئ التي حملها، مفضّلاً أن يتعرّض لأقصى وأشد ألوان التعذيب من أجلها على أن يعيش مُنعّماً سعيداً لا يحتاج إلى أن نبرهن على إخلاصه وذوبانه في الله تعالى.

وهو الرجل الذي أراد أن يطبع كتاب (فلسفتنا) باسم جماعة العلماء لاباسمه، وكتاب فلسفتنا وحده يمكن أن يعطي لمؤلّفه ـ أيًّ كان ـ مكانة اجتماعيّة وعلميّة لا نظير لها.

وبسبب هذا الانقطاع والإخلاص كانت الرعاية الربّانيّة تسدّده وترعاه.

وفي السنوات الأخيرة من عمر السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) بدأتُ بمشروع لكتابة و تنظيم أجوبة السيد الشهيد على الأسئلة التي ترد عليه، سواءاً في مجلسه اليومي في بيته من قبل المراجعين، أو عن طريق الرسائل التي ترسل إليه، وكنت أسعى لكتابة أغرب وأهمّ تلك الأسئلة على أمل طباعتها في المستقبل.

ورغم غرابة بعض الأسئلة، أو اختلافها في العمق أو البساطة فإنّ السيّد الشهيد كان يجيب عليها بالدقّة العلميّة المعروفة عنه، وبالوضوح المعهود منه، ولم أعهد السيّد الشهيد تلكأ في جواب، أو حار في ردّ طيلة مرافقتي له.

وكنت أعجب، بل تأخذني الدهشة وأنا أسمعه يُجيب، بإسهاب وتفصيل على أسئلة لاتخطر ببال بشر دون استعداد أو تحضير.

وكنت أنظر إلى مكتبته الخاصّة فتتعمّق حيرتي وتزداد دهشتي؛ لأنّها مكتبة متواضعة، صغيرة ومحدود لا تتناسب مع مستوى صاحبها، حتّى كان (رضوان الله عليه) يستعين في بعض الأحيان بمكتبة قريبة من بيته ـ هي مكتبة الحسينيّة الشوشتريّة ـ لمراجعة بعض المصادر فيها؛ لأنّ مكتبته فقيرة لمعظم المصادر الكبيرة والمهمّة.

فإذن كيف استطاع ﷺ يمتلك كلّ هذا الرصيد العلمي الهائل، والمعرفة

الشاملة وهو لا يمتلك ما يمكن أن نعتبره ـ الرصيد المادّي للمعرفة ـ المتمثّل بالكتاب.

وفي يوم من الأيام حرّضني الانبهار لاكتشاف هذا الأمر فسألته عنه، فقلت له: سيّدي، إنّ هذه الكتب التي أراها لا تقوى على إثراء أحد من العلماء للإجابة على كلّ هذه الاسئلة المعقّدة والمتنوّعة، فكيف يتسنّى لكم الإجابة على كلّ هذه الأسئلة المختلفة في موضوعاتها ومستوياتها، والتي بعضها لا يخطر على بال؟

فقال: وأنا أعجب من ذلك ـ في بعض الأحيان ـ فحينما يبدأ السائل بسؤاله قد لا يحضرني الجواب حتّى اللحظات الأخيرة من سؤاله، ولكن ما إن ينتهي حتّى يحضر الجواب أمامي وكأنّي قد أعددته قبل ذلك.

نعم، إنّه تلميذ باب مدينة علم رسول الله ﷺ فلا عجب ولا استغراب إذا كان العلم ينبع من عينه الصافية ليصبّ في هذا القلب الطاهر الذي حمل هموم محمّد وعلي صلى الله عليهما وآلهما.

فقد حدّثني والدة السيد الشهيد (رحمهاالله) بهذه القضيّة العجيبة التي تؤكّد صحّة ما أقول:

«كان السيد الشهيد في بداية حياته العلميّة مواظباً على الذهاب في كلّ يوم إلى حرم الإمام أمير المؤمنين علي ؑ، فكان يؤدّي الزيارة والصلاة ثمّ يجلس يفكّر بالمسائل العلميّة المعقّدة، مستلهماً من باب مدينة العلم حلّها، وكان يقول: ما استعصى عليّ حلّ لمسألة في حرم أميرالمؤمنين.

وقد انقطع السيد الشهيد ؓ عن الذهاب إلى الحرم الشريف فترة من الزمن، ولم يكن أحد يعلم بذلك كلّه إلى أن كشف هذا الأمر رجل كان خادماً لوالد السيّد الشهيد (رضوان اللهعليه) ثمّ بعد وفاته بقي على خدمته وعمله متبرّعاً بذلك، فقد رأى في عالم الرؤيا أميرالمؤمنين ؑ فقال له: قل لولدي السيّد محمّد باقر الصدر: لماذا انقطعت عن حضور درسنا».

وحينمااستيقظ من النوم أخبربما رأى، وقصّ ذلك للسيّد الشهيد. وهنا كشف ﷺ عمّا كان قد اعتاده من الجلوس خلف الضريح والتفكير بالمسائل العلميّة هناك.

وعاد (رضوان الله عليه) إلى ماكان عليه واستمرّ عليه حتّى آخريوم قبل احتجازه.

الثاني: اتّخذ السيد الشهيد منهجاً خاصاً لتربية نفسه من الناحيه العلميّة، فقد كان ـ وكماسمعت منه ـ يقتطف أكثر من عشرين ساعة من اليل والنهارللتحصيل العلمي، وكان يقسّمهابين المطالعة والكتابة والتفكير، ولعلّ التفكير كان يأخذ أكثرها، وقد يكون هذاأحد أسباب الإبداع في انتاجاته العلميّة، وما يرى فيها من تميّز ظاهر. فهو لم يجعل نفسه وعاءاً لأفكار الآخرين يستنسخها في ذاكرته فقط، بل يمحّص كلّ شيء بموضوعيّة ودقّة منقطعة النظير، فما هو حقّ منها يستدلّ له، وماهو باطل يستدلّ عليه، وهكذا. ولقد سمعت سماحة آيه الله السيدكاظم الحائري ينقل عنه أنّه (رضوان الله عليه) كان يستطيع نسف الفلسفة الافلاطونيّة، بل كان قد بدأ بذلك على مستوى الأحاديث الخاصّة بينه وبين بعض طلابه، ولم يُبرز ذلك على شكل كتاب ؛ لأنّ قسماً من الناس يؤمنون بالله من خلال هذا الطريق فلم يجد ضرورة أوحاجة تستلزم الخوض في هذاالموضوع. ومن المؤكّد أنّ عمله هذا – لو حقّقه – فسوف يجعله على رأس قمّة فلاسفة العالم، ولكانت مكانته الاجتماعيّة والعلميّة قد تتجاوز العالم الإسلامي إلى العالم كلّه، مع ذلك فقد قدّم المصلحة الدينيّة على ماكان سيحصل عليه من شهرة لو أنّه حقّق ذلك المشروع الفلسفي.

ولقد ذكرت آنفاً حالةالسيد الشهيد أثناء التفكير أو المطالعة، فقد كان ينقطع عن العالم من حوله بشكل كامل ،وهي حالة ليس من السهل لكلّ أحد أن يربّي نفسه عليها.

وابتعد عن كلّ ما من شأنه شغل وقته بمافي ذلك الحياة الزوجيّة، فلم يتزوّج إلاّ بعد أن وصل إلى أعلى مراتب الاجتهاد، وحتّى بعد هذه المرحلة ظلّ على نفس المنهج تقريباً. ولم أعهد السيّد الشهيد ﵀ يخلد إلى النوم ظهراً حتّى في أشدّ أيّام الصيف حرارة، فكان حتّى في هذاالوقت لايفارق كُتبه، وقد قارب الخمسين من عمره، وفي وقت كان فيه الشاب القويّ النشط لايستطيع مقاومة إغراء النوم في تلك الفترة [١].

نعم، في العام الأخير من عمره الشريف وبعد أن ضعفت قواه كان يستلقي على فراشه أقلّ من ساعة وكان يقول لي: إذا رآني نائماً: لم أُعوّد نفسي على النوم؛ لأنّ العمر قصير، فلِمَ تعوِّد نفسك على ذلك وأنت لا زلت شاباً.

ومن الغريب ماسمعته منه ﵀ أنّ حرارة جسمه الطبيعيّة كانت أكثر من الطبيعي بنصف درجة أيام شبابه، وكان المتصور أنّ سبب ذلك حالة مرضيّة مجهولة، إلّا أنّ الفحوصات أثبتت سلامته من أي مرض. وفسّر الطبيب ذلك بأنّ الزيادة عبارة عن طاقة إضافيّة في جسمه. وبمرور الزمن وكلمّا تقدّم العمر كانت الزيادة في درجة الحرارة تتخفّض حتّى أصبحت في السنوات الأخيره من عمره الشريف بالمستوى الطبيعي.

وصفه العلمي على لسان السيّد الهاشمي:

وكتب تلميذ آخرمن تلاميذ السيد الشهيد سماحة آية اللهالسيّد محمود الهاشمي (دام ظله) عن السّيد الشهيد باعتباره مدرسة علميّة ذات خصائص تنفرد بها ما يلي:

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١٠١) التي مضت الإشارة إليها.

«والحقيقة أنّ استيعاب أبعاد عظمة هذاالعالم الربّاني العامل لا يتيسّر لأحد في مثلِ هذه الدراسة العاجلة، ولكنّ ذلك لايعفينامن التعرّض لأبرز معالم مدرسته العلميّة والفكريّةالتي أنشأهاو خرّج على أساسها جيلاًمن العلماء الرساليين والمثقفين الواعين والعاملين في سبيل الله المخلصين. رغم قصرحياته الشريفة التي ابتلاهالله فيهابمايبتلى به العظماء من الصدّيقين و الشهداء والصالحين.

وفيما يلي أهم مميزات هذه المدرسة التي ستبقى رائدة وخالدةفي تاريخ العلم والإيمان معاً.

١ - الشمول والموسوعيّة:

اشتملت مدرسة شهيدنا الراحل على معالجة كافة شُعب المعرفة الإسلاميّة والإنسانيّة، فهي متعدّدة الأبعاد والجوانب، ولم تقتصر على الاختصاص بعلوم الشريعة الإسلاميّة من الفقه والأُصول فحسب، رغم أنّ هذا المجال كان هو المجال الرئيس والأوسع من إنجازاته و ابتكاراته العلميّة. فاشتملت مدرسته على دراسات في الفقه، واصول الفقه، والمنطق، و الفلسفه، و العقائد، والعلوم القرآنيّة، و الاقتصاد، و التاريخ، والقانون، والسياسة الماليّة و المصرفيّة، و مناهج التعليم والتربية الحوزويّة، ومناهج العمل السياسي، وأنظمة الحكم الإسلامي، وغير ذلك من حقول المعرفة الإنسانيّة و الإ سلاميّة المختلفة.

و قد جاءت هذه الشموليّة نتيجة لما كان يتمتّع به إمامنا الشهيد من ذهنيّة موسوعيّة وعملاقة يمكن اعتبارها فلتة يحظى بها تاريخ العلم والعلماء بين الحين والآخر، والتي تشكّل كلّ واحدة منها على رأس كلّ عصر منعطفاً تاريخيّاً جديداً في توجيه حركة العلم والمعرفة و ترشيدها.

فلقد كان ﵀ آية في النبوغ العلمي واتساع الأُفق و العبقرية الفذّة، وقد

سطعت منذ طفولته و بداية حياته وتحصيله العلمي كما شهد بذلك أساتذته و زملاؤه و تلامذته. وكلّ من اتّصل به بشكل مباشر. أو التقى به من خلال دراسة مصنّفاته وبحوثه القيمة.

٢ - الاستيعاب والإحاطة:

من النقاط ذات الأهميّة الفائقة في اتّصاف النظريّة، أيّة نظرية. بالمتانة والصحّة مدى ما تستوعبه من احتمالات متعدّدة وما تعالجه من جهات شتى مرتبطة بموضوع البحث. فإنّ هذه الخصيصة هي الأساس الأوّل في انتظام الفكر والمعرفة في أيّ باب من الأبواب، بحيث يؤدي فقدانهاإلى أن تصبح النـظرية مبتورة. ذات ثغرات ينفذ من خلالها النقد و التفنيد. وهذه الميزة أيضاً كان يتمتع بها فكر السيد الشهيد ﷺ بدرجة عالية، فإنّه لم يكن يتعرّض لمسألة من المسائل العلميّة سيما في الأُصول والفقه إلّا ويذكر فيها من الصور و المحتملات ما يبهر العقول. وهذا هو جانب الاستيعاب والإحاطة المعمّقة في فكره.

وقد ظهرت هذهالسمة العلميّة، وهـذه الخـصيصة حـتّى فـي أحـاديثه الاعتيادية. فكان عندما يتناول أيّ موضوع، ومهما كان بسيطاً واعتياديّاً يصوغه صياغة علميّة، ويخلع عليه نسجاً فنّيّاً، و يطبعه بطابع منطقي مستوعب لكلّ الاحتمالات والشقوق، حتى يخيّل لمن يستمع إليه أنّه أمام تحليل نظريّة علميّة تستمدّ الأصالة و القوّة و المتانة من مبرّراتها و أدلّتها المنطقيّة .

٣ - الإبداع والتجديد:

إنّ حركة العلوم و المعارف البشريّة و تطوّرها ترتكز على ظاهرة التجديد والإبداع التي تمتاز بها أفكار العلماء والمحقّقين في كلّ حقل من حقول المعرفة.

وقد كان سيدنا الشهيد ﷺ يتمتّع في هذا المجال بقدرة فائقة على التجديد وتطوير ما كان يتناوله من العلوم و النظريات، سواء على صعيد المعطيات، أو في الطريقة والاستنتاج.

ولقد كان من ثمرات هذه الخصيصة أنّه استطاع أن يفتح آفاقاً للمعرفة الإسلاميّة لم تكن مطروقة قبله، فكان هو رائدها الأوّل، و فاتح أبوابها، و مؤسس مناهجها، و واضع معالمها و خطوطها العريضة، و ستبقى المدرسة الإسلاميّة مَدينة لهذه الشخصية العملاقة في هذه الحقول، و خصوصاً فـي بـحوث الاقـتصاد الإسلامي، و منطق الاستقراء، و التاريخ السياسى لأئمة أهل البيت عليهم السلام.

٤ - المنهجيّة والتنسيق:

ومن معالم فكر سيدنا الشهيد منهجيّته الفريدة و المتماسكة لكلّ بحث كان يتناوله بالدرس و التنقيح.ومن هنا نجد أنّ طرحه للبحوث الأُصوليّة و الفقهيّة يمتاز عن كافة ما جاء في دراسات و بحوث المحقّقين السابقين عليه من حيث المنهجيّة والترتيب الفنّي للبحث، فتراه يفرز الجـهات والجـوانب المـتداخـلة والمتشابكة في كلمات الآخرين، خصوصاً في المسائل المعقّدة التي تعسر على الفهم، ويكثر فيها الالتباس والخلط، ويوضّح الفكرة وينظّمها ويحلّلها بشكل موضوعي وعلمي لايجد الباحث المختص نظيره في بحوث الآخرين.

كما كان يتميّز بدقّة طريقة الاستدلال في كلّ موضوع، و هل أنّها لابدّ منها وأن تعتمد على البرهان، أو أنّها مسألة استقرائيّة و وجدانيّة؟ ولم يكن يقتصر على دعوى وجدانيّة المدّعى المطلوب إثباته فحسب، بل كان يستعين في إثارة هذا الوجدان و احيائه في نفس الباحثين من خلال منهج خاصّ للبحث، و هو منهج إقامة المنبّهات الوجدانيّة عليه .

٥ - النزعة المنطقيّة و الوجدانيّة:

ومن معالم فكر سيدنا الشهيد نزعته المنطقيّة و البرهانيّة فـي التـفكير والطرح، في الوقت الذى كانت تلك المعطيات البرهانيّة تنسجم و تتطابق مع الوجدان، و تحتوي على درجة كبيرة من قوّة الإقناع و تحصيل الاطمئنان النفسي

بالفكرة. فلم يكن يكتفي بسرد النظريّة بلا دليل أو كمصادرة، بل كان يقيم البرهان مهما أمكن على كلّ فرضية يحتاج إليها الباحث العلمي، حتّى ما يتعسّر صياغة برهان موضوعي عليه، كالبحوث اللغويّة والعقلائيّة والعرفيّة. وهذه السمة جعلت آراء ومعطيات هذه المدرسة الفكريّة ذات صبغة علميّة ومنطقيّة فائقة يتعذّر توجيه نقد إليها بسهولة، كما جعلتها أبلغ في الإقناع والقدرة على إفهام الآخرين، وتنفيذ النظريات والآراء الأُخرى، وجعلتها أيضاً قادرة على تربية فكر روّادها وبنائه بناءاً منطقيّاً وعلميّاً، بعيداً عن مشاحة النزاعات اللفظيّة، أو التشويش والخبط واختلاط الفهم، الخطر الذى تُمنى به الدراسات والبحوث العلميّة والعقليّة العالية في أكثر الأحيان.

وفي الوقت نفسه لم يكن يتمادى هذا الفكر البرهاني المنطقي في اعتماد الصياغات والاصطلاحات الشكليّة التي قد تتعثّر على أساسها طريقة تفكير الباحث فيبتعد عن الواقع ويتبنّى نظريات يرفضها الوجدان السليم، خصوصاً في البحوث ذات الملاك الوجدانى والذاتى، التي تحتاج إلى منهج خاصّ للاستدلال والاقناع. فكنتَ تجده دوماً ينتهى من البراهين إلى النتائج الوجدانيّة، فلا يتعارض لديه البرهان مع مدركات الوجدان الذاتي السليم فى مثل هذه المسائل، بل على العكس يصوغ البرهان لتعزيز مدركات الوجدان. وكان يدرك المسألة أولاً بحسّه الوجدانى والذاتى ثمّ كان يصوغ في سبيل دعمها علميّاً مايمكن من البرهان والاستدلال المنطقي. ومن هنا لا يشعر الباحث بثقل البراهين وتكلّفها أو عدم تطابقها مع الذوق والحسّ الوجداني للمسألة الأمر الذى وقع فيه الكثير من الأُصوليين والفقهاء المتأخّرين بمناهج العلوم العقليّة الأُخرى.

وقد استطاع هذاالمفكّر العملاق على أساس التوفيق بين خصيصته المنطقيّة والعلميّة في الاستدلال وبين مراعاة المنهجيّة الصحيحة المنسجمة مع كلّ علم أن

يتناول في كلّ حقل من حقول المعرفة المنهج العلمي المناسب مع طبيعة ذلك العلم من دون تأثّر بالمناهج الغريبة عن ذلك العلم وطبيعته.

٦ - الذوق الفنّي والإحساس العقلائي:

الذوق حاسة ذاتيّة في الإنسان يدرك على أساسها جمال الأُمور وتناسقها. والذهنيّة العقلائيّة هي الأُخرى التي يدرك بها الإنسان الطباع والأوضاع والمرتكزات التي ينشأعليها العرف والعقلاء، ويُبنى على أساس منها الكثير من النظريات والأفكار في مجال البحوث المختلفة كالدراسات التشريعيّة والقانونيّة والأدبيّة. وهي في الأعم الأغلب مجالات للبحث لايمكن إخضاعها للبراهين المنطقيّة أو الرياضيّة أو التجريبية، وإنّما نحتاج إلى حاسّة الذوق الفنّي والذهنيّة العقلائيّة والحسّ العرفي الأدبي.

ونحن نجد في مدرسةالسيدالشهيد ﷺ التمييز الكامل بين هذه المجالات وغيرها في العلوم والمعارف، ونجد أنّه ﷺ كان يتناول المسائل في المجال الأوّل بالاعتماد على الذوق الموضوعي والإدراك العقلائي المستقيم، حتى استطاع أن يضع المنهج المناسب في هذه المجالات، وأن يؤسّس طرائق الاستدلال الذوقي العقلائي، ويؤصّل قواعدها ومرتكزاتها، خصوصاً في البحوث الفقهيّة التي تعتمد الاستظهارات العرفيّة، أو المرتكزات العقلائيّة، فأبدع نهجاً فقهيّاً موضوعيّاً في مجال الاستظهارالفقهي خرجت على أساسه الاستظهارات من مجرّد مدّعيات ومصادرات ذاتيّة إلى مدّعيات ونظريات يمكن تحصيل الإقناع والاقتناع فيها على أُسس موضوعيّة.

وتحسن الإشارة إلى أنّه قلّما تجتمع النزعة البرهانيّة المنطقيّة في الاستدلال مع الذوق الفنّي والحسّ العقلائي والذهنيّة العرفيّة في شخصية علميّة واحدة، فإنّنا نجد أنّ العلماء الذين مارسوا المناهج العقليّة والبرهانيّة من المعرفة

وتفاعلوا مع تلك المناهج وطرائق البحث قد لا يحسّون بدقائق النكات العرفيّة والذوقيّة والعقلائيّة، ولا يبنون معارفهم وأنظارهم إلّا على أساس تلك المصطلحات البرهانيّة التي اعتادوا عليها في ذلك البحث العقلي. وكذلك العكس، فالباحثون في علوم الأدب والقانون

وما شاكل نجدهم لا يجيدون صناعة البرهان والاستدلال المنطقي، ولكن نجد أنّ مدرسة سيدنا الشهيد قد امتازت بالجمع بين هاتين الخصيصتين اللتين قلّما تجتمعان معاً، وتمكّنت من التوفيق الدقيق فيما بينهما، واستخدام كلّ منهما في مجاله المناسب والسليم دون تخبّط أو إقحام ما ليس منسجماً.

٧ ـ القيمة الحضاريّة لمدرسة السيّد الشهيد الصدر:

لقد كان سيدنا الشهيد الصدر تحدّياً حضاريّاً معاصراً، وكان من مميّزات مدرسته أنّها استطاعت التصدّي لنسف أُسس الحضارة المادّيّة لإنسان العصر الحديث، وأن يقدّم الحضارة الإسلاميّة شامخة على أنقاض تلك الحضارة المنسوفة، وعلى أُسس قويمة، وضمن بناءٍ شامل ومتماسك ومتين استطاع سيدنا الشهيد من خلاله أن ينزل إلى معترك الصراع الفكري الحضاري كأقوى وأمكن من خاض غمار هذا المعترك، ووفّق لتفنيد كل مزاعم ومتبنيات الحضارة المادّيّة المعاصرة، وأن يخرج من ذلك ظافراً وبانياً لصرح المدرسة الأصيلة العتيدة والمستمدّة من منابع الإسلام الأصليّة والمتّصلة بوحي السماء ولطف الله بالإنسان.

هذه نبذة مختصرة عن معالم مدرسة هذه المرجع والفيلسوف والعارف الربّاني، والمجاهدالشهيد التي أسسها وأشادها لبنة لبنة بفكره، ونمّاها مرحلة مرحلة بجهوده العلميّة المتواصلة، وهي تعبّر بمجموعها عن البعد العلمي، الذي هو

أحد أبعاد هذه الشخصية العظيمة الفريدة في تاريخنا المعاصر...»[١]

وصفه العلمي على لسان السيّد الحكيم:

وكتب تلميذ آخر من تلاميذ السيد الشهيد الصدر هو سماحة آية الله السيد محمد باقر الحكيم ـ حفظه الله ـ بحثاً تناول فيه مختلف الجوانب العلميّة والإبداعيّة في شخصية الإمام الشهيد الصدر جاء فيه:

«عندما نحاول أن نتناول شخصيّة الشهيد الصدر العلميّة في أحد جوانبها وهو التفسير، لابدّ أن نشير منذ البداية بصورة إجماليّة إلى الأبعاد المختلفة التي كانت تتّصف بها شخصيّته العلميّة لتكون الصورة واضحة تجاه الأعمال التفسيريّة التي قام بإنجازها الشهيد الصدر [٢]

هذه الأبعاد ذات اتجاهات متعددة اذ ترتبط بجوانب الشمول والعمق والواقع والشكل. بالاضافة إلى العوامل المضادّة التي اقترنت بها حياته العلميّة منذ البداية. ولذلك اعتقد أنّ الإحاطة بتفاصيل تاريخ ونشاطات شهيدنا الصدر ﵀ لها دور في تقييم شخصيته العلميّة.

ولكن سوف اقتصر هنا على الإشارة إلى بعض هذه الأبعاد التي سوف يكون لها مساهمة في توضيح الصورة ضمن النقاط التالية:

السعة والشمول:

١ ـ لقد شملت فعاليّات الشهيد الصدر العلميّة مجمل العلوم الإسلاميّة ذات العلاقة بالعقيدة الإسلاميّة والشريعة الإسلاميّة والمجتمع الإسلامي.

١ ـ بحوث في علم الأصول ج ١، ص ٧ـ١٢.

٢ ـ لابدّ ان أؤكّد هنا أنّ هذه الكتابة تمثّل إثارة فقط حول هذا الجانب من شخصيّته العلميّة ولابدّ من دراسة تفصيليّة مستوعبة لكلّ أعماله في مجال القرآن والتفسير لتتكوّن الصورة الكاملة في هذا المجال.

وعلى نحو الإجمال فقد تناول بالبحث: الفقه، والأُصول، والفلسفة، والعقائد، والحديث، والرجال، والتاريخ الإسلامي، وفلسفة التاريخ، والمنطق، والنظام الإسلامي، والاقتصاد السياسي والمجتمع الإسلامي. وقد كان يتناول الموضوع الواحد من خلال أبعاد متعددة ليعطي للشمول سعة وانطلاقاً.

كما أنّه كان يلاحق ـ في بعض الأعمال على الأقل كالأعمال الفقهيّة والأُصوليّة والفلسفيّة ـ تفاصيل النظريّات العلميّة، ويقدّم التصوّرات العديدة لها.

التحقيق والتجديد والحاجة:

٢ ـ ولم يهتم الشهيد الصدر بالشمول كهدف وإنّما كان العمق في التناول للموضوعات والتجديد فيها هو الهدف من وراء مختلف الأبحاث التي كتبها الشهيد الصدر بحيث يلاحظ الباحث والمطالع لها الشيء الجديد دائماً أو النكهة الجديدة على الأقل.

بالإضافة إلى أنّه يحاول أن يفتّش في أبحاثه عن نقاط الفراغ ليملأها ويثري بذلك الأبحاث الإسلامية.

وهذا في الوقع أحد الأسباب الرئيسيّة التي جعلت الأعمال العلميّة للشهيد الصدر موضع الاهتمام والإقبال عليها في الأوساط العلميّة والاجتماعيّة والسياسيّة المختلفة.

استكشاف النظريّة إلى جانب التفصيل:

٣ ـ ولم يكتف الشهيد الصدر بالعمق كهدف أساس بل وضع إلى جانبه هدفاً آخر كان يسعىٰ إليه وهو استكشاف النظريات العامّة التي يمكن أن تفسّر مجموعة من المفردات وتكوّن قاعدة يعتمد عليها في الحالات المشابهة. فلم يقتصر في بحثه العلمي على الجزئيات وتعميقها بل كان ينطلق منها إلى الكليّات التي تجمعها وتربط بينها مما كان يضفي على العمق والتجديد في آن واحد بعداً جديداً مهما

يساهم في دعم المواجهة الحضاريّة التي يخوضها الإسلام مع الحضارات الجديدة.

الموضوعيّة في البحث العلمي:

٤ ـ وقد كانت الموضوعيّة طابعاً مميّزاً لأعماله العلميّة بحيث كان يتناول القضايا المختلفة و من القضايا التي يتحكم بها العرف والذوق الفني بالتحليل العلمي الموضوعي وينتهي بها إلى نتائج رائعة تفسرها تكوّن العرف العام والذوق الإنساني، فهو يدرسها كظاهرة اجتماعيّة أو لغويّة كما يدرسها العالم في مختبره، ولا يبتعد بها عن إطارها الخاصّ والأرضيّة التي احتضنتها ونمت فيها.

كما يلاحظ ذلك بوضوح عند دراسته للظهور والسيرة العقلائيّة، أو لأساليب الجمع العرفي الذي يصطلح عليه (التعارض غير المستقر).

ولعلّ كتابه الأُسس المنطقيّة للاستقراء هو أروع وأدق محاولة لتفسير ظاهرة حصول اليقين من التواتر والاستقراء.

الواقعيّة والتجربة:

٥ ـ والواقعيّة صفة أُخرىٰ يتميّز بها البحث العلمي للشهيد الصدر، بل سوف نجد هذه الواقعيّة أساساً لكلّ بحث علمي في الشريعة أو المجتمع.

الواقعيّة التي تعني الانطلاق من الواقع القائم واستنطاق القرآن والشريعة والقوانين العلميّة والتاريخيّة في تفسيره ومعالجته والتمييز بين حالة تفسير النصّ بالواقع ،او تفسير النصّ مع الاغماض عن الواقع وفصله عن إطاره وهدفه وحالة تفسير الواقع بالنصّ ومعالجته من خلال النص الشرعي والسعي لتحقيق هدف النصّ الذي ورد لمعالجة هذا الواقع.

وقد أعطى لهذه الواقعيّة بعداً أعمق حين أدخل عنصر نتائج التجربة البشريّة كطرف في البحث والمقارنة حيث تصبح النظريّة التي يراد استنباطها أكثر وضوحاً

وواقعيّة ـ كما نشاهد ذلك في مجموعة من أعماله العلميّة مثل كتاب فلسفتنا واقتصادنا، والتفسير الموضوعي حيث اعتمد أُسلوب المقارنة مع حصيلة التجارب البشريّة المعاصرة أساساً في فهم النظريّة الإسلاميّة.

الاهتمام بالشكل الى جانب المضمون:

٦ ـ وقد أهتم السيد الشهيد ﷺ بالشكل ـ بالإضافة إلى اهتمامه بالمضمون ـ لأنّ الشكل يخدم المضمون في أهدافه.

بالإضافة إلى أنّ السيّد الشهيد كان يكتب للأُمّة بكلّ مستوياتها ولم يكن يكتب لنفسه او للنخبة العلميّة فحسب.

الممارسة الميدانيّة والاجتماعيّة:

٧ ـ ولم يكن الشهيد الصدر يكتب عن الواقع من خلال التصوّر للواقع أو تخيّله أو من خلال ما يقرأ عنه بل كان يعايش الواقع في كثير من الأحيان بعقله وروحه من خلال الممارسة والمشاهدة الحسيّة لأنّه كان يتحرّك ضمنه ويتفاعل معه يوميّا من خلال الصراع السياسي والاجتماعي المستمر. ومن خلال العطاء المتبادل، ومن خلال العلاقات الواسعة مع مختلف قطاعات الأُمّة من الأوساط العلميّة في الحوزة العلميّة وطلبة العلوم الدينيّة والعلماء والوكلاء والمبلّغين إلى أوساط أساتذة وطلاب الجامعات، إلى أوساط الجماهير، وملاحظته للأوساط الدينيّة وغير الملتزمة دينيّاً.

وكان يتحرّك بنفسه على هذه الأوساط من خلال زياراته المتكرّرة إلى بغداد والكاظميّة ولبنان ومتابعاته للأحداث، كما كانت تتحرك بنفسها عليه من خلال مجلسه المفتوح الذي كان ترتاده مختلف أوساط أبناء الامة ويجيب فيه عن مختلف الأسئلة.

ولذلك جاءت كتابته إلى جانب مااشتملت عليه من عمق ودقّة في المضمون سهلة التناول والفهم.

كما أنّه كتب في كثير من الأحيان من أجل الأُمة والجمهور بالقدر الذي يسمح به البحث العلمي كما حصل ذلك في كتاباته (دروس في علم الاصول) و(الاسلام يقود الحياة) و(المدرسة الاسلامية) و(الفتاوىٰ الواضحة) و(مقدمتها) وغيرها.

وقد جاءت أهم أعماله التفسيريّة في هذا الإطار، كما سوف نبيّن ذلك عند استعراضنا لهذه الأعمال.

ومن هنا يمكن أن نقول: إن الشهيد الصدر لم يكن بوجوده السياسي لكلّ الأُمّة فحسب بل كان في أعماله العلميّة كذلك، باستثناء بعض الأعمال التي كانت الظروف الموضوعيّة تفرض اختصاصها بالنخبة العلميّة مثل بعض أعماله الفقهيّة والأُصوليّة والمنطقيّة.

وحتىٰ هذه الأعمال حاول فيها التبسيط والتيسير بحيث يمكن أن يتناولها ويفهمها أوسع دائرة من ذلك الوسط.

وبهذا الصدد أتذكر أنّ الشهيد الصدر عندما كان يكتب الأُسس المنطقيّة للاستقراء ـ الذي كان يقيّمه بأنّه أعظم عمل علميّ له ـ كان يقول عنه في الجواب عن سؤال يطرحه على نفسه دائماً بصدد الموازنة بين حجم الجهد الذي كان يبذل فيه وحجم المنفعة التي يمكن للأُمة أن تحصل عليها منه: «انّه رغبة علميّة محضة».

بالرغم من أنّ هذا العمل العلمي له آثار مهمّة تنعكس على العقيدة والفقه والأُصول وكلّ نواحي المعرفة الإنسانيّة، ولكنّه كان يفكّر دائماً في الأُمّة ومدىٰ إمكان استيعابها لهذا العمل العلمي.

السرعة بالانجاز:

٨ ـ وقد تتميز أعمال الشهيد الصدر العلميّة بالسرعة في التنفيذ والإنجاز بحيث تبلغ أحياناً وقتاً قياسياً.

فكتاب فلسفتنا الذي كتبه الشهيد الصدر مرتين بصيغتين مختلفتين وتمّ طبع الصيغة الثانية، تمّ إنجازه في فترة لاتتجاوز عشرة اشهر وفي ظروف بالغة الصعوبة والحساسيّة، واحتاج فيه إلى مراجعة مجموعة كبيرة من كتب الفلسفة الماركسيّة لاستيعاب هذه الفلسفة من ناحية والتعرّف على مواقع الخلل فيها من ناحية أُخرىٰ، بالإضافة إلى مجموعة من الكتب الأُخرىٰ ذات العلاقة بالفلسفة الديمقراطيّة والاسلام.

علماً بأنّ أكثر هذه الكتب والدراسات لم تكن في صراط البحث العلمي التقليدي له ولم تكن متوفرة في الأسواق التجارية.

كما أنّه كتب الحلقة الثانية (٤٧٤) صفحة دروس في علم الاصول في ثلاثة اسابيع، والجزء الاول من الحلقة الثالثة(٤٢٢) صفحة في مدة (٣٤) يوماً، ويكتب الاسلام يقود الحياة في مدّة لاتتجاوز الشهر في ظروف كان يمارس فيها أعماله العلميّة العاديّة وكذلك الأعمال التي يمارسها المراجع في إدارة شئون الطلبة والناس.

وكان هذا الطابع العام لأعماله باستثناء الأعمال التي خضعت لظروف البحث العلمي الرتيب.

الوفرة في الانتاج والعوامل المضادّة:

٩ ـ وإلى جانب ذلك كلّه كان الشهيد الصدر مدرسة في العمل السياسي والاجتماعي الذي توجّه بتصديه للمرجعيّة الثائرة وبالشهادة في سبيل الإسلام.

ومن الواضح أنّ هذا النشاط والمداخلات السياسيّة والاجتماعيّة كانت عاملاً مضاداً للإنتاج العلمي وتؤثّر بشكل معاكس على التخصّص والانصراف إلى الدقّة والعمق والثروة العلميّة.

ويمكن أن نتصوّر مدىٰ ماكان يمكن أن يتحقّق من الإنتاج العلمي للشهيد

الصدر لولا هذه المداخلات إذا أخذنا بنظر الاعتبار خصوصيّتين كان يتّصف بهما وكان يذكرهما أحياناً:

(١)أنّه في بداية عمله العلمي كان يمارس التفكير طيلة الفترة التي يكون مستيقظاً فيها دون استثناء وكان يقول: إنّي كنت ألاحظ أنّه بمجرد أنْ أستيقظ من النوم أبدأ بالتفكير من النقطة التي انتهيت إليها في فترة ما قبل النوم ولم يكن يؤثّر عليّ في عمليّة التفكير هذه ما يجري حولي من حديث أو أصوات بل كنت أقدر على التفكير في الجو الصاخب أيضاً.

(٢)أنّه كان يمارس العمل السياسي والاجتماعي بدافع الوظيفة الشرعيّة ولم يكن لديه ميل نفسي ـ لظروف التربية ولأسباب أخرىٰ ـ إلى ممارسة الأعمال الاجتماعيّة والاختلاط بالناس، على أنّ العمل العلمي يمثّل رغبة ملحّة بالنسبة له ويشعر باللذة والارتياح لممارسته مهما طال الوقت والزمن ومهما طالت به الخلوة.

ومن هنا نجد الشهيد الصدر يتمكّن من كتابة دورة كاملة لأُصول الفقه [١] وهو في سنّ يقارب العشرين عاماً وكان يقول عن كتاباته هذه: إنّها تشكل الأساس لكلّ أفكاره الأُصوليّه بحيث أنّه كان يقول: إنّه في المراحل اللاحقه لم يحصل تغيير لديَّ ـ إلّا بشكل جزئي ـ في أفكاري وتصوّراتي في علم الأُصول.

امتزاج العامل المضادّ بالتجربة العلميّة:

١٠ ـ ومع هذا كلّه نجد أنّ هذه الظروف السياسيّة والاجتماعيّة والممارسات المنسجمة معها تمكن أن يحوّلها السيّد الشهيد إلى عامل إيجابي في إنتاجه العلمي من الناحية الكيفية، فبالإضافة إلى أنّ الكثير من ممارساته العلميّة

١ ـ يقصد بذلك دورة كتاب (غاية الفكر) في عشرة أجزاء ولم يطبع منها سوى الجزء الخامس في بحث الاشتغال.

قد أملتها عليه هذه الظروف السياسيّة والاجتماعيّة، كان العمل السياسي والاجتماعي يفجّر أحياناً الطاقات العلميّة في السيّد الشهيد الصدر ويفتح آفاقاً جديدة أمامه فكتابه (البنك اللاربوي) و (فلسفتنا) و (اقتصادنا) و (الاسلام يقود الحياة) و(التفسير الموضوعي) و(تاريخ الأئمة) وغيرها كانت نتاجاً لهذه الظروف.

كما أنّ البُعد الواقعي الذي اتصف به أعمال الشهيد الصدر العلميّة بحيث أصبحت عملاً متّصلاً بالحياة السياسيّة والاجتماعيّة وليست مجرّد ترف فكري.

هذا البعد الواقعي كان يفضل هذه الظروف السياسيّة والاجتماعيّة.

وقد كان الشهيد الصدر في كتابه اقتصادنا وعد القرّاء أن يتحفهم بكتاب (مجتمعنا) إلّا أنّه لم ينجز هذا العمل على شكل كتاب وإن كان قد أنجز أكثر فصوله وأسسه من خلال أعماله العلميّة الأُخرىٰ حيث نجد ذلك في كتاباته (الإسلام يقود الحياة) و(المدرسة الإسلامية) و(التفسير الموضوعي) وبعض المقالات الأُخرىٰ.

وبذلك نعرف أنَّ الشهيد الصدر تمكّن أن يجمع بين خصوصيّة الشمول التي كان يتّصف بها الأوائل من علمائنا (قدّس سرهم) قبل أن تتوسّع المعرفة الإسلاميّة في مختلف مجالاتها، وبين العمق والدقّة والتجديد والواقعيّة والأُسلوب الميسّر الذي يتفاعل به مع مختلف طبقات المجتمع إلى جانب الممارسة العلميّة للعمل السياسي والجهادي بالإضافة إلى التدريس والتربية لطلاب العلوم الدينيّة وقلّما يتوفّر كلّ ذلك في عرض واحد لعالم من علماء الإسلام.

بعد هذه المقدّمة في أبعاد شخصيّة الشهيد الصدر العلميّة نتناول أعماله التفسيريّة بشيء من الاختصار وعلى مستوىٰ الإثارة ومن خلال فصلين:

الاول ـ الأعمال والممارسات التفسيريّة أو القرآنيّة.

الثاني ـ منهج الشهيد الصدر في التفسير.

الاول: الاعمال والممارسات التفسيرية أو القرآنية.

يمكن أن نجمل الأعمال التفسيريّة للشهيد الصدر في المفردات الأربعة التالية بقطع النظر عن بعض المحاولات المتفرّقة في كتبه ودراساته أو بعض المقالات الأُخرىٰ.

١ ـ محاضرات علوم القران.

٢ ـ محاضرات التفسير الموضوعي.

٣ ـ الاسلام يقود الحياة (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء).

٤ ـ الأبحاث المتعلّقه بالقرآن فى علم أُصول الفقه (الظهور القرآني) (العرض على القرآن في تعارض الادلة).

التعريف بهذه المفردات:

١ ـ محاضرات في علوم القرآن

تأسّست كليّة أصول الدين في بغداد سنة (١٣٨٥هـ=١٩٦٥م) وكان الغرض منها تربية الكوادر الإسلاميّة التي يمكن أن يكون لها دور في مختلف المجالات الإسلاميّة وبالخصوص مجال التربية والتعليم، وكانت هذه الكليّة تحظىٰ برعاية خاصّة من قبل الشهيد الصدر ﵀ لأنّها ترتبط بالخطّ المتصدّي في جهاز المرجعيّة الدينيّة لآية الله العظمىٰ المغفور له الإمام الحكيم ﵀.

وقد طلب من الشهيد الصدر أن يكتب لهذه الكليّة منهجها في علوم القرآن فبادر ﵀ إلى كتابة منهج السنة الأُولى وبعض منهج السنة الثانيّة، وقد كنت أقوم بتدريس هذه المادّة في الكليّة حيث أكملت كتابة مفردات السنة الثانية والثالثة والرابعة بعد أن أدخلت بعض التعديلات على مفردات السنة الأُولى في السنوات المتأخّرة.

وقد طبعت على شكل كتاب في طهران، كما أنّها نشرت قبل ذلك في رسالة

الإسلام التي كانت تصدر عن كليّة أُصول الدين ببغداد.

٢ ـ محاضرات في التفسير الموضوعي

مجموعة من المحاضرات عددها (١٤محاضرة) كان آخرها قبل احتجازه الذي انتهىٰ باستشهاده بفترة لاتزيد عن الأُسبوعين، وقد أشار في المحاضرة الأخيرة إلى شعوره بقرب أجله.

وكان قد بدأ بها بعد انتصار الثورة الإسلاميّة وإحساسه بالحاجة الملحّة إلى إيجاد تحرّك سريع وواضح في صفوف الحوزة العلميّة في النجف الأشرف فعمد إلى تعطيل درسه الفقهي في بعض أيام الأُسبوع ليقوم بإلقاء هذه المحاضرات التي كان يمتلىء مسجد (الشيخ الطوسي) بالعلماء والطلبة لاستماعها وتسجيلها، وتناول فيها منهج التفسير الموضوعي وسنن التاريخ في القرآن وعناصر المجتمع في القرآن الكريم.

٣ ـ الإسلام يقود الحياة

«خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء»

مجموعة من الكرّاسات عددها (٦) تناولت موضوعات مهمّة كتبها في ضوء انتصار الثورة الإسلاميّة ويعالج فيها قضايا مهمّة كانت ولازالت مطروحة أمام الثورة هي: (دستور الجمهوريّة الإسلاميّة) (صورة عن اقتصاد المجتمع الاسلامي) (خطوط تفصيليّة عن اقتصاد المجتمع الاسلامي) (خلافة الإنسان وشهادة الانبياء) (منابع القدرة في الدولة الاسلامية) (الأُسس العامّة للبنك في المجتمع الاسلامي).

وقد عبّر من خلالها عن ذوبانه في الثورة الإسلاميّة وإمام الأُمّة وتقييمه لهذا الانتصار العظيم.

وموضوع حديثنا هو الكرّاس الرابع (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء)

ويقول في تعريفه: إنّه «توضيح لخطين ربانيين يقوم على أساسهما مجتمع التوحيد وتنسيق الحياة الاجتماعيّة للإنسان على الأرض، ويشتمل على تلخيص للتصور الإسلامي لركائز الخلافة الإنسانيّة وسيرتها والرقابة التي وضعها الله سبحانه على هذه المسيرة وحركتها في الأرض وتصوّرات أساسيّة عن المجتمع في نظر الإسلام والقرآن وكيفيّة تطوّره والعلاقات التي تتحكّم فيه».

٤ ـ الأبحاث المتعلّقة بالقرآن في علم أُصول الفقه

في علم أُصول الفقه هناك أبحاث ترتبط بشكل خاصّ ومباشر بالقرآن الكريم باعتباره المصدر الرئيسي للتشريع الإسلامي من جملة هذه الأبحاث (الظهور القرآني) حيث وقع البحث في مدىٰ حجيّته بعد الفراغ عن حجيّة الظهور بشكل عام لاحتمال وجود التخصيص أو التخصّص في هذه الحجيّة.

ومن جملة هذه الأبحاث عرض الخبر على الكتاب الكريم لمعرفة مدىٰ صحته وحجيّته عند الشك في حجيّته، أو ترجيح حجيته على الخبر الآخر عند معارضته إياه (الموافقة والمخالفة مع القران الكريم فيالتعارض غير المستقر) (موارد الجمع العرفي) (التعارض المستقر) و(التعارض المستحكم).

كما أنّ هناك أبحاث أُخرىٰ في هذا المجال...» [1]

والحقيقة إنّ كلّ ماكتب أو قيل عن هذا الجانب من شخصيّة الإمام الشهيد الصدر ـ رغم أهميّته ـ لا يعبّر إلّا عن جزء يسير من عبقريّته ونبوغه العلمي، ومن أراد المعرفة التفصيليّة الوافية فعليه أن يبحث فيما تركه من مؤلّفات قيّمة لازالت بكراً من هذه الناحية.

١ ـ صحيفة لواء الصدر العدد ٣٩٦ الصادرة بتاريخ ١٩٨٩/٤/٩م ـ ٢ شهر رمضان ١٤٠٩هـ

نشاطه التدريسي ومؤلّفاته

النشاط التدريسي:

كان للسيّد الشهيد (رضوان الله عليه) مجلسان للتدريس:

الأوّل: بحث الأُصول، وكان يلقيه في مسجد الجواهري بعد أذان المغرب بساعة في الأيام الدراسيّة من الأُسبوع.

الثاني: بحث الفقه، وكان يلقيه في جامع الطوسي في الساعة العاشرة من صباح كلّ يوم من الأيام الدراسيّة.

وكان له بالاضافة الى ذلك مجلس درس ثالث في بيته عصراً للخواص من طلابه كان يتضمن بحثاً فقهياً لمدة من الزمن ثم تحول اخيراً الى بحث فلسفي في تحليل الذهن البشري وكثيراً ما كانت تدور في هذا الاجتماع قضايا سياسيّة واجتماعيّة وغيرها.

وكان للسيّد الشهيد ـ قبل فترة التصدّي للمرجعيّة ـ محاضرات قيّمة كان يلقيها في مناسبات وفيات الأئمه (عليهم السلام)، سُجّل بعضها بصوته وطبعت جملة منها فيما بعد باسم «أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف»[١]

ويجب أن نشير إلى أنّ أبحاثه الفقهيّة والأُصوليّة المسجّلة بصوته مع باقي مؤلّفاته وكتاباته ومحاضراته قد صادرتها السلطة العفلقيّة بعد فترة من استشهاده، ولم يحفظ من محاضراته وابحاثه المسجلة بصوته إلا القليل عند بعض طلابه.

مؤلفات السيد الشهيد:

١ ـ غاية الفكر في علم الاصول.

١ ـ وقد عثر على عود آخر منها ضمن الأرشيف الذي رتبه فضيلة الأخ السيد حامد الحسيني حفظه الله. وستطبع جميعا انشاء الله في مجموعة (تراث الشهيد الصدر).

وهو عشرة أجزاء طبع منها الجزء الخامس فقط.

٢ ـ فدك في التاريخ.

٣ ـ فلسفتنا.

٤ ـ اقتصادنا. يشتمل على قسمين.

٥ ـ المدرسة الإسلاميّة. وهي سلسلة صدر منها عدد ان هما:(الانسان المعاصر و المشكلة الاجتماعيّة) و(ماذا تعرف عن الاقتصاد الاسلامي).

٦ ـ المعالم الجديدة للأُصول.

٧ ـ البنك اللاربوي في الإسلام.

٨ ـ الأُسس المنطقيّة للاستقراء.

٩ ـ بحوث في شرح العروة الوثقى. في أربع مجلّدات.

١٠ ـ موجز أحكام الحج.

١١ ـ الفتاوى الواضحة.

١٢ ـ دروس في علم الأُصول. في ثلاث حلقات تشتمل الثالثة منها على جزئين.

١٣ ـ بحث حول الولاية.

١٤ ـ بحث حول المهدي.

١٥ ـ تعليقة على رسالة بُلغة الراغبين.وهي مفقودة الآن مع كّل الأسف.

١٦ ـ تعليقة على منهاج الصالحين للسيّد الحكيم ﷺ في جزئين.

١٧ ـ تعليقة على مناسك الحج للسيّد الخوئي ﷺ.

١٨ ـ سلسلة أبحاث (الإسلام يقود الحياة) وهي:

أ ـ لمحة فقهيّة تمهيديّة عن مشروع دستور الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران.

ب ـ صورة عن اقتصاد المجتمع الإسلامي.

ج ـ خطوط تفصيليّة عن اقتصاد المجتمع الاسلامي.

د ـ خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء.

هـ ـ منابع القدرة في الدولة الإسلاميّة.

و ـ الأُسس العامّة للبنك في المجتمع الإسلامي.

١٩ ـ محاضرات في التفسير الموضوعي للقرآن. وطبعت تحت عنوان (المدرسة القرآنية). وللسيد الشهيد (رضوان الله عليه) مؤلّفات أُخرى صادرتها السلطة، منها كتاب كُنت أراه يؤلّفه في فترة الحجز، لم يضع له اسماً، وقد سألته عن موضوعه فقال: إنّه في أُصول الدين[١].

وله كتاب آخر عن تحليل الذهن البشري، لم يتمّه، وقد صادرته السلطة بعد استشهاده.

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١١) التي مضت الإشارة إليها، وجاء فيها: «وأرجو أن أوفّق إذا ساعد حالي وأعانت صحّتي إلى كتابة كتاب دراسي في أُصول الدين...». وراجع أيضاً الوثيقة رقم (١٤) التي جاء فيها بخطّه الشريف: «... إلّا أنّي قدّمت عليه فعلاً التشاغل بالبحث المشار إليه سابقاً والذي كنت أُشير إليه باسم البحث في أُصول الدين...».

٤

أخلاقه وسيرته الذاتيّة

- أخلاقه العامّة.
- أخلاقه مع طلّابه وأصدقائه.
- أخلاقه مع أساتذته.
- سيرته مع الناس والاهتمام بهم.
- سيرته مع وكلائه.
- سيرته مع أُسرته وأهل بيته.
- زهده وعزوفه عن الدنيا
- عبادته وانقطاعه إلى الله تعالى.
- روح التضحية والفداء عنده.

أخلاقه العامّة

تمهيد:

يُعتبر السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) مدرسة متميّزة في نهجها الأخلاقي والسلوكي الديني والاجتماعي على حدٍ سواء. وإذا كانت معايشتي له (رضوان الله عليه) في السراء والضراء ومعرفتي التفصيليّة بواقعه من هذه الناحية تعزّز وتزيد من قناعتي العقليّة والقلبيّة حول هذه الرؤية فإنّ الواقع يثبت صحّة هذه الرؤية من خلال طلّابه الذين تتلمذوا عنده وكانوا قريبين منه. وعاشوا معه معايشة مكّنتهم من التعرّف على هذا الجانب من شخصيّته، تراهم يتحدّثون بإسهاب وإعجاب منبهرين بكريم سجاياه ودماثة أخلاقه وطبائعه النقيّة، وما جُبل عليه من عاطفة جيّاشة وإحساس مرهف جعلته حيّاً في القلوب والوجدان لايعفي عليه الزمان مهما امتدّ وطال.

وكما سنرىٰ من خلال هذا البحث فإنّه لم يقتصر هذا الإحساس على طلّابه والمقرّبين منه بل امتدّ إلى كلّ من عرفه وعايشه ولو معايشة عابرة أو قصيرة، تجد نفس المشاعر الطافحة بحبّه وإكباره متوافرة في نفوسهم وعقولهم.

وإذا كان الانطباع الشخصي، والمعايشة الحياتيّة تُنتج هذه الانطباع وتوّلد هذا الإحساس، وهذا ما قد يعتبره البعض نوعاً من التطرّف أو الانحياز الأعمىٰ إلّا أنّ ما بأيدينا من وثائق (رسائل بخطّ السيّد الشهيد نفسه) تقطع الشك باليقين

وتعزّز من الرؤية التي نعتقدها ونقتنع بها.

وقبل أن ندخل في صُلب الموضوع يجب أن نقف وقفة قصيرة لنتمعنّ في دراسة بعض جوانب هذا الموضوع من شخصيّة السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه).

لقد عِيبَ علىٰ السيّد الشهيد أن يكون عاطفيّاً. وكان يُقال: هل يصلح رجل عاطفي أن يكون قائداً أو مرجعاً! إنّ القيادة والمرجعيّة يجب أن تكون للأشدّاء الأقوياء فقط أمّا للعاطفيّين الذين ترّق قلوبهم أو تدمع عيونهم لهذا أو ذاك فلا.

ولم يكتف البعض ـ غفر الله لهم ـ بذلك بل جعلوا هذه السجيّة نقطة ضعف للتشهير به واسقاطه حوزويّاً واجتماعيّاً.

وإذا أحسنّا الظنّ بهؤلاء فإنّ أقلّ مانقوله عنهم: إنّهم لا يعرفون مايجب أن يتوفّر في القائد الحقيقي من سمات ومقوّمات، وإنّهم قد يغفلون أو لايفهمون سيرة نبيّنا محمّد ﷺ وأئمتنا الأطهار عليهم السلام في كيفيّة تعاملهم مع المؤمنين والمسلمين بل ومع غيرهم من البشر بالرغم من أنّهم يردّدون بإعجاب حوادث ومواقف لهم في الأخلاق الممزوجة بالعاطفة والمحبّة

إنّنا نعتزّ ونفتخر حينما نقرأ في كتب السيرة أنّ الإمام الحسين عليه السلام بكى في يوم العاشر من محرّم حينما رأى الجيش الذي حشّده بنو أُميّة لقتاله، وعندما سئل عن سبب بكائه أجاب: أنّ هؤلاء سيدخلون النار بسببي. إنّنا نفتخر بذلك، ومن حقّنا أن نفتخر لأنّ أئمتنا يمتلكون هذا القدر الكبير من العاطفة الهادفة.

كما أنّنا نبكي حينما نقرأ أنّ الإمام الحسين عليه السلام هدّه مقتل ولده علي الأكبر عليه السلام فعجز عن حمله، فقال لأصحابه: احملوه فلا طاقة لي على حمله. وكذلك حاله مع أخيه العباس عليه السلام. أو نتأثّر حينما نقرأ أنّ النبي ﷺ رقّ لولده إبراهيم فعاتبه البعض على ذلك، فقال لهم: تدمع العين ويحزن القلب، ولانقول ما يسخط الربّ.

فلماذا ياترى يُنتقد من يقتدي في أخلاقه وسلوكه بمن أمرنا الله ـ تعالى ـ

بالاقتداء بهم؟ ثمّ ما هي الضرورة التي تفرض أن يكون المرجع غليظ القلب مع شعبه، يعيش معهم بلا أحاسيس ولامشاعر ولاعواطف؟

إنّ العاطفة المذمومة هي تلك التي تؤثر على مواقف الإنسـان الدينيّة والعقائديّة بما يسخط الله تعالى «لا تَجد قوماً يُؤمِنون بالله واليومِ الآخر يُوادّون مَن حادّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم أُولئك كتبَ في قُلوبِهمُ الإيمانَ وأيّدَهُم بروح منه..»[1]. أمّا العواطف التي يُطلب بها وجه الله تعالى، العاطفة الهادفة المسخّرة لخدمة الرسالة والأهداف المقدّسة، فهي الحسنة التي لا يجوز أن يزهد فيها قائد «ولو كُنتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانفضّوا من حولِكَ»[2]

وكان (رضوان الله عليه) يتألّم حينما تبلغه تلك الانتقادات، لا لأنّها تمسّه شخصيّاً، فما أكثر المواقف والانتقادات التي استهدفته فتجاهلها وكأنّها لم تكن أوكأنّه لم يسمع بها لأنّها شخصيّة، بل لأنّ هذه الانتقادات كانت تصبّ في إطار تهديم الحوزة والمرجعيّة، وهو ما كانت تستهدفه السلطة.

لقد سمعته يقول: ماذا يريد هؤلاء منّي، هل يريدون أن أتعامل مع الناس بجفاء وخشونة، هل يريدون أن لا أمنحهم حبّي، إذ كيف يمكن للأبّ أن يربّي أبناءه بقلب لا يحبّهم، أليس هؤلاء هم الذين سيحملون راية الإسلام ويدافعون عن كرامة القرآن، إذا كنّا لانسع الناس بأموالنا فلماذا لانسعهم بأخلاقنا وقلوبنا وعواطفنا؟

حقيقة العاطفة عنده:

وعلى كلّ حال أجدُ لزاماً عليّ أن أُشير إلى الملاحظات التالية فيما يتعلّق بهذا الموضوع؛ لأنّها تلقي الضوء على حقيقة عواطفه ومشاعره.

١ ـ سورة المجادلة، الآية ٢٢.
٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

١ ـ إنّ عاطفة السيّد الشهيد ﷺ وأحاسيسه صادقة بمعنى الكلمة، فهو لايعرف التصنّع والتمثيل، إذا تألّم لأحدٍ تألّم من أعماقه، وإذا أحبّ أحداً أحبّه من قلبه، ومن عاش مع السيّد الشهيد يدرك ذلك بسهولة من خلال تصرّفاته وانفعاله مع الحالة، ومن تأثير ذلك على وجهه وملامحه، وسوف نرى في طيّات هذا الكتاب ما يشهد لذلك.

٢ ـ إنّ هذه العاطفة لله، طلباً لمرضاته، وتقرّباً اليه عزّ وجلّ، وليست حالة فطريّة جُبل عليها فقط، نعم ،إنّه استطاع أن يربّيها وينمّيها حتّى يراها الرائي وكأنّه جُبِل عليها، ثمّ سخّرها لخدمة الأهداف العظيمة والمبادئ السامية، وكان يتحكّم بها بالشكل الذي تقضيه مصلحة الإسلام.

ولي على ذلك الكثير من الشواهد: فقد رأيته في مواقف مع بعض أرحامه وأعزّ الناس عليه حينما تصرّفوا تصرّفاً مباحاً لكنّه ينافي الخط الذي رسمه للمرجع والمرجعيّة، رأيته وكأنّه لم يعرف العاطفة. وإذا كان لا يحقّ لي أن اتحدّث عن الآخرين فلا ضير من أن اتحدّث عن نفسي فيما يتعلّق بهذا الموضوع.

فمثلاً في يوم من الأيام حاولت أن اشتري جهاز تكييف لأنّ والدته ـ حليفة الورع والتقوى ـ مصابة بمرض في جهازها التنفّسي، وكان الدكتور المشرف على علاجها (وهو الدكتور ضياء العبيدي) قد أخبرني بأنّ حالتها ستستمر بالتدهور إلّا إذا استبدل جهاز تبريد الغرفة المائي بجهاز تكييف غازي.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى السوق لأسأل عن سعر الجهاز كي استأذن السيد الشهيد في شرائه، ولم أكن أخبرته برأي الطبيب، وأنّ علاج والدته منحصر بهذا، ولكنّي أخبرته بأمر ذهابي إلى السوق لغرض معرفة سعر جهاز التكييف، وهنا كانت المفاجأة، لقد غضب غضباً شديداً، وتغيّرت ملامح وجهه، وأعتقد أنّي لوكنت ابنه الصلبي لضربني في تلك الساعة، ثمّ خاطبني منفعلاً بقوله:

«هل مات إحساسك؟ هل تريد أن أنعم بالهواء البارد وفي الناس من لايملك حتّى المروحة البسيطة؟ ألم تعلم بأني أُريد لهذه المرجعيّة حياة البساطة والاكتفاء بأبسط مظاهر العيش بل الضروري منه؟».

فوالله العظيم لقد أذهلتني الصدمة وأنا أرى السيّد الشهيد قد بلغ به الانفعال والغضب أشدّه وكأنّه لم يعرف للعاطفة والمحبّة محلاً في قلبه.

فقلت له: لقد ذهبت بمفردي إلى السوق ولم يعلم بذلك أحد.

فقال: الناس يعلمون أنّك معي وتصرّفك يُحسب عليَّ.

قلت: الطبيب نصح بذلك، ويمكنكم الاستفسار منه، ثمّ أخبرته بتفاصيل ما قاله الطبيب، هنا عاد (رضوان الله عليه) إلى وضعه الطبيعي، وبدأ يخفّف ممّا أحسّه في نفسي من تأثّر، وقال:

«أنا يا ولدي أُريد أن أُغيّر هذه الواقع بقولي وفعلي، وعليك أن لا تنسى هذه الحقيقة في كلّ تصرّفاتك وأعمالك في المستقبل».

وأتذكر أيضاً أنّ السلطة الظالمة حينما شنّت حملتها القاسية عام (١٩٧٤م =١٣٩٤هـ) لاعتقال الطلبة والمؤمنين، وانتهت بإعدام الشهداء الخمسة (رضوان الله عليهم)[1] والحكم بالسجن المؤبّد على عدد كبير منهم، وقد بلغ السيد الشهيد ـ قبل أن تظهر نتائج الحملة ـ أنّ المعتقلين يعانون من ضغوط كثيرة منها حرمانهم من الطعام مع ما يتعرّضون له من تعذيب شديد، فتألّم وتأثّر لذلك كثيراً، فأخذ يفكّر في طريقة تساعد المؤمنين في محنتهم، وتعينهم على الصبر والصمود، فدعاني في ظهر يوم من أيام تلك المحنة إلى مكتبته، وقال لي: لقد بلغني أنّ المؤمنين يتعرّضون إلى مجاعة مع ما يلاقون من تعذيب، وتحدّث عن ضرورة مساعدتهم

١ ـ هم المرحوم السيد عماد التبريزي، والمرحوم الشيخ عارف البصري، والمرحوم السيد عزّ الدين القبانجي، والمرحوم عبد الأمير جلوخان، والمرحوم السيد نوري طعمة.

بأيّ ثمن، وظلّ يتحدّث حتّى فهمت أنّ لديه رغبة في أن أقوم بهذه المهمة. فقلت له: أنا مستعد لذلك إن شاء الله. فقام وأتى بمبلغ في حدود اربعمائة دينار، وقال: وزّع هذا المبلغ عليهم أو وفّر لهم الطعام في السجن من دون علم السلطة بمصدر المال، وفي عصر نفس اليوم ذهبت إلى سوق النجف الكبير وهناك تمّ اعتقالي مع جماعة من الطلبة وكان المتوقّع أن أُنقل إلى بغداد، إلاّ أنّ ذلك لم يحصل بسبب امتلاء سجون مديريّة الأمن العامّة بالمعتقلين، وبعد مضي شهر تقريباً وبعد التحقيق تمّ الإفراج عنّا جميعاً بكفالة. وكنّا نحن سجناء مديريّة أمن النجف آخر من أُفرج عنهم تقريباً"[1].

أمّا في بغداد، فإنّ السلطة استقرّ رأيها على إعدام الشهداء الخمسة والحكم بالحبس المؤبّد على مجموعة أُخرى، واعتقدت السلطة بأنّ هذه الضربة ستقضي على التحرّك الإسلامي في العراق، أو تشلّه ولو لأمد من الزمن، وعلى هذا الأساس اتخذ التحقيق طابعاً آخر، فتقرّر أنّ كلّ من يعترف ـ ولو اعترافاً صوريّاً ـ بانتمائه لحزب الدعوة الإسلاميّة يفرج عنه في نفس اليوم، فوقع تحت تأثير هذا الإغراء الكثير منهم وتمّ الإفراج عنهم.

لقد علم السيّد الشهيد بذلك فتألّم كثيراً، ولكن ما عساه يفعل وقد انتهى كلّ

١ ـ من صور الفداء والتضحية أنّ المرحوم الشهيد حجّة الإسلام الشيخ عبد الأمير محسن الساعدي وهو أحد وكلاء السيد الشهيد كان معي في نفس المعتقل وكان ضابط الأمن يأخذه يوميّاً للتعذيب والتحقيق من دوننا، وبعد التحقيق يعود وقد تلقّى أنواع التعذيب ولم يكن أحد منّا يعرف سبب ذلك، إلّا أنّه كان يقول لي على سبيل المزاح: أنت السبب في كلّ هذا العذاب وأنت المسؤول عنه، ولم أكن أعرف ما يقصده بكلمته هذه حتّى كان اليوم قبل الأخير من تاريخ الإفراج عنّا إذ دعيت مرّة أخرى إلى التحقيق، فقد تبيّن لي أنّ السلطة وقعت في اشتباه بيني وبينه، فكان ؒ يُعذّب بدلاً منّي، وكان يعلم بالاشتباه ولكنّه لم يعترف لهم بالحقيقة، بل ولم يخبرني خشية أن اعترف لهم بالحقيقة. وبعد أن عُدت من التحقيق والتعذيب خاطبني بعين ترقرق بالدمع وقال: والله كان بودّي أن استمر على هذا الحال ولا يكشف أمرك، أما وقد عرفوك فالمعذرة إلى الله.

شيء، وكان (قدس سره) يظنّ أنّ الإفراج عنّي كان لنفس السبب.

علم (قدس سره) بوصولي إلى بيته، فتوقّعت منه استقبال الأب لابنه، خاصّة وأنا أعرف كريم خُلقه، وصفاء قلبه، ونقاء روحه. لم يكن ما كُنت أظن، فقد جاء وعلامات الانفعال والتأثّر ظاهرة عليه، وقال: إن كنت قد اعترفت فلا تدخل بيتي بعد اليوم، ولا تعرّض هذه المرجعيّة للخطر.

والحقيقة كانت مفاجأة كبيرة لم أكن أتوقعها، بل كانت صدمة هدّت كياني، وكدت أسقط أرضاً من وقعها، إذ لم أعلم بما جرى في مديريّة الأمن العامّة في بغداد، ولم أعلم بقصّة الاعترافات.

أكّدت له (رضوان الله عليه) بأنّي ومعظم الإخوة الذين كانوا معي في المعتقل لم نعترف بشيء، وتحمّلنا في سبيل الله حتّى اللحظة الأخيرة ألوان التعذيب، وشرحت له مسار التحقيق بأكمله، عندها تفتّحت أساريره، وطفح السرور على وجهه وقال لي: يا ولدي، إنّ اعترافك يختلف عن اعتراف الآخرين، إنّ السلطة تعرف موقعك منّي، واعترافك يحسب عليّ، ويجب علينا أن نحمي المرجعيّة ولا نعرّضها للخطر.

وكان (رضوان الله عليه) يسعى للابتعاد بالمرجعيّة عن الأُطر الحزبيّة التي كانت السلطة جادّة في تثبيتها على مرجعيّته، وإلصاقها بها تمهيداً للقضاء عليها.

وفي فترة الاحتجاز قدّم مدير أمن النجف المجرم (أبو سعد) عدّة اعترافات خطيّة للسيد الشهيد وقال له: هذه الأدلّة التي تثبت أنّ منزلك وكر لحزب الدعوة، وأنّ بعض أصحابك من أعضائه، وهذه الوثائق تكفي وحدها لإعدامك.

أقول أين ذهبت تلك العاطفة وهو يستقبلني بهذه الشدّة والحدّة وهو يرى آثار التعذيب على جسمي، أليس ذلك الانفعال كلّه من أجل مصلحة الإسلام، ومن أجل مرضاة الله سبحانه وتعالى.

٣ـ من سمات هذه العاطفة أنّها عامّة شاملة لكلّ الناس، فليست هي لأهله

وذريّته وأرحامه، ولا لطلّابه والمقرّبين منه فحسب، بل لكلّ أبناء الأمّة.

ولله أشهد بأنّني رأيت السيد الشهيد (رضوان الله عليه) في مواقف تشهد على ما أقول حيث يصبح الإنسان حائراً أمام تلك العظمة، وعند ذلك الشموخ وتبعثه إلى التساؤل عن أنّه كيف استطاع ﷺ أن يربّي نفسه إلى حدٍ يتساوى في حبّه وعاطفته تجاه ابنه الصلبي مع حبّه وعاطفته تجاه ابنه في الإسلام، بل قد يفضّل ابنه في الإسلام على ابنه الصلبي إذا كان عطاؤه للإسلام وتفانيه فيه أكثر أهميّة وموقعه في العمل الإسلامي أهم وأخطر.

فمن تلك المواقف العجيبة ما رأيته حينما صدر حكم الإعدام على الشهداء الخمسة في عام (١٩٧٤م=١٣٩٤هـ) إذ تأثّر ﷺ غاية التأثّر، كان الحزن يخيّم عليه، وكان الأسى يملأ قلبه، لا يقرّ له قرار، ولا يهدأ له حال وكأنّه قد ثُكل بأعزّ ولده، وأصيب بما يشبه الشلل. دخلت عليه في يوم من أيام حادثة إعدام الشهداء الخمسة ﷺ في حدود الساعة الثالثة بعد الظهر فوجدته يبكي والدموع تجري وكأنّه فقد أعزّ عزيز عليه، فقلت له: سيّدي إذا كنت أنت تفعل هكذا فماذا يجب أن أفعل أنا وأمثالي؟

كفكف دموعه ثمّ قال لي:

«والله لو أنّ البعثيين خيّروني بين إعدام أولادي الخمسة وبين إعدام هؤلاء لاخترت إعدام أولادي وضحّيت بهم، إنّ الإسلام بحاجة إلى هؤلاء لا إلى أولادي».

ووالله لقد كان صادقاً، لقد رأيته خلال فترة الاحتجاز يضحّي بسعادة عائلته وأولاده من أجل الإسلام، كان كلّ شيء في البيت يدعو السيد الشهيد إلى فكّ الحجز حيث والدته المريضة طريحة الفراش تشكو بأنينها مصاعب المرض وحرمانها الدواء، وبدأ الجوع تظهر آثاره على وجوه أولاده الصغار في تلك الفترة

من الاحتجاز، والجو الكئيب الملتف بالإرهاب قتل الابتسامة في وجوههم، وقد طالت المدّة وتمادت، ومع ذلك أبىٰ قبول أبسط شروط السلطة لفكّ الحجز، و قدّم مصلحة الإسلام والمرجعيّة على مصلحته الخاصّة، وسترى تفاصيل ذلك فيما بعد.

من المؤكّد أنّ السيّد الشهيد ﵀ كان يعرف موقع الشهداء الخمسة في التحرّك الإسلامي في العراق، ودورهم الخطير والكبير في خدمة الإسلام لو استمرّ بهم العمر. فمثلاً المرحوم الشيخ عارف البصري كان من كبار علماء بغداد، وفي مركز من أهمّ مراكزها وهو الكرّادة، وكان محوراً كبيراً، تغلغل في قلوب الناس وأعماقهم، وكان من المتوقّع أن يؤدّي دوراً كبيراً في بعث حركة الوعي الإسلامي في بغداد. لو امتدّ به العمر.

وقد لا يصدّق البعض إذا قلت: إنّ صلة المرحوم الشيخ عارف البصري بالسيد الشهيد كانت ضعيفة جداً، فلم يتّفق أن زار السيد الشهيد ولامرّة واحدة طيلة المدّة التي قضيتها مع السيّد الشهيد، ولم يكن من وكلائه أو المحسوبين عليه، ومع ذلك فإنّ القيم التي يتعامل على أساسها شهيدنا العظيم مع الأشخاص والمواقف أسمى بكثير من الاعتبارات الذاتيّة والملاكات الشخصيّة ذات الاتجاه العاطفي الأناني، فهو يبكي على الشيخ عارف لا على أساس صلته الشخصيّة به، بل على أساس صلته بالإسلام ودوره في مسيرة الجهاد نحو خدمة الرسالة.

وكنت خلال فترة الاحتجاز أُخبر السيّد الشهيد بإعدام أشخاص من المؤمنين ـ وكان لا يعرفهم ـ فكان يبكي ويقول :

«بأبي أنتم و أُمي أيّها السعداء جزاكم اللّه عن الإسلام، وعن أبيكم، هنيئاً لكم، لقد سبقتموني إلى لقاء اللّه».

وحينما بلغه نبأ إعدام الشهيد آية اللّه السيّد قاسم شبّر، والسيد المبرقع، وعشرات آخرين من العلماء والمؤمنين، قبض على شيبته الكريمة ورفع رأسه إلى

السماء وقال:

«إلٰهي بحقّ أجدادي الطاهرين، ألحقني بهم سريعاً، واجمع بيني وبينهم في جنّاتك».

وقد حدّثني (رضوان اللّه عليه) في فترة الحجز ـ وكنت أتحدّث معه عن إمكانيّة الفرار وإنقاذه من أيدي الظالمين ـ بأنّه مصمّم على الشهادة، وذكر الأسباب، وقال:

«حتّى لو أنّ السلطة فكّت الحجز عنّي فسوف أبقى جليس داري فليس منطقيّاً أن أدعو الناس إلى مواجهة السلطة حتّى لو كلّفهم ذلك حياتهم، ثمّ لا أكون أوّلهم سبقاً إلى الشهادة في الوقت الذي يستشهد فيه الشاب اليافع والشيخ الكبير من أمثال الشهيد المرحوم السيد قاسم شبّر الذي جاوز التسعين من عمره».

عطفه على أعدائه:

ومن العجيب أن تمتدّ هذه العاطفة حتّى إلى أعدائه، ففي فترة الحجز كانت قوات الأمن تطوّق منزل السيّد الشهيد تطويقاً تامّاً وكأنّهم ذئاب يتربّصون به ليقضوا عليه، فكانت هذه العاطفة تمتدّ حتّى إلى هؤلاء. ففي ظهر أحد ايام الاحتجاز كنت نائماً في غرفة المكتبة فاستيقظت على صوت السيد الشهيد (رضوان اللّه عليه) وهو يقول:

«لا حول ولاقوة إلّا باللّه العلي العظيم».

وظننت أنّ حدثاً مّا قد وقع، فسألته: هل حدث شي؟ فقال:

«كلاّ، بل كنت أنظر إلى هؤلاء [ويقصد قوّات الأمن] من خلال فتحة في الكسر الصغير في زجاجة النافذة فرأيتهم عطاشى يتصبّب العرق من وجوههم في هذا اليوم من أيام الصيف الحار».

فقلت: سيّدي أليس هؤلاء هم الذين يطوّقون منزلكم، ويعتقلون المؤمنين الأطهار من محبّيكم وأنصاركم، هؤلاء هم الذين روّعوا أطفالكم وحرموهم من أبسط ما يتمتّع به الأطفال ممّن هم في أعمارهم؟

فقال: «ولدي، صحيح ما تقول، ولكن يجب أن نعطف حتّى على هؤلاء إنّ هؤلاء إنّما انحرفوا لأنّهم لم يعيشوا في بيئة إسلاميّة صالحة، ولم تتوفّر لهم الأجواء المناسبة للتربية الإيمانيّة، وكم من أمثال هؤلاء شملهم الله تعالى بهدايته ورحمته، فصلحوا وأصبحوا من المؤمنين».

ثمّ نزل إلى الطابق الأرضي وأيقظ خادمه الحاج عباس وأمره أن يسقيهم الماء.

وشهد الله، لم أتمالك نفسي وأنا أراه يرقّ حتّى لهؤلاء، وتذكّرت جده الحسين عليه السلام يوم سقى الحرّ بن يزيد الرياحي وعسكره في طريق كربلاء، ويوم جلس يبكي في نهار عاشوراء وهو ينظر إلى الألوف المؤلّفة، فيُسأل ممَّ بكاؤك يابن رسول الله، فيجيبهم بأنّ بكائي لهؤلاء الذين سيدخلون النار بسببي.

فما أشبه اليوم بالبارحة، وما أشبهك بأجدادك الطاهرين يا أبا جعفر، فلقد أحييت بمواقفك مواقف أجدادك الطاهرين وجعلتنا نعيشها حيّة ماثلة في شخصك، فسلام عليك حيّاً وميتاً.

ومن العجيب أنّ هذه المشاعر الحيّة، والعواطف الصادقة أثّرت حتّى على هؤلاء الذين كانوا يطوّقون منزل السيّد الشهيد من قوّات الأمن. وأتذكّر أنّ أحدهم وكان (ضابط أمن) وكان يرأس هذه القوّات بعث رسالة شفهيّة إلى السيّد الشهيد قال فيها: «سيّدي لا تتنازل لهؤلاء الجبناء ـ يقصد حكّام البعث ـ إنّهم يرتجفون خوفاً منك، إنّ حذاءك أشرف منهم جميعاً...»».

وقد قام هذا الضابط بخدمات كبيرة خلال فترة الحجز أذكر منها القضيّة

التالية:

في فترة حجز السيّد الشهيد قسّمت السلطة البعثيّة المجرمة القوّات الخاصّة بمراقبة منزل السيّد الشهيد إلى مجموعات ثلاثة تتناوب في مراقبتها للمنزل، وكانت كلّ مجموعة مكلّفة بالمراقبة مدّة ثماني ساعات، وكان يرأس كلّ مجموعة ضابط من قوّات الأمن يتحمّل مسؤولية الإشراف المباشر على عمليّة الاحتجاز، وكان الضابط المتعاطف مع السيّد الشهيد يباشر عمله في فترة ما بعد الظهر وحتّى المساء تقريباً.

ولمّا سمحت السلطة ـ بسبب الضغوط الجماهيريّة عليها ـ لعائلة السيّد الشهيد ﷺ بالخروج من البيت لقضاء بعض حوائجهم الضروريّة كان أحد أفراد الأمن يلاحق من يخرج من البيت من اللحظات الأُولى وحتّى العودة، وكانت الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) أكثرهم تحرّكاً، فكانت تخرج في كلّ يوم تقريباً وفي ساعات محدّدة بتكليف من السيّد الشهيد، وكانت هذه المراقبة تشكّل حرجاً كبيراً لها، ولكن ما كان ذلك يثني الشهيدة بنت الهدى بطلة المهمّات الصعبة ورسولة السيد الشهيد في كلّ ما يعجز عنه الرجال، فقد أخبرته أمامي بأنّها مستعدة لتنفيذ أي مهمّة، أو أداء أيّ دور يأمر به السيد الشهيد ولو كلّفها ذلك حياتها.

ولم يكن له (رضوان الله عليه) من خيار إلاّ القبول بهذا العرض التضحوي، فقد كان بحاجة إلى معرفة الكثير من المعلومات والأُمور، ودراسة الأوضاع وما يجري على الساحة بدقّة تامّة، والشهيدة هي أفضل من يتحمّل مسؤوليّة ذلك.

وبدأت (رضوان الله عليها) بتنفيذ مسؤوليّتها الصعبة، فقد اتّفقت مع الأُخت الصالحة أُمّ فرقان [1] أن تلتقي بها في كلّ يوم تقريباً في حرم الإمام علي ﷺ

١ ـ الأخت أُمّ فرقان من المؤمنات الصالحات، ومن خواصّ الشهيدة بنت الهدى، وهي زوجة الأخ العلامة الشيخ عباس الحكيم، لها دور مهمّ أيام الاحتجاز وقبله، جزاها الله خير الجزاء.

فكانت تخرج من البيت عصراً في ساعة معيّنة فيتبعها أحد أفراد الأمن على حسب عادته أداءاً لمهمّة المراقبة الموكولة إليه، فتدخل الحرم الشريف، ويبقى رجل الأمن ينتظرها عند (الكشوان) الذي أودعت حذاءها عنده وهو يظنّ أنّ الشهيدة داخل الحرم الشريف، وحينئذٍ تتمكّن الشهيدة مع الأُخت أمّ فرقان من الخروج من إحدى الأبواب الأُخرى للحرم مستفيدة من حذاء آخر كانت قد وفّرته لها صاحبتها، وبعد أن تكمل مهمّتها تعود إلى الحرم، وتخرج من الباب الأوّل الذي يقف عنده رجل الأمن منتظراً خروج الشهيدة، وهو يعتقد أنّها لم تخرج من الحرم خلال تلك المدّة، واستمر الوضع على هذا الشكل لفترة لابأس بها.

كان ذلك الضابط قد رصد الساعة التي تخرج فيها الشهيدة في كلّ يوم، فكان قبل موعد خروجها يستدعي قوّات الأمن المحيطة بمنزل السيّد الشهيد إلى زقاق قريب منه بحجة توجيههم، أو إبلاغهم ببعض الأوامر والمعلومات بحيث يخلو الزقاق منهم، وحينئذ تتمكّن الشهيدة بنت الهدىٰ ـ رحمها الله ـ من الخروج والذهاب إلى حيث تشاء من دون رقابة أو مضايقة. ثم يكرّر نفس العمليّة تقريباً قبل عودتها، وهكذا كان يفعل في أغلب الأحيان ليعبّر عن لون من التعاطف مع السيّد الشهيد الصدر.

وكان السيد الشهيد مسروراً بذلك، وكان يقول:

«إنّ الحجز نعمة كبيرة، لقد جعل هؤلاء وأمثالهم يتعاونون معنا ونحن في هذه الظروف».

وشاء الله عزّ وجل أن يُكرم هذا الرجل بالشهادة مع عدد من قوّات الأمن الذين كانوا معه، فقد عثرت السلطة على منشورات ضدّها كان يكتبها بـالآلة الطابعة العائدة إلى مديريّة أمن النجف ويقوم بتوزيعها في أهمّ مراكز السلطة والتي

كان من شبه المستحيل أن تصل إليها يد المجاهدين.

ولمّا بلغ السيّد الشهيد خبر إعدامه مع بعض المتعاونين معه قال لي:

«انظر كيف اهتدىٰ هؤلاء، يجب أن تسع قلوبنا حتىٰ لهؤلاء».

ومهما قلنا في دراستنا لهذا الجانب من شخصيّة الإمام الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) فإنّ ما تركه لنا من وثائق، واعني بذلك مجموعة من الرسائل الشخصيّة تكشف لنا عن بعض سمات الشموخ الأخلاقي الرفيع الذي تميّزت به شخصيّته. وتكشف كذلك عن سبب اهتمامه بالجانب الروحي والعاطفي وكأنّه لم يغفل أنّ هذا الاهتمام قد يسبّب لدىٰ البعض نوعاً من التقييم الخاطئ أو الفهم غير الصحيح لشخصيّته فهو يقول في ضمن رسالة له إلى طلّابه ما نصّه:

«انّ العاطفة وحدها لاتكفي ضماناً مطلقاً لوحدة العائلة، وإنّ التبصّر وحده لايكفي ضماناً لوحدة العائلة، غير أنّ العاطفة والتبصّر معاً هما الضمان الأكيد لاستمرار مشاعر الأُبوّة والبنوّة، ومواقف الأُبوة والبنوّة...»[1]

فإذاً عمليّة التفاهم والإنسجام في إطار العمل الإسلامي، المرجعيّ وغيره يحتاج إلى بناء أُسري وإن كان الأبناء من أصقاع الأرض المختلفة، من العراق أو إيران أو باكستان أو لبنان أو غيرها من دول العالم، المهم أن توضع أُسس الأُسرة الواحدة في ضمن المسير الصحيح، وأن تقوم العلاقة على قواعد متينة، وأهمّ تلك الأُسس هو الامتزاج العاطفي والعقلي معاً لانّه يشكّل الضمان الأكيد لمشاعر الأُبوّة والبنوّة، وهي كما يشير (رضوان الله عليه) ليست غير هادفة، أو أنّ أهدافها مجرّد تأكيد الصلة الاجتماعيّة المحدودة وتقويتها وكأنّ الهدف هو إنشاء أُسرة كبيرة متحابّة ومتعاطفة ولكنّها غير هادفة ولا منتجة بل إنّ القضيّة أكبر من ذلك. إنّها قضيّة (مواقف الأُبوّة والبنوّة) موقف المرجع أو القائد من طلّابه وأُمّته، وموقف

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١٥). و سيأتي ذكر تمام نصّ هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

الطلّاب من أبيهم، والأُمّة من قائدها.

ولا أُريد أن أتعب نفسي والقارئ في كتابة هذه الانطباعات والاستدلال عليها فالرسائل الموجودة وحدها تكفي للكشف عن هذه الحقيقة بما لايدع مجالاً للشك في أنّ الهدف أكبر من مجرّد عواطف ومشاعر محدودة، أو فطرة جُبل عليها (رضوان الله عليه). إنّ هذا الفهم المحدود ـ حسب قناعتي ـ ظلم للإمام الشهيد الصدر سببه عدم الإدراك الصحيح لشخصيّته وخصائصه القياديّة.

إنّ مجموع ما تركه الإمام الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) من رسائل يعتبر تركة لاتقدّر بثمن لأنّها تعبّر بشكل وآخر عن ترجمة فريدة لشخصيّته كتبها من دون قصد، تكشف عن أبعاد شخصيّته المختلفة.

وعلى كلّ حال لابدّ من وقفة للتعرّف على سيرته الذاتيّة وما كان يتمتّع به من خصائص جعلته نموذجاً رائعاً بكلّ ما للروعة من معنىً وذلك من خلال النقاط التالية:

أخلاقه مع طلّابه وأصدقائه

من الظواهر التي تستحقّ الاهتمام أسلوبه وطريقة تعامله مع طلابه وأصدقائه تجد عاطفة مرهفة مشبّعة بالروح الإسلاميّة والهدفيّة الكبيرة، فمن خلال التمعّن في بضع رسائل كان قد بعثها لهذا أو ذاك من طلّابه تلمس بوضوح أخلاقاً محمديّة، ونفحات علويّة، أريجها يطغىٰ على القلوب والعقول فيبهرها بما في قلبه الطاهر من مشاعر صادقة وعواطف حقيقيّة.

خصائص عامّة في رسائله إلى طلّابه:

وكان المفروض ـ كما ذكرت سابقاً ـ أنّ الرسائل وحدها تكفي لتأكيد ذلك، ولازلت مقتنعاً أنّ ذلك يحقّق الغرض وهو ما قد سيشاركني به القارئ الكريم، ولكن مادام الهدف من هذا الكتاب هو توثيق حياة الإمام الشهيد الصدر كان لابدّ من إلقاء الضوء على بعض ما يتعلّق بهذا الموضوع من خلال النقاط التالية لكي يساهم في فهم أدقّ لشخصيّته (رضوان الله عليه).

١ ـ من الملاحظ أنّ السيّد الشهيد الصدر نهج في أسلوب تخاطبه مع طلّابه نهجاً خالف به الحالة المألوفة والعرف السائد بين الأُستاذ وتلامذته، فمن المعروف أنّ للمراجع عبارات محدّدة تستعمل في مكاتباتهم ومراسلاتهم، وقد لاتجد إلّا الصيغة الرسميّة المعروفة من مثل (حجة الإسلام، أو ثقة الإسلام، أو العالم الفاضل) وأمثال ذلك، وهو ليس عيباً ولست بصدد انتقاص الحالة أو نقدها لأنّ العرف الحوزوي والمرجعي قام على ذلك منذ مئات السنين، أمّا السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) ولأنّه يؤمن بضرورة إحداث تغيير شامل حتىٰ في مثل هذه الأُمور فإنّه نهج أُسلوباً جذّاباً في طريقة تعامله وفي أُسلوب تخاطبه فمع حفظ السمات العلميّة من خلال التعابير المعروفة تجد الروح الأبويّة والعاطفيّة تفوح من كلماته وتعبيراته حتىٰ يخال المرء أنّ المخاطب من أقرانه او أصدقائه وليس تلميذاً من تلامذته. وبحسب ملاحظتي فإنّ أكثر ما يعتز به طلاّبه اليوم ليس فقط تتلمذهم عليه وتعلمهم عنده من خلال مدرسته المتميّزة فقهاً وأُصولاً بل وبما رسخ في قلوبهم من حبّ له بسبب أسلوب تعامله الروحي والاخلاقي. لقد وجدت من ينتقد السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) على ذلك ويرىٰ ان في هذا الأُسلوب قدراً من الإفراط الذي لامبرّر له فإنّه قد يقلّل من الهيبة التي يفترض أن تكون محفوظة في نفوس الطلّاب تجاه أُستاذهم.

ولا أُريد أن أنتقد هولاء فيما يرون فإنّ لكل رأي مايجب له من الاحترام

إلّا أنّني أعتقد أنّ السيّد الشهيد عمل بمقتضىٰ قناعته وتكليفه في الأُسلوب والهدف، وان رؤيته هي الصحيحة إذ لابدّ من إيجاد حالة تفاعل واقعيّة، عاطفيّة ومنطقيّة تخدم الهدف الإسلامي العظيم.

٢ ـ ومن الظواهر التي نلمسها بوضوح: أنّه (رضوان الله عليه) كان يتابع باهتمام العمل الإسلامي والنشاط الديني والدراسي لطلّابه فلم تكن رسائله فارغة من غير العواطف والمشاعر، بل كانت في غاية الدقة لمسار تلك النشاطات الدينيّة. ونجد في بعضها التشجيع والحثّ لمن يواجه منهم صعوبات وعقبات اجتماعيّة وسياسيّة.

٣ ـ وتجد اهتمامه بالشؤون الشخصيّة والماديّة لهم صفة بارزة في تلك الرسائل فيخصّص لهذا راتباً شهريّاً، ولذاك مساعدة معيّنة حسب الحالة والاستطاعة الماديّة. واعتقد أنّ هذا التفقّد الأبوي قلَّ نظيره فيما أعرف من خلال تجربتي فمن المعروف أنّ الطلّاب إذا هاجروا أو هُجّروا من النجف الأشرف إلىٰ أوطانهم تنقطع صلتهم الماديّة مع المرجع على أساس أنّ الإمكانات الماديّة في أوطانهم تحقّق لهم القدر المتعارف من المعيشة إلّا أنّ السيّد الشهيد رغم أنّه (يقترض ليعيش) حسب تعبيره يلاحق طلّابه في أوضاعهم وأحوالهم الماديّة خلافاً لما هو معروف من أنّ طلّاب كلّ مرجع بمنزلة الوكلاء الذين يستحصلون الحقوق الشرعيّة لإمداده بها لتقوية نشاطاته المرجعيّة والدينيّة والعمل الإسلامي بشكل عام.

٤ ـ والنقطة الأخيرة التي نلمسها بوضوح فيما كتب هي (الهدفيّة) فهو يرىٰ أنّ طلّابه امتداد له، ليس امتداداً شخصياً بل امتداداً للفكر الجهادي والعلمي والروحي والأخلاقي. وهذا الأمر كان من أهمّ الأُمور التي حاول أن يثبّت أُسسه في نفوسهم، أي أنّه أراد ـ على ما أعتقد ـ أن لا يكون (السيّد محمد باقر الصدر)

نسخة واحدة، أو شخصاً واحداً مثّل فكراً ومنهجاً وتجديداً، وينتهي كلّ ذلك بموته، وإنّما قصد أن يمتدّ ما يحمله الصدر بعد موته من خلال طلّابه فكراً وسلوكاً فهم الأمل الذي يعزّز في النفس الثقة بأنّ المسيرة ماضية، وأنّه سيمتدّ بمدرسته، وأنّ الموت لايعني شيئاً كبيراً مادام هؤلاء يؤمنون ويعلمون بفكره الجهادي والتغييري من بعده، بعد أن بذل في سبيل تربيتهم عصارة روحه وقلبه وعقله حسب تعبيره (رضوان الله عليه).

نماذج من رسائله إلى طلّابه:

ولنقف مع بعض تلك الرسائل نستنطقها لنتعرّف على السيّد الشهيد الصدر بفكره الروحي والأخلاقي من خلال أجمل الرسائل التي حملت أرّق العبارات.

كتب (رضوان الله عليه) رسالة إلى طلّابه الذين هاجروا أو هجّرهم النظام البعثي الحاكم في العراق إلى إيران، وهي رسالة من أروع الرسائل المعبّرة التي يفوح منها عبق الإخلاص والحبّ والوفاء، ونصّ الرسالة كما يلي:

«ذي القعدة ١٣٩٢هـ[=١٩٧٢م]

بسم الله الرحمن الرحيم

أولادي وأحبّتي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أكتب هذه الكلمات أيّها الأحبّة وقد مرّ على فراق أبيكم لكم سنة كاملة تقريباً، ما كان أقساها من سنة على هذا الأب الذي جسّد فيكم آماله، وبذل في سبيل تحقيق وجودكم الأفضل عصارة روحه وقلبه وعقله جميعاً، وعاش يترقّب نموّ أولاده واشتداد سواعدهم في العلم، وتساميهم في الروح، وتكاملهم المستمرّ في الخُلق والهدي والدين، وبدأ يحسّ أنّ هولاء الأولاد البررة سوف يحقّقون ظنونه فيهم، ويمثّلون امتداده الروحي، وإذا به يفاجأ في لحظة بقدر

فرّق بينه وبين أبنائه وهو أحوج ما يكون عاطفيّاً وروحيّاً ودينيّاً إلى قربهم .

وبالرغم من مرور سنة كاملة على فراق الأب لأبنائه فلا أزال كيوم فارقتكم فيه شعوراً بالألم وشعوراً بالأمل مع شعور ثالث هو حصيلة سنة من الفراق المرير، وهو الإحساس بأنّ العائلة مهما تمزّقت مكانيّاً تظلّ عائلة بكل روابطها العائليّة الطاهرة التي تشدّ الأب إلى أبنائه، وتوحّد الأبناء في إطار أبيهم.

إنّ العاطفة وحدها لاتكفي ضماناً مطلقاً لوحدة العائلة.

وان التبصّر وحده لايكفي ضماناً لوحدة العائلة.

غير أنّ العاطفة والتبصّر معاً هما الضمان الأكيد لاستمرار مشاعر الأُبوة والبنوّة ومواقف الأُبوة والبنوّة.

رعاكم الله بعينه التي لاتنام والسلام عليكم وعلى هذا الولد الجديد الباقري الذي ابتعد عن أبيه وبنفس مشاعركم وأفراحكم وشتّى مناسباتكم والسلام على جميع الأحبّة والأعزّاء من حولكم ورحمة الله وبركاته»[١]

لقد كان السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) يرىٰ نفسه كشجرة تمتدّ أغصانها إلى الخارج وتذبل جذورها من الداخل، ويرىٰ أنّ بُعده عن طلّابه نوع من العذاب المرير الذي فقد معه كلّ لذّة، لماذا؟ لأنّه فقد الأحبّة الذين تغلّب الإيثار في نفوسهم على الأنانيّة، والشهامة على الطمع، والتضحية على الخيانة، فهم قد جسّدوا القيم والمبادئ الإسلاميّة في نفوسهم ليكونوا الثلّة الطيّبة التي ستغذّي الأجيال بنفس المبادئ والقيم.

كتب (رضوان الله عليه) رسالة إلى سماحة حجة الاسلام والمسلمين الشيخ محمّد حسن آموزكار حفظه الله رسالة جاء فيها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١٥).

ولدي العزيز أبا محمّد علي حفظك الله ورعاك وجمع شملنا بك بعد تمزيق.

السلام عليك زنة شوقي إليك وإلى الأحبّة من حولك عشت الحياة معهم لحظة لحظة، وواكبت نموّهم قطرة فقطرة، وأنفقت جُلَّ المفيد من عمري لكي أجدهم في مرحلة تالية ملأ عمري وحياتي، وملأ ناظري وعيني، ولكن قدّرت الظروف أن أُحرم من رؤيتهم في تلك المرحلة وأنا أحوج ما أكون إلى أبناء من أمثالكم، وإلى الله المشتكىٰ وهو المؤمّل الذي لاينقطع أملنا به مهما ضاق الزمان، ومنه نستمدّ العون للتغلّب على هذا التمزّق وهو وليّ التوفيق.

أرأيت يا أبا محمّد علي كيف تنمو الأشجار، وهل تصوّرت شجرة تنمو أغصانها من خارج وتمتدّ وتتّسع بينما تذبل جذورها من داخل وتتمزّق، إنّ هذه الشجرة هي أبوكم، وقد شاء الله تعالى أن يمتحنه فيمنحه كلّ ما يصبو إليه المتطلّعون ولكن في وقت لايجد فيه لذة لكي يكون شعوره القربي أكيداً وفي وقت لايجد فيه العون الكافي والظرف الشافي فيحترق من داخل بدلاً عن أن يضيئ من خارج.

أين الطيّبون تلو الطيّبون؟ أين تلكَ الوجوه المشرقة بالإيمان؟ أين تلك القلوب العامرة بالوفاء؟ أين تلك السواعد الفتيّة التي نشأت على حبّ الله؟ أين ذلك الشمل المجتمع الذي يسوده الصفاء والوفاء، ويتغلّب فيه الإيثار على الأنانيّة والشهامة على الطمع والتضحية على الخيانة.

وصلتني رسالتك العزيزة مع الشيخ العاملي وفرحت بها كثيراً وأرجوا أن لاتقطع رسائلك عن أحبتك في النجف

وها أنا أكتب هذه الرسالة ليحملها أخوكم الذي عزّ عليَّ فراقه لأنّه كان يذكّرني بك، ولأنّه كان يحمل شيئاً من روحك الوفيّة الزكيّة ومن نبلك وقلبك فنحتسب فراقه عند الله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل...»[1]

وكتب له رسالة أُخرىٰ ملأها بالكثير من العبارات الأبويّة والعاطفيّة.

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١٦١).

وأسعده ما علمه من الرسالة من تنفّسه بعد احتباس عاشه في العراق. وقد لا يعرف البعض ممن لم يعاصر أجواء النجف في السبعينات، وما اكتظت به من انواع الإرهاب والاضطهاد الذي عانىٰ منه السيّد الشهيد الصدر ومعظم طلّابه، ولست مبالغاً إن قلت: إنّ النجف كانت سجناً كبيراً له ولطلابه يُمارس فيها التعذيب الروحي والنفسي كلّ صباح ومساء، كانت ملاحقات قوات الأمن تملأ الأُفق ظلاماً وتجعل الحياة كابوساً لا يطاق، في ظلّ هذه الأجواء حينما يتنفس الانسان هواء الحرية في كنف الطبيعة الخضراء يشعر بنوع من الارتياح، وهذا الارتياح والانطلاق والسعادة وإن لم يعشها السيّد الشهيد نفسه وإنّما عاشها بعض طلّابه في خارج العراق فإنّ ذلك يجعله في غاية السرور والسعادة. يقول (رضوان الله عليه) في مقطع من رسالته وكانت بتاريخ ١٥ شعبان ١٣٩٦هـ [=١٩٧٦م] مايلي:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

ولدي العزيز وعضدي المؤمّل أبا محمّد علي لاعدمته ولا حرمته.

سلام عليك زنة شوقي إليك وغربتي ببعدك وبُعد سائر أولادي الأحباء.

وبعد: فقد تسلّمت رسالتك العزيزة بالأمس وهي لاتـزال مـنذ الأمس إلى اليوم في جيبي أقرؤها المرّة تلو المرّة، أقرأ فيها سطور البنوّة الحانية، والتلمذة الوفيّة، والصحبة التي تطفح نبلاً وحبّاً، وإنّي أسأل المولىٰ سبحانه وتعالىٰ أن يتقبّل هذه العواطف والمشاعر بأفضل ما يتقبّل من عباده المخلصين، وأن يجمع شملي بكم بعد طول فراق، يسعد هذه الأُبوّة المتصدّعة بلقاء أبنائها الأكرمين.

سرّني سفركم إلى شاهرود وعيشكم تلك الأجواء الطلقة الرائعة، وأسعدني أن يتنفّس أولادي الصعداء بعد طول احتباس...»[١]

وفي رسالة اخرىٰ كتبها الى سماحة آية الله السيّد كاظم الحائري (دام ظلّه)

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١٧١).

يشير فيها إلى نقطة أساسيّة في عُرىٰ هذه العلاقات. تلك هي الامتداد العلمي، فهو حين يتذكّر السيّد الحائري يتذكّره ليس فقط على أساس العاطفة المجرّدة بل العاطفة المختلطة بمجالس العلم والبحث، ومعاناة اكتشاف الأُسس المنطقيّة للاستقراء وبحث المفاهيم وغير ذلك جاء في هذه الرسالة:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

عزيزي المعظّم أبا جواد رعاه الله بعينه وحرسه بلطفه وأقرّ عيني به.

السلام عليك بقدر الشوق إليك وإلى سائر الأحبّة من أولادي البررة الذين قُدّر أن أُفارق الكثير منهم الواحد تلو الآخر والحمد لله تعالى على عظيم ابتلائه ولاحول ولاقوة إلّا بالله العلي العظيم.

تسلّمت رسالتكم العزيزة المؤرّخة بالثالث أو الثاني من شعبان وعشت مع تلك السطور ساعة من الزمن استعرضت فيها من الذكريات ما لا يطفأ نوره في قلبي ولايخمد توهّجه في نفسي، ولا يزيده مرور الأيام إلّا رسوخاً وعمقاً، ولئن كنت تقول بأنّ عمرك كأنّه انتهىٰ بخروجك من النجف الأشرف فماذا يقول أب تمزّق قلبه، وتناثرت أجزاؤه هنا وهناك. لكنّ الصبر والأُمل هما طريق الحياة والحمدلله على كلّ حال، والحمد لله على أن جمعنا في تفرقنا، ووحّد بين قلوبنا في تشتّتنا وهو المسؤول عزّ وجل أن يرعىٰ هذه القلوب المفجوعة ويجمع شتاتها على أفضل حال إنّه أرحم الراحمين.

أكتب إليكم هذه السطور وأنا على أبواب توديع ولد جديد من أولادي، وعزيز من أعزائي عشت معه حياة فوجدته آية في الوفاء والحب والنبل والإخلاص والله المستعان على ذلك كلّه.

تطالبني بالرسالة كصدقة على الأموات ولكنّك لست ميّتاً بل أنت حيّ في قلبي، حيّ في ذكرياتي وفي آمالي، وأرجو أن تمتدّ بحياتك وحياة بقيّة أولادي البررة حياتي، وإنّي أجدك في كلّ شيء مهمّ حولي، أجدك في الأُسس المنطقيّة للاستقراء حين عشنا معاناة اكتشافها، وأجدك في المفاهيم حين كنت تلاحقني

ليلاً ونهاراً بالإشكال تلو الإشكال والسؤال تلو السؤال، وأجدك في تلك الساعات الطوال التي كنّا نقضيها نتذاكر ونتحدّث إنّي أجدك في كلّ شيّ، وأفتقدك في كلّ شيئ...»[١]

ومن الغريب أن يتعاظم الحبّ والحنان ليشكّل صورة شعريّة طالما تغنّىٰ الشعراء بها :

وما حبّ الديار شغفن قلبي   ولكن حبّ من سكن الديارا

وإذا كانت الديار والأطلال تشكّل جزءً من الذكرىٰ فإنّ مقبرة آل ياسين[٢] هذه المقبرة الصغيرة التي كانت لفترة من الزمن المكان الذي يدرّس ويلقي محاضراته فيه كانت هي الدار التي تذكّره بطلّابه وأعزاءه ممن وجد فيهم النبل والشهامة والوفاء ففي رسالة منه إلى سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد نور الدين الإشكوري ـ حفظه الله ـ والذي كان يعتزّ به سيّدنا الشهيد اعتزازاً كبيراً، فقد كان طاقة كبيرة في خدمة الإسلام والمسلمين في الكاظميّة والكفل والحلّة وغيرها من مدن العراق فضلاً عن بعض المدن الإيرانيّة بعد هجرته إلى إيران. هذا الأمر يجعل السيّد الشهيد ﷺ يلوذ بالمقبرة ليجعل من الذكرىٰ حالة أقرب إلى المعايشة الفعليّة. يقول (رضوان الله عليه) في رسالته:

«بسم الله الرحمن الرحيم

ولدي المعظّم وعضدي الصفي الوفي أبا محمّد لاعدمتكم ولاحرمتكم سنداً وأملاً.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١٨).

٢ ـ مقبرة آل ياسين تقع قرب حرم الامام علي ﷺ هدمها النظام الحاكم اخيراً. حالها حال مئات الآثار والاماكن المقدسة في النجف الاشرف في حملة شرسة ظاهرها إعمار مدينة النجف ووافعها الانتقام والحقد الأسود.

أكتب إليكم هذه السطور وأنا أرجو أن تصلكم وأنتم في أفضل الصحّة والعافية مع كلّ من يتعلّق بكم، وأن يكون السيّد الوالد والسيّدة الوالدة مدّ الله في عمرهما قد ارتاحا من عناء السفر وسعدا بلقاء احبتهما بعد طول فراق.

كنت فترة طويلة من الزمن أعيش أمل الاجتماع بكم وذلك منذ كتب السيّد الحائري يبشّر باحتمال توفقكم للزيارة، ولاتسأل عن أب يتلهّف على ورود أحد أعزاء أبنائه الكبار ساعةً بعد ساعة، ولكن مرّت الأيّام وخاب الأمل وجاء التفسير بعد ذلك على يد العزيز المعظّم السيّد الأفكاري وعلى أيّ حال فالأمل بالله تعالى وبعظيم لطفه ينير في قلبي دائماً احتمال أن يجتمع شملي بك يا ولدي الذي مثّل في حياته معي كلّ ما تجسّده البنوّة البارّة من صلاح وبرّ وحبّ ووفاء، ويا ولدي الذي أحس يوماً بعد يوم بمزيد الاحتياج إلى قربه وعونه كلّما اتسع وضع أبيك وتنوّعت المسؤوليات...

وقد ضاق صدري قبل يومين ـ وكثيراً ما يضيق صدري ـ ففزعت إلى المقبرة، إي وعينك يا ولدي العزيز فزعت إلى المقبرة لاستقرأها واستنطقها، وأخذت الذكريات تمرّ من أمام عيني كالسيل، وكان نجمك يلمع مع كلّ ذكرىٰ، كان موضعك هنا، كان موضع ذاك العزيز هناك، ماكان أسعدها من حياة، حياة الأب مع أبنائه المخلصين، حياة كلّها لقاء وعطاء ووفاء...»[١]

وكما أكدتُ سابقاً من أنّ عاطفة السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) تستند في توهّجها إلى مقدار قناعته بهذا الشخص أو ذاك على أساس موقعه وعطائه في المسيرة الجهاديّة والثقافيّة الإسلاميّة وليس للعاطفة ذاتها، تتجلّىٰ هذه الرؤية من خلال رسالة اُخرىٰ إلى سماحة السيد نور الدين الإشكوري يقول فيها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

١ ـ راجع الوثيقة رقم (١٩١).

عزيزي المعظّم وولدي المبجّل أبا محمد لاعدمتكم ولا حرمتكم، وبنفس أبيكم روحكم الكبيرة وما تتحمّل باستمرار من عناء في سبيل الله تعالى وما تمارسه دائماً من عطاء، عطاء القلب الكبير، وعطاء الهدف الطاهر، وعطاء الطموح الذي لا يعرف الملل ولا الكلل، لأنّه الطموح المدعم بإيمان راسخ بالله تعالى، والمسند برؤية واضحة لقيمة الإنسان على الأرض، وأنّها قيمة يستمدّها من دوره في الخلافة وحمل الأمانة، ولما أعدّه الله تعالى من جنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للأُمناء المتّقين.

فلتهنّأ يا ولدي ولتكن قرير العين مطمئنّ النفس واثقاً بأنّ لله تعالىٰ ألطافاً خفيّة بك إذ قدّر بعظيم لطفه بهذا العبد الصالح أن يجعلك في مواضع عديدة وأماكن مختلفة فتؤدّي في كلّ واحد منها تجاربك، وتواجه امتحانك وتخرج من التجربة ناصع الجبين، وتتلقّىٰ الابتلاء بقلب مطمئن وتجتازه باستمرار وأنت أعظم رصيداً، وأقوىٰ نفساً، وأكثر همّة، وأوسع أُفقاً.

ولتقرّ عيني بهذا الولد الكبير الذي أعيش آلامه غير أني أعيشها باعتزاز لأنّها أشرف الآلام، وأُواكب وضعه وهو يزداد تألقاً كلّما أضاف مجداً إلى أمجاده السابقة في امتحانات الله تعالى له.

كنت أحرص على الاطلاع على أحوالكم الشخصيّة والعائليّة، واستقراركم ووضعكم في المنفىٰ الجديد، وقد حصلت على بعض المعلومات، وسرّني أنّ أهالي المنفىٰ نفسهم وقعوا تحت تأثير تلك الشخصيّة الجاذبة بإيمانها وروحها الكبيرة، وأُقيمت صلاة الجماعة هناك تأكيداً للاستمرار في ذكر الله وخدمة الله...»[1]

وحين يقول (رضوان الله عليه) (كنت أحرص على الاطلاع على أحوالكم الشخصيّة والعائليّة واستقراركم ووضعكم...) فإنّه يعني ما يقول تماماً وليس من

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٢٠).

باب المجاملة الروتينيّة المتعارفة، فهو (رضوان الله عليه) يكلّف زوجته المكرّمة عند زيارتها لإيران أن تذهب إلى حيث يسكن السيّد الإشكوري لتتفقّد أحواله وأحوال عائلته الكريمة. فقد جاء في رسالة أُخرىٰ له بهذا الشأن:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

عزيزي المعظّم وركني الصفي الزكي الوفي السيّد الإشكوري حفظه الله تعالى ورعاه بعينه التي لاتنام.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد فإني أكتب إليك هذه السطور أيّها العزيز ولاتزال لوعة الفراق ملأ نفس أبيك، ولا تزال تلك الساعة التي ودّعتني فيها في يوم الخميس فكانت آخر لقائنا لاتزال تلك الساعة شاخصة في ذكرياتي. ولم أكن أحسب وقتئذٍ أن تلك الساعة يعقبها هذا الفراق الطويل وهذا العناء المرير ولكنّا نحمد الله تعالى ونشكره على أيّ حال، ونسأله أن يجمع الشمل ويسبغ علينا جميعاً ماعوّدنا من لطفه وسكينته وبركاته.

بمناسبة سفر العائلة إلى قم كلّفتها أن تسافر شخصيّاً إلى حيث تسكنون ليتاح لها الاطلاع المباشر على صحتكم وعافيتكم وترجع إليّ بنفحات من أخباركم حرسكم الله ورعاكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الصدر»[1]

ويكتب رسالة إلى المرحوم الفقيد السيد عبد الغني الأردبيلي ﴿ رسالة يُغني التمعّن بها عن كلّ بيان لأنّها فضلاً عمّا احتوت من عبارات طافحة بالحبّ والعاطفة تعبّر في الوقت نفسه عمّا كان يعقده (رضوان الله عليه) من آمال مستقبليّة على طلابه، فهم تاريخه بما يعني ذلك من معنىً كبير، لابل هم نفسه واوصاله التي تشتت هنا وهناك. ونلاحظ أنّ هذه الرسالة لم تكن جوابيّة بل كانت بمناسبة أنّ

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٢١).

المرحوم السيّد عبد الغني الأردبيلي كان قد بعث برسالة لي وللأخ السيّد المهري وقد رأىٰ السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) خطّه فأثار في نفسه ما فيها من عـواطـف ومشاعر صادقة تجاه هذا التلميذ الوفي رحمه الله رحمة واسعة فبعث له رسالة ابتداءً يقول له فيها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

عزيزي وولدي الغني روحاً وقلباً وشهامة ونبلاً ووفاءً، بنفسي أنت وبـنفسي بنوّتك المشتقّة من إيمانك، وبعين الله أبوّتي المفجوعة بفراق أبناءها وأحبّتها.

أكتب إليك هذه السطور على أثر رؤيتي قبل بضع ساعات رسالتك للشيخ النعماني والسيّد المهري، ولاتدري ماذا فعل بقلب أبيك رؤية خطك والاقتراب من أنفاسك وهي تقطر حبّاً ووفاءً، وتجسّد إيماناً وولاءً، قرأت سطورك مراراً وتكراراً استزيدها، وابتهلت إلى المولى سبحانه وتـعالىٰ أن يـرعاك ويـرعىٰ سائر أولادي بعين لطفه.

ولتكن مطمئناً يا أبا محمد أنّك لم تفارقني؛ لأنّكَ معي، مع آمالي وآلامي، مع ذكريات الماضي وغصّة الحاضر وتطلّعات المستقبل، مع كلّ ما حولي لأنّ كلّ ما في نفسي وكلّ ما حولي يذكّرني بك ويحدّثني عنك ويشير إليك، يشير إلى ذلك الوفاء، والصفاء إلى تلك الرجولة الكريمة، إلى تلك الشهامة الفريدة، إلى تلك البنوّة النابعة من أعمق مشاعر الإيمان.

وبالأمس يا أبا محمّد ودّعت ولداً آخر من أولادي وشـمعة أُخـرىٰ مـن شموع هذا البيت وهو أُبو محمد علي الذي اتجه نحوكم، أرجو أن يـجد فـي إخوانه ما يجمع شمله ويزيل غربته.

إنّ جُلّي قد أصبح لديكم، وإنّ قسطاً كبيراً من تآريخي هو أنتم يا أبـنائي المسافرين سـابقاً ولاحـقاً، وهـذا التـاريخ أمـانة بـيدكم وأنـتم أهـل لحـفظ الأمانة»[1]

وإذا كان الكتاب لايسع الحديث عن مواقف جميع طلابه وخصائصهم

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٢٢).

ورؤية السيّد الشهيد الصدر لهم وما كان يعتقده بهم أجد أن من الوفاء من جانب وممّا يشهد به ما بأيدينا من وثائق من جانب آخر ان اتحدث عن المرحوم السيّد عبد الغني الأردبيلي ﷺ في إطار التأكيد على أنّ العاطفة التي اتسمت بها شخصيّة الإمام الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) كانت تقوم على أُسس قويمة عمادها مبادئ الإسلام وقيمه وعقيدته.

لقد كان المرحوم السيّد عبد الغني الأردبيلي ﷺ من خيرة الأصدقاء الذين عرفتهم في حياتي في إيمانه وتقواه وتفانيه في العمل في سبيل الله عزّ وجل، كان صفاء قلبه وطيبة سريرته ونقاء روحه يطغىٰ على كلّ شئ فيه فلا يجد الإنسان نفسه إلّا مجذوباً له ومعجباً به.

وكان ﷺ صاحب مواقف شجاعة وهو كما يقول عنه السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) (...يشير إلى ذلك الوفاء والصفاء إلى تلك الرجولة الكريمة إلى تلك الشهامة الفريدة...) فإنّه يقصد بذلك موقف المرحوم السيّد عبد الغني يوم اعتقال السيّد الشهيد في عام (١٣٩٢هـ=١٩٧٢م) فقد أصرّ على البقاء مع السيّد الشهيد في ردهة الاعتقال في المستشفى رغم منع قوّات الأمن له ـ في زمن المجرم ناظم گزار مدير الأمن العام آنذاك ـ وما كان يشكّل عناده وإصراره على البقاء من أخطار كبيرة على حياته، ولم يكن كلّ أحدٍ مستعداً على اتخاذ هذا الموقف الشجاع في ظلّ تلك الظروف الإرهابيّة الخانقة.

ولم يكن السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) ممّن يتجاهل أصحاب المواقف لابل لم يكن ممّن ينسىٰ تلك المواقف بمرور الزمن وتعاقب الليالي والأيّام، ويبقىٰ هذا التلميذ المخلص حيّاً في قلب وروح أُستاذه وإن بُعدت الشقة أو فرّق الموت بينهما.

وفي رسالة له إلى سماحة حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم

المشكيني يقيّم لنا الإمام الشهيد الصدر تلميذه المرحوم السيّد عبد الغني الأردبيلي فيقول:

إنّ النفحات الروحيّة التي وجدتها في رسالتكم العزيزة كان لها أعمق الأثر في نفسي خصوصاً بعض ماذكرتم عن فقيدنا الغالي وولدنا البار السيّد عبد الغني الأردبيلي الذي هدّ ظهري فقده، ومزّق قلبي موته، وعلم الله أنّه كان مثالاً من أمثلة التقوىٰ والصلاح والشهامة، عاشرني معاشرة الإبن لأبيه قرابة عشرين عاماً فما وجدت له زلة شرعيّة، وما رأيته يوماً غضب لنفسه ولكن طالما رأيته يغضب لله فعند الله نحتسبه»[1]

ومن خلال هذا المقطع الذي هو بمنزلة الشهادة يعرف القارئ الكريم التقييم الموضوعي القائم على أساس الموازين الشرعيّة إذ أنّ السيّد الشهيد لم يجد لتلميذه زلة شرعيّة، ولا غضب هذا المؤمن يوماً لنفسه ولكنّه طالما كان يغضب لله تعالىٰ.

وهذا هو سر العلاقة والرابطة العميقة لأنّه تحابب في الله، وفي سبيل الله وليس عاطفة بحتة.

وكلفتة وفاء من الأُستاذ لتلميذه أهدىٰ ثواب كتابه (دروس في علم الاصول) الذي كان مشغولاً بتأليفه عندما بلغه خبر وفاة المرحوم السيّد عبد الغني الأردبيلي في حادث سيارة وقع له في إيران، فكتب (رضوان الله عليه) في مقدمة الجزء الأوّل ما يلي:

«يا إلهي وربّي، يا عالماً بضرّي وفاقتي، يا موضع أملي ومنتهىٰ رغبتي، أي ربّ وتقرّباً إليك بذلت هذا الجهد المتواضع في كتابة الحلقات الثلاث لتكون عوناً للسائرين في طريق دراسة شريعتك، والمتفقّهين في دينك، فإن

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٢٣).

وسعته برحمتك وقبولك ـ وأنت الذي وسعت رحمتك كلّ شيْ ـ فإنّي أتـوسّل إليك يا خير من دعاه داعٍ، وأفضل من رجاه راجٍ، أن توصل ثواب ذلك هدية منّي إلى ولدي البارّ وابني العزيز السيّد عبد الغني الأردبيلي الذي فُجعت به وأنا على وشك الانتهاء من كتابة هذه الحلقات. فلقد كان له ـ قدّس الله روحه الطاهرة ـ الدور البليغ في حثي على كتابتها وإخراجها في أسرع وقت ،وكانت نفسه الكبيرة وشبابه الطاهر الذي لم يعرف مللاً ولا كللاً في خدمة الله والحق، الطاقة التي أمدّتني ـ وأنا في شبه شيخوخة متهدّمة الجوانب ـ بالعزيمة على أن أُنجز جلَّ هذه الحلقات في شهرين من الزمن. وكان يحثّني باستمرار عـلى الإسراع لكي يدشّن تدريسها في حوزته الفتيّة التي أنشأها بنفسه وغذّاها من روحه من مواطن آبائه الكرام، وخطّط لكي تكون حوزة نموذجيّة في دراستها وكلّ جوانبها الخلقيّة والروحيّة.

ولكنّك ياربِّ دعوته فجأة إليك فاستجاب طائعاً، ووالله ما عـرفته خـلال العشرين عاماً التي تتلمذ عليَّ وترعرع إلى جانبي إلّا سريعاً إلى إجابتك. نشطاً في طاعتك، لايتردّد ولايلين ولا يتلكأ، ووالله ما رأيته طيلة هذه المدّة غضب لنفسه، وما أكثر ما رأيته يغضب لك، وينسىٰ ذاته من أجلك.

أي ربِّ إنّي إذا كنت قد عجزت عن مكـافأة هـذا الولد البـار الذي كـان بالنسبة لي، وبالنسبة إلى أبيه معاً مثالاً للولد المخلص الذي لايتردّد في الطاعة والتضحية والفداء، وإذا كنت قد فجعتنا به وأنا فـي قـمّة الاعـتزاز بـه وبـما تجسّدت فيه من عناصر النبل والشهامة والوفاء والإيثار وما تكاملت فيه من خصال التقوىٰ والفضل والإيمان.

وإذاكان القدر الذي لارادّ له قد أطفأ أملي في أن أمتدّ بعد وفاتي، وأعيش في قلوب بارّة كقلبه، وفي حياة نابضة بالخير كحياته فإنّي أتوسّل إليك ياربّي بعد حمدك في كلّ يسر وعسر أن تتلقّاه بعظيم لطفك، وتحشره مع الصديقين من عبادك الصالحين وحَسُنَ أُولئك رفيقا، وأن لاتحرمني من رؤيته بعد وفاته

ووفاتي بعد أن حرمت من ذلك في حياته ،وأرجو أن لايكون انتظاري طويلاً للاجتماع به في مستقرّ رحمتك، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين»[١]

جاذبيّته الفريدة:

ولم يكن تعلّقنا بالإمام الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) عاطفيّاً بحتاً، ولم يكن ارتباطنا به مصلحيّاً ذلك أنّ الشهيد الصدر جمع في شخصيّته من عناصر الجذب ما لم أجده في غيره. و إنّني اعتقد ـ بحسب تجربتي وتجربة بعض الإخوة الذين عايشوا السيد الشهيد ـ أنّ الإنسان كلّما انشدَّ إليه، ازداد حبّاً له وتعلّقاً به، وكلّما طالت مدّة التعايش معه توطّدت العلائق؛ وذلك لما يجد فيه من جميل الخصال، ومكارم الأخلاق، وطهارة السريرة.

لقد جمع الشهيد الصدر من الصفات والخصال ماجعل حالة الجذب فيه عامّة يتأثّر به البعض لما يجد فيه من إبداع وعمق علمي، وقد يتأثّر آخرون بما تتمتّع به أبحاثه من عمق ومنهجيّة ودقة منقطعة النظير، ويتأثّر البعض بما يجد فيه من خُلق محمّدي، أو ترابيّة علويّة وهكذا.

ولنا أن نفهم الظرف الذي حدث فيه ذلك الانجذاب والعلاقة، إذ من خلاله نستطيع أن نقيّم تلك العلاقة، هل هي عاطفيّة بحتة، أم أنّها قائمة على أُسس مبدأيّة.

لقد انبثق فجر عبقريّة الشهيد الصدر ﴿ في أظلم فترة من تاريخ العراق وأقساها، في زمن تسلّط فيه ما يسمّى بحزب البعث العربي الاشتراكي، مع ثلّة من الحكّام المتخلّفين أخلاقيّاً ونفسيّاً وحضاريّاً، فكان الإرهاب والقسوة والعنف في

١ ـ دروس في علم الاصول الحلقة الاولى. تحت عنوان (إهداء).

التعامل مع كلّ ظاهرة حضاريّة وعلميّة منهجهم الثابت وطريقتهم المُثلى.

حاول هؤلاء تمزيق كلّ القيم في العراق، وأرادوا اجتثاث ماتعوّد عليه أبناء هذا الشعب من طيبة ومحبّة وصدق وكرم، فكان لهم في كلّ يوم صولة على هذا الجانب أو ذاك. يهدمون بمعاولهم الصليبيّة تلك القيم متستّرين بشعارات مفضوحة، فبنوا السجون ونصبوا المشانق، واستوردوا أخطر وسائل التعذيب وأضافوها إلى ما عندهم من وسائل إرهاب وتنكيل، يكمّون بها أفواه أبناء العراق، أو يزهقون بها أرواحهم.

وكان منهجهم هذا عاماً، لكلّ العراقيين باستثناء ثلّة ماثلتهم في سوء الخلق وخبث السريرة، وكان للنجف لما تشير إليه من معنى، وللشهيد الصدر ﷺ لما يمثّله من فكر وعقيدة السهم الأوفر من الإرهاب والتنكيل.

ما أقسى وأشد هذه المحنة، لقد امتلأت قلوبهم حقداً عليه، وتطايرت نفوسهم شرراً للتنكيل به، فكانت منظّماتهم الإرهابيّة (مديريات الأمن والمخابرات العامّة ومنظمة حزب البعث) له بالمرصاد، تعدّ أنفاسه في الليل والنهار حتّى يبدو للناظر أن لاهمّ للسلطة إلّا هذا الرجل المجرّد من كلّ سلاح وقوّة، إلّا الايمان وسلاح الفكر والعلم والمعرفة.

وصار واضحاً للجميع أنّ إقامة علاقة بالشهيد الصدر تعني حكم الإنسان على نفسه بالإعدام، أو السجن، أو التشريد، فبالأمس سقط السيد عماد شهيداً وهو من طلابه، وبالأمس سقط القبنجي شهيداً وهو من طلابه. وما أكثر الطلبة والعلماء والمؤمنين الذين اعتُقلوا أو سُجنوا بسبب علاقتهم به حتّى وصل الأمر إليه، فكان هو المرجع الوحيد في تاريخ النجف الذي يُعتقل عدّة مرّات، ثمّ يُحتجز ويُعدم.

لم تكن العلاقة بالشهيد الصدر في كلّ مراحل حياته المرجعيّة، وخاصّة في

السنوات الأخيرة من عمره الشريف تعني الرفاه والدعة، أو الأمن والأمان، يشهد لذلك كلّ من عاصره، أو عاش بقربه، وخاصّة طلابه والمقرّبين منه.

ولازلت أتذكر تلك الأجواء الرهيبة التي تخيّم على المرتبطين بالشهيد الصدر والمقرّبين منه، ومطاردة قوّات الإرهاب (الأمن) لهم في المساجد والمدارس والأزقّة والأماكن العامّة والخاصّة، ولازلت أتذكّر ذلك العالم الجليل الذي التقى بي صدفة في زقاق قريب من مسجد الجواهري في النجف الأشرف عام (١٩٧٥م) تقريباً فأخذني جانباً بعد أن التفت يميناً وشمالاً ليطمئنّ إلى عدم وجود رقيب للسلطة، فقال لي: إنّك تلعب بالنار، هل تعلم إنّ حياتك في خطر، إنّك مراقب من قِبل الأمن، قلّل من ذهابك إلى منزل السيد الصدر.

وهذا الرجل كان مخلصاً في نصحه لي، فأنا أعرفه حقّ المعرفة، إلّا أنّه لم يكن يدرك من الأمور إلّا أبعادها المادّيّة فقط، فلست أجهل أخلاقيّة السلطة ونقمتها وغضبها، وكنت أعلم أنّ العاقبة المادّيّة لهذا الطريق لاتصبّ في مصلحتي، فمن المحتمل أن أُعتقل وأُعدم في أيّ لحظة، ومع ذلك كنت أشعر أنّ المسؤولية الشرعيّة تُحتّم عليّ أن أواصل المسيرة مهما كانت النتيجة، ومهما كان الثمن، ولأنّي كنت أرى الصدر يجسّد قيم علي ﷺ وإخلاصه، وفنائه في الله، وزهده وتقشّفه وتفانيه في الإسلام فكنت أقول لنفسي: إنّ التراجع خيانة، وخاصّة في هذه الظروف القاسية والعصيبة.

كان هذا التفكير يُطَمئِن قلبي ويُريح مشاعري وأحسّ بالاطمئنان أكثر وأكثر حينما أرى السيد الشهيد ﷺ يصارع تلك المحن والمصائب صراع الأنبياء لها، فكان لايخشى ولايخاف، حتّى توّج صراعه هذا بالعاقبة الحسنة فاختار الشهادة راضياً (رضوان الله عليه).

أقول: إنّ هذه الظروف تجعل من غير المنطقي ـ بحسب الموازين المادّيّة ـ

أن يربط الإنسان حياته بحياة من هو في نظر السلطة الشرسة عدوها اللدود، وهو يعلم أنّ المشانق تنتظره والسجون والمعتقلات أسهل عقوبة إن نجى من غيرها، فهل يا ترى يمكن أن نفسّر ـ على ضوء ذلك ـ هذا التعلّق الشديد بالسيّد الشهيد ﵀ والارتباط به على أنّه تعلّق عاطفي أو مصلحي؟

نماذج من رسائله إلى أصدقائه وأقرانه:

ولو تركنا الحديث عن طلّابه وعلاقته بهم، وعلاقتهم به جانباً وتطرّقنا إلى موضوع مشابه وهو طريقة تعامله وأسلوب تخاطبه مع شخصيّات وعلماء هم أصدقائه أو أقرانه فإنّنا نجد نفس الروح ونفس المنطق يسود طريقته في التعامل وأسلوبه في التخاطب فمثلاً في رسالة له إلى المرحوم الشيخ محمد تقي الجعفري وهو من كبار علماء إيران ومن فلاسفتها المخضرمين يقول في مقطع منها:

«واني إذ أشكر اهتمامكم وعنايتكم الشريفة بكتاب اقتصادنا أودّ أن أذكر للأخ الفاضل عبد العلي أنّه كيف يتوقّف على إجازتي بعد صدور الإجازة التكوينيّة من سماحتكم بتفضّلكم بالإشراف على الترجمة، وأُحبّ أن يعرف دام عزّه أنّ إجازتكم هي إجازتي، وإرادتكم هي إرادتي، وقبولكم ورضاكم هو قبولي ورضاي، فلا داعي لأن يتوقّف بعد رضاكم أيّها الأخ المفدّىٰ عن الترجمة فله أن ينشر ترجمته للكتاب...»[١]

فهكذا ترىٰ هذا الخلق المحمّدي يخاطب المرحوم الحجة الشيخ محمد تقي الجعفري ﵀ يقول له (كيف يتوقف علىٰ إجازتي بعد صدور الإجازة التكوينيّة من سماحتكم) ويخاطبه بـ (أيّها الأخ المفدّىٰ).

وبنفس الروح السامية والأخلاق الرفيعة يكتب إلى سماحة السيّد حسين

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٢٤).

صفي الدين رسالة معبّرة تكشف لنا عن روحيّة السيّد الشهيد الصدر وما كان يتمتّع به من خلق عظيم وشمائل عالية، يقول في رسالته:

«وبعد فأنت ماثل الآن أمامي وأنا أكتب هذه السطور تحوطك هالة من الذكريات العظيمة التي تملأ جوانح قلبي وتخفق مع خفقات فؤادي وتجري في عروقي ودمائي لأنّها ذكرياتك أيّها الأخ العزيز وبقاياك في روحي، وما أعظم بقاياك في روحي، فإنّك تركت فيها قلباً يخفق بحبك، وعاطفة أخويّة تتأجّج لفراقك، وعقيدة مخلصة بأنّك من ذلك النمط الرفيع من الناس الذين لاتشغلهم الدنيا عن قلبهم، ولامشاكل الحياة عن حياة العاطفة الصحيحة الصادقة.

وبنفسي عواطفك وروحك وقلبك الذي فتحته أنت لي فكان أروع في نفسي من كنوز الدنيا مجتمعة لو فتحت أمامي لأنّي وجدت في هذا القلب العلوي (الصفي) الذي فتح لي ذراعيه قد خلته آمناً مطمئنّاً وأقمت فيه سعيداً هانئاً، وجدت فيه من معارف الروح والعاطفة والحبّ والوفاء ما يرتفع ويسمو على الدنيا وكنوزها جميعاً...

ماذا أذكر من هذه الصور ومن أمثالها وهي كثير وكلّها حبيب إلى قلبي قريب من نفسي بل نافذ إلى أعماقها غير أنّ هناك صورة أو ذكرى تفوق هذه الصور والذكريات كلّها

إنّها الصورة التي لاتبارح خيالي أبداً

إنّها الصورة التي هزّتني وكهربتني

إنّها الصورة التي ملأتني اعتزازاً بك وحبّاً لك.

أتعلم يا أبا عماد ما هي هذه الصورة

إنّها صورتك في لحظة الوداع والسيّارة تنتزعني من أيديكم انتزاعاً، وتضع حدّاً فاصلاً للجنّة التي عشناها جميعاً على صعيد لبنان.

إنّها صورتك وأنت تودّعني في تلك اللحظة فتعبّر في ملامحك وجوارحك عن آيات صادقة في الحبّ والعاطفة.

إنّها صورتك وأنت تودّعني بدموعك، ويا بنفسي هذه الدموع التي إن لم تسمح لي السيارة بأن أمسحها بكفي فقد قفز لها قلبي من بين ضلوعي وكاد أن يطير إليها ليلثم تلك العبرات ويرتوي بعذوبتها، أو يحترق بحرارتها...

إنّي لا أنسىٰ ولن أنسىٰ يا أبا عماد ذلك المنظر العظيم الذي ما تذكّرته بعد ذلك في سفرتي إلّا استعبرت وكدت أبكي وحين كنت أُحدّث إخواني وصحبي في العراق كنت أقول لهم ـ وهم الذين يعزّونني أكثر من أي شيْ آخر ـ: إنّ أباعماد وصل في حبّه ووفائه لي خلال عدّة أسابيع ما لم تصلوه إلّا خلال سنوات...»[١]

ويكتب كذلك إلى سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ إبراهيم المشكيني رسالة معبّرة ـ رغم قصرها ـ عن تفهم حقيقي للمشاعر والهموم والتطلّعات يقول في مقطع من رسالته:

«وبعد فقد تسلّمت رسالتكم الكريمة بالأمس وقرأتها مراراً لأنّي كنت أقرأ بين سطورها روحكم الكبيرة وشمائلكم العالية، وكم حزّ في نفسي هذا الحنين العظيم الذي يحمله قلبكم نحو النجف والتشرّف بعتبات الأئمة الأطهار ولكم في قلوب محبيكم وعارفي مقامكم مثله، فلإن غبتم شخصاً عنّا فإنّكم في قلوبنا ومع ذكرياتنا حتى يمنّ الله تعالى باللقاء في جوار قبر مولانا سيّد الموحدين وأمير المؤمنين عليه‌السلام...»[٢]

وما قدّمناه نماذج محدودة أردنا التعبير بها عن هذا الجانب في شخصيّة الإمام الشهيد الصدر وستجد ـ أيّها القارئ الكريم ـ نماذج أُخرىٰ في ملحقات الكتاب ستساعد على فهم أشمل، وتجلّي الصورة بشكل أكبر.

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٢٥).

٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٢٣) وهي التي مضى ذكر مقطع منها سابقاً.

نموذج من مواقفه الحازمة:

ونجد إلى جانب هذا كلّه المواقف الحازمة التي لا تقبل المجاملة والتساهل، لأنّها متعلقة مباشرة بأُمور الإسلام، او العمل الإسلامي والمرجعي، نجد صورة اخرىٰ للسيّد الشهيد الصدر تختلف عما مضىٰ وتؤكّد أنّه شيء آخر، قد يحسبه من لايعرفه أنّه لايعرف العاطفة ولا المشاعر والأحاسيس.

وبما أنّ لهذا الموضوع حساسيّة خاصّة وقد لاتسمح الموازين الشرعيّة بذكر كلّ ما نعرف، أو يعرفه الآخرون، لأنّه لايتعلّق بالسيّد الشهيد (رضوان الله عليه) فقط وإنّما يتعلّق بالآخرين فإنّنا سنقتصر على ذكر قصّة له تتعلّق بموقفه من شخص ممّن كان يكنّ له عظيم الاحترام والتقدير، وله مع السيّد الشهيد تاريخ طويل ومواقف كثيرة وذكريات جميلة وكان المفروض به أن يكون العالِم المبرّز والكبير في دولة الكويت المعيّن من قِبل المرجعيّة الدينيّة.

وقد بذل السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) الكثير من الجهود لدعمه وتقوية مركزه الديني والاجتماعي، وتمّ له ما أراد، إلّا أنّه وفي لحظة مّا بعث برقيّة إلى السيّد الشهيد الصدر أخبره فيها بتركه الكويت ومغادرته إلى القاهرة من دون مشاورة أو مدارسة للموضوع معه.

وتألّم هذا الشخص من كونه لم يتلقّ جواباً على برقيّته وغضب غضباً شديداً فكتب رسالة (غضبىٰ) وبعثها للسيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) ذكر فيها بعض الانطباعات السلبيّة التي تولّدت في نفسه بسبب عدم جوابه علىٰ البرقيّة وعلى رسالة أُخرىٰ بعثها له من القاهرة.

وعلى كلّ حال فقد بعث (رضوان الله عليه) له بهذه الرسالة التي تعبّر عن نوع من المزج الفريد في أُسلوب التعامل والمخاطبة بين الجدّ والحزم وبين الأخلاق

والمشاعر، وهذا بعض ما جاء في الرسالة، وهي بتاريخ ٢٣ جمادى الثانية ١٣٩٦هـ=١٩٧٦م:

«لئن كانت الرسالة الوديعة بحاجة الى جواب واحد فرسالتك الغضبىٰ بحاجة إلى جوابين، ولئن كان القلب الذي يتوهّج حباً ووفاء وسماحة جديراً بمسحة حنان، فالقلب المشتعل غضباً وعتاباً جدير بمسحتين، وعلىٰ هذا الأساس أكتب هذه السطور التي سوف يحملها إليكم الشيخ محمد التمر حفظه الله الذي نعمنا بلقياه وسرنا وجود أمثاله في ذلك البلد الكريم.

وأمّا القضيّة التي أثارتكم عليّ حتّىٰ زلزلت من كلّ ما تعيشونه من ثقة وتقدير، أو كادت أن تفقدكم الثقة نهائيّاً بي وبأيّ إنسان آخر فإنّي قبل كلّ شئ أسال المولى سبحانه وتعالى أن يسبغ عليك من سكينته ويوسّع من صدرك لتكون أكثر تحمّلاً للهموم وأكثر قدرة على هضم الهفوات، وبعد ذلك فإنّ وضعنا مع سماحتكم يتمثّل أوّلاً في عدم الرّد على برقيّتكم وما أرسلتموه من قرار بانتقالكم إلى القاهرة، ويتمثّل ثانياً في عدم الردّ على رسالتكم الكريمة التي أرسلتموها قبل فترة من الزمن وتحدثونني فيها عن عبد الفتاح عبد المقصود وكتابه السقيفة وغير ذلك من أحاديث الودّ والصفاء.

أمّا الأمر الأوّل، فالواقع إنّي تعمّدت عدم الإجابة على ذلك لأنّي كنت أشعر بأنّ اللياقة الروحيّة والدينيّة والعلميّة كانت تقتضي ـ بعد أن حصل التفاهم أوّلاً على وجودك الديني والعلمائي في الكويت وقُرِّر بذل أقصىٰ الجهد في إنجاح هذا الوجود بأعلىٰ درجة ممكنة ـ أن تراسل المرجعيّة أو الأحباب على مستوىٰ المشاورة لاعلى مستوىٰ تبليغ باتخاذ القرار، ولا أقول: إنّك غير مصيب في اتخاذ القرار بل أقول: إنّ التعامل الثنائي له تكاليفه، ومن تكاليفه المشاورة والتفاعل، وأن يشعر الطرف الآخر في التعامل بأنّه ينظر إلى وجوده في التعامل نظرة احترام، وبأنّ كلّ ما يُتفاهم عليه مع أخيه لاينقض كلّه في لحظة بدون علم منه، فكّر في نفسك وحكّم فهمك الاجتماعي ونظرتك

العمليّة للأشياء بعيداً عن العواطف والأحاسيس، ما معنىٰ المرجع والمرجعيّة والارتباط بها، ما معنىٰ الارتباط بالنجف، ما معنىٰ الأُخوّة، ما معنىٰ الأُستاذ، مامعنىٰ أن تطلب مني وأنت في الكويت أن أبذل كلّ قدراتي في سبيل تركيز وجودكم هناك، مامعنىٰ اهتمامي بذلك، ومامعنىٰ توقّعك لهذا الاهتمام إذا كان كلّ ذلك ينقض في لحظة بدون أيّ إشعار سابق على عمليّة النقض هذه، إنّي حينما أنظر إلى ذلك لامن زاويتي بوصفي إنساناً أُحبّك وأُعزّك بل بوصفي كياناً أُريد أن أثق بك وأتعامل معك عمليّاً في خدمة الدين وخدمة النجف ماذا سوف أرىٰ، وهل سأرىٰ الإنسان الذي يشعر الكيان الذي يتعامل معه باحترام الالتزامات الأدبيّة تجاهه، أو الإنسان الذي يتّخذ القرارات مسبقاً ويقوم بتبليغها، إنّ كلّ إنسان حرّ في اتخاذ أيّ قرار في حدود فهمه للأشياء، ولكنّ هذا مادام يريد أن يعيش بمفرده، وأمّا مادام يريد أن يعيش ضمن إطار كيان أكبر فالمتوقّع منه أن يتصرّف ضمن هذه العلاقة الكيانيّة. وبالله عليك خبّرني إنّك إذا أخذت انطباعاً عن شخص معيّن بأنّه مهما جرىٰ بينك وبينه من حديث او التزام أو تفاهم فإنّ ذلك لايمنعه عن أن ينقض هذا كلّه إذا ارتأىٰ أنّ الصلاح في نقضه بدون ان يشاورك فماذا سوف تكوّن من فكرة عنه، قد تظلّ محبّاً له بدرجة عالية أمّا أن تقول له عفارم وأحسنت على مثل هذا التصرّف فهذا صعب جدّاً. هذا فيما يتّصل بعدم الردّ على برقيّة سماحتكم.

أمّا الأمر الثاني أي الرسالة العزيزة التي تفضّلتم بإرسالها من مصر قبل فترة فإنّ غضبكم بشأن عدم الجواب عليها ينبغي أن ينصب على البريد الذي لم يوصل الجواب على تلك الرسالة التي كان من اهتمامي العاطفي والروحي بها لأنها رسالة شخص من أعزّ الناس عليّ وأحبّهم إلى قلبي إنّي أبقيتها في جيبي طيلة شهر وقرأتها مراراً في هذه الفترة، وقد كتبت لكم جواباً وأرسلته في البريد، ثمّ اطلعت عن طريق الشيخ الأوحدي على أنّ سماحتكم في حالة سخط على هذا المسكين لذنب جناه غيره فبادرت إلىٰ كتابة رسالة أُخرىٰ وأرسلتها

بالبريد أيضا، ثمّ جاءت رسالتكم الغضبىٰ، ولم تكن أوّل رسالة غضبىٰ اتسلّمها منكم، ولئن عشت المرارة وأنا أقرأُ غضبك عليّ، وألمح من وراء السطور خلفيّات هذا الغضب، وأشمّ من لحن التعبير ولغة الرسالة مدىٰ عمق هذا الغضب، وأكاد ألمس في السطور الكريمة هياج النفس الكريمة حينما يتعدّي على كرامتها شخص من أمثالي.

اقول لئن عشت المرارة وأنا أقرأ رسالتك الغضبىٰ فقد عشت من ناحية أُخرىٰ صورتك الرائعة في قلبي التي غطّت على الصورة التي أعطتها الرسالة وذكرياتك الناصعة في نفسي التي نسخت رغم تقدّمها الزمني انطباعاتي على الرسالة، وهكذا بقيت وستظلّ في نفسي ذلك الإنسان المشع بآيات الوفاء والحبّ والأُخوّة والإخلاص والايثار...»[١]

هذا وكنت قد تحدثت فيما سبق عما وقع لي شخصيّاً من هذه الناحية وهو مايؤكّد أنّ الهدف الديني كان هو المحور الذي كانت أخلاق السيد الشهيد الصدر تتكيّف معه وليس الأغراض والأهداف الشخصيّة.

أخلاقه مع أساتذته

من الأُمور الجديرة بالبحث والتوثيق موضوع أخلاق وسلوك السيّد الشهيد [illegible] مع أساتذته لأنّه يكشف عن بعض جوانب السلوك الشخصي والروحي له.

ويجب أن نشير إلى أنّنا لانمتلك معلومات هامّة عن مرحلة مديدة من عمر السيّد الشهيد الصدر من ناحية سلوكه مع أساتذته تبدأ من مرحلة السطوح وحتىٰ حضوره لأبحاث الخارج إلّا في حدود ماذكرناه سابقاً في موضوع (الهجرة إلى

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٢٦).

النجف الأشرف والدراسة فيها) إلّا أنّنا وفي الوقت نفسه يمكن أن نقدّم صورة متكاملة عن علاقته بأهمّ أساتذته الذي تتلمذ عنده بالمعنىٰ الحقيقي للكلمة وهو آية الله العظمىٰ المرحوم السيّد الخوئي ﷺ فإنّه يعتبر الأُستاذ الحقيقي له والذي حضر أبحاثه الفقهيّة والأُصوليّة فترة طويلة من الزمن، ومن خلال ذلك يمكن أن نشكّل صورة إجماليّة لسلوكه مع أساتذته الآخرين ﷺ جميعاً ـ قياساً على ذلك.

وللأمانة التاريخيّة أقول: إنّه بالرغم ممّا سنقدّمه من رسائل في غاية الروعة صدرت من السيّد الشهيد الصدر بشأن أُستاذه الإمام الخوئي ﷺ، فإنّ خلافاً ـ غير معلن ـ وقع بينهما في الآونة الأخيرة سبَّبَ نوعاً من الفتور والبرود في العلاقات، وهذا الخلاف على ما أعتقد يعزىٰ إلى أمرين، الأمر الأوّل: هو كيفيّة تعامله مع أوضاع الشعب العراقي و مشاكله السياسيّة والاجتماعيّة وغيرها والأمر الثاني: هو بعض الأطراف الذين كانت لهم رؤية معيّنة في المرجعيّة بعد السيّد الخوئي وكان وجود السيّد الشهيد الصدر ﷺ من الأُمور المزعجة لهم فحاولوا إيجاد فجوة بين الأُستاذ وتلميذه لكي يخسر ما نسميّه بـ(الإرجاع إليه في الاحتياطات) الذي هو أوّل مؤشّرات المرجعيّة البعديّة.

ولكنّ المهم والذي يجب أن يُسجّل للأمانة والتاريخ إنّه ـ رغم وصول هذا الخلاف في بعض المراحل إلى حدود تكاد تكون فاصلة ـ لم يصدر من أيّ منهما ما يشين الآخر أو يتعدّىٰ حدود الأدب فضلاً عن الشرع وهو يدلّ على مستوىٰ رفيع من الطهارة والإيمان.

وهنا أودّ تقديم هذه الصورة الرائعة عن علاقة السيّد الشهيد بأُستاذه، فمثلاً لمّا أُشيع في فترة من الزمن بأنّ العلاقة بينهما أصابها الفتور والبرود فكتب أحدهم سؤالاً وطلب من السيّد الشهيد الإجابة عليه وهذا نصّ السؤال والجواب:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

من المعلوم لدينا علاقتكم الروحيّة منذ القديم مع سماحة آية الله العظمىٰ المرجع الديني الأعلىٰ السيّد الخوئي دام ظله الوارف، لكن هناك بعض المسموعات التي أوجبت الإجمال ممّا استدعىٰ أن نتوجه إليكم بالسؤال مباشرة عن هذا الموضوع والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

إنّ هذا السؤال الذي تتفضّلون بتوجيهه إليَّ يوجب شكري من ناحية إذ تتيحون لي بذلك الفرصة للتعبير عن واقع يعيش في نفسي، ويؤلمني من ناحية أُخرىٰ ألماً شديداً لأنّه يوحي بأنّ علاقة هي من أشرف وأطهر وأقدس العلاقات في حياتي وكأنّها عرضة للشكّ والإجمال، وهي علاقتي بسيدنا وأُستاذنا وسندنا أُستاذنا آية الله العظمىٰ الإمام الخوئي دام ظلّه الوارف. هذا الأُستاذ الذي أُبصرت نور العلم في حوزته وذقت طعم المعرفة على يده، وإنّ أعظم ما ينعم الله به على الإنسان بعد الايمان العلم، ولئن كنت قد حصلت على شيٍ من هذه النعمة فإنّ فضل ذلك يعود إليه، فلست إلّا ثمرة من ثمرات وجوده وفيضه الشريف، وولداً من أولاده الروحيين.

وإذا كان هناك من يحاول غضّ النظر عن هذه الحقيقة أو ينسب هذا الغضّ إليَّ إمّا لأجل صرف قلب الأب عن ابنه، أو لأجل استغلال مكانة هذا الابن للتاثير على المقام الأعلىٰ للأب فإنّي اغتنم فرصة سؤالكم الكريم لأقول لكم بكلّ وضوح: إنّي أتعامل مع السيّد الخوئي دام ظلّه ـ وسأظلّ كذلك ـ كما يتعامل الابن مع أبيه، والتلميذ مع أُستاذه، و الطالب مع مرجعه، وقد صرّحت بذلك مراراً للناس وللطلبة وللمسؤولين، ولا أرضىٰ عن أيّ شخص إلّا أن يعترف بذلك ويتعامل معي ومعه دام ظلّه على هذا الأساس، وإذا أراد شخص أن ينوّه باسم هذا الجانب فليعلم أنّ ممّا يزعجني أشدّ الإزعاج أن يخرج هذا التنويه عن مقتضيات العلاقة الطوليّة بين الابن وأبيه والتلميذ وأُستاذه، وكلّ

خروج عن هذه المقتضيات مناقض لسلوكي وتعاملي. وقد جرىٰ ديدن العلماء على التميیز بين الأمرين، بين الإفتاء وإصدار ما يتضمّن ذلك لمن يحتاج إليه في عمله الديني الشخصي، وبين الالتزام بمتطلبات المرجعيّة العليا وصيانتها. ونحن نرىٰ لزوم التمييز بين هذين الأمرين فلا يجوز الخلط بينهما، ولايجوز مسّ مقام المرجعيّة العليا، ولايجوز أيّ عمل يقصد به تفتيت الشمل المجتمع للمؤمنين على مرجعيّتهم العليا وتمزيق كلمتهم.

وإنّي أبتهل إلى المولى سبحانه وتعالى أن يمتّعنا بدوام وجود السيّد الأُستاذ والاستظلال بظلّه الوارف والقيام بواجب البنوّة له والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٨ جمادىٰ الأُولى ١٣٩٦هـ[=١٩٧٦م] [١]

محمّد باقر الصدر»

وعلى الصعيد العملي سلك (رضوان الله عليه) نفس السلوك فقد اتخذ نهجاً في وجوب احترام شخص السيّد الخوئي (ره) فلم يتعرّض له إلّا بكلّ خير، وكان يذهب لزيارته وتفقّد أحواله وأوضاعه الصحّية بين الحين والآخر وإلى آخر يوم قبل احتجازه ومن ثمّ استشهاده.

وأمّا على المستوىٰ المرجعي فإنّ السيّد الشهيد (ره) رغم علمه بحاجة الشعب العراقي إليه أكثر من غيره لقدرته على تفهّم احتياجاته ومتطلّبات حياته والظروف السياسيّة التي يعيشها فإنّه مع ذلك حرص على احترام مرجعيّة الإمام الخوئي (ره) بما يقتضيه الأدب والاحترام لا في العراق فقط بل وفي كلّ مكان يتواجد فيه الشيعة، وقد أوصىٰ طلّابه مراراً وتكراراً على الالتزام بعدم إبرازه كمرجع إلّا في حدود الطوليّة لا العرضيّة. وأصرّ على إبراز مرجعيّة المرحوم السيّد

١ ـ راجع الوثيقة (٢٧).

الخوئي علىٰ أنها المرجعيّة الأُولىٰ ففي رسالة له بعثها إلى سماحة حجة الاسلام والمسلمين السيّد محمد الغروي ذكر هذا المعنىٰ، والظاهر أنّ بعض الملاحظات كانت قد وصلته من ابن عمه المرحوم آية الله السيّد رضا الصدر ﵀ حول الموضوع نفسه فأحبّ أن يؤكّد لطلابه رؤيته وموقفه من هذا الأمر فجاء في مقطع من رسالته ما يلي:

«وأمّا حديث السيّد أبي كاظم الصدر دامت بركاته حول الإخوان في قم فالحقيقة إنّي كنت باستمرار أكتب إلى أبنائنا حفظهم الله أُؤكّد عليهم المضامين التي تبعث على التريّث والاحتياط والعزوف عن تقديم المرجعيّة التي يؤمنون بها فعلاً إلى الأُمة في بلادهم. والسيّد الأردبيلي حين هاجر إلى إيران في شعبان السابق قلت له: إنّي أمنعك منعاً باتّاً عن ذكر اسمي في أردبيل كمرجع فعليّ. وكتب إليّ آقاي إسلامي مراراً يطلب طبع الرسالة الفارسيّة، وكتبت إليه: إنّي لا أطبع رسالة فارسيّة مادامت المرجعيّة العليا قائمة فعلاً متمثلة في السيد الخوئي دام ظلّه.

ومن جديد قبل نصف شهر أرسلت رسائل خاصة بهذا الشأن إلى السيّد الحائري من ناحية والسيّد الأردبيلي من ناحية أُخرىٰ، والسيّد عبد الكريم القزويني من ناحية ثالثة وأكّدت في كلّ هذه الرسائل عليهم أن لاينعكس في أقوالهم وأفعالهم تقديمي إلى الناس كمرجع فعلي في عَرض السيّد الخوئي وحرّمت عليهم أن يدخلوا في باب المقارنة بيني وبينه، أو أن يشهدوا لأحدٍ بمساواتي أو أعلميّتي على السيّد دام ظلّه، وقلت لهم: يجب أن يكون السلوك بيننا على الطوليّة. هذا ما أقوم به باستمرار والرفقاء تعرفونهم أمانةً وإخلاصاً وطاعةً والباقي على الله سبحانه وتعالى...»[١]

أمّا الرسالة التي ذكر أنّه بعثها إلى المرحوم السيّد عبد الغني الأردبيلي ﵀ بشأن هذا الموضوع فقد جاء في مقطع منها مايلي:

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٢٨).

«اغتنمت فرصة الشيخ شمس الدين فكتبت معه هذه السطور إليكم وبودّي أن أحدّثكم بحديث دار بيني وبين حجّة الإسلام والمسلمين الحاج السيّد جلال صهر الإمام الخوئي دام ظلّه، وهو إنسان تربطني به رابطة ودّ وصحبة ومحبّة منذ أكثر من عشرين عاماً، وقد جاء إلى الزيارة قبل شهر وزرته وزارني وقد جرت بيننا أحاديث أوضحت له فيها جواباً على بعض استفساراته حرصاً على مقام المرجعيّة العليا للسيّد الخوئي دام ظلّه وعلى عدم المزاحمة بوجه من الوجوه، وعدم رضائي بأن يقدّم هذا الوجود إلى الأمة إلّا في إطار من الطوليّة تجاه السيّد الأُستاذ كما تقتضيه البنوّة والتلمذة. وقد ذكر دامت بركاته (اي الحاج السيّد جلال) وهو يخاطبني: إنّ بعض أصحابكم في إيران يخرجون عن مقتضيات هذه الطوليّة فذكرت له: إنّي لا أُقرّ هذا الخروج بوجه، واستشهدت بجملة من الأحاديث منها حديثي معكم وقلت له: إنّ السيّد الأردبيلي من أقرب أولادي إليّ وقد سافر مهاجراً إلى أردبيل قبل أقل من سنة وقد أكّدت عليه في توديعي له أن لاينوّه بهذه الجهة[1] على نحو يخرج عن الطوليّة بوجه من الوجوه، وأن لا يذكرني بوصفي شخصاً فعليّاً بل على نحو الشأنيّة والبَعديّة إن أحبّ. كلّ ذلك حرصا على مقام السيّد الأُستاذ. وإنّي أكتب إليكم هذا المعنىٰ لأجل أن أُؤكّد ما قلته لكم سابقاً، وإذا كان قد صدر منكم ما ينافي وصيّتي السابقة فأرجو العدول عن ذلك فيما يأتي...»[2]

ومن الواضح أنّنا لانملك نصّاً لا من الكتاب ولا من السنّة يحرّم علىٰ التلميذ التصدّي للمرجعيّة في زمن حياة أُستاذه إذا وجد في نفسه القدرة والكفائة، ومع ذلك حرص (رضوان الله عليه) على أن يبقىٰ وفيّاً لأُستاذه حريصاً على احترامه واحترام مرجعيّته، وهذه الرسائل شاهد صدق على ما أقول.

١ ـ الجهة مصطلح يُراد به المرجعيّة، ويعني هنا مرجعيّته، وهو بهذا المعنى في كلّ ما سيأتي.
٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٢٩).

فإنّه ﷺ لم يكتبها لتنشر ويسجّل له بها مواقف تدلّ على روحيّة عالية وأخلاق فاضلة وصدق في التعامل، وإنّما أراد في الواقع أن يؤكّد على ما يؤمن به ويعتقده.

وقد توّج (رضوان الله عليه) كلّ ذلك بشهادة كبيرة بحقّ أُستاذه وذلك بعد وفاة الإمام الحكيم ﷺ هذه الشهادة التي كلّفته الكثير من الأضرار والأتعاب، ولاأُريد أن أتحدّث عن ظروف هذه الرسالة إذ سوف يأتي الحديث عن ذلك مع عرض نصّ الرسالة في موضوع (المرجعيّة والحوزة في حياة السيّد الشهيد) وإنّما فقط أُريد التأكيد على ما سبق الحديث عنه وهو الصدق في التعامل والوفاء الحقيقي، والتضحية التي يُراد بها خدمة الإسلام والأُمة الإسلاميّة.

هذا استعراض مختصر لهذا الجانب من شخصيّة الإمام الشهيد الصدر (رضوان الله عليه).

سيرته مع الناس والاهتمام بهم

من السمات البارزة والمتميّزة في شخصيّة الإمام الشهيد الصدر سلوكه وطريقة تعامله مع الناس عموماً.

هذا السلوك الذي ضرب فيه أروع الأمثلة في معنىً (المداراة) والمحبّة والتعاطف، والتفهّم لهموم الناس ومشاكلهم ومشاركته لهم فيها، والتعايش معهم بمشاعر إسلاميّة وإنسانيّة، واستيعاب السلبيات والمشاكل بقلب منفتح وروح كبيرة.

إنّ معظم الذين التقوا به، أو حضروا مجلسه العام، من عامّة الناس

وخاصّتهم أحسّوا بتلك السمة، كان يقوم احتراماً لكلّ وافد عليه، ويحترم كلّ أحد ويستبشر بكلّ زائر، يحبّ النّاس من قلبه وأعماقه، ويكفي لكي يدخل هذا الرجل إلى قلبك أن تلتقيه أو تجالسه مرّة واحدة، فسوف تشعر وقد امتلأ كيانك حباً له.

وما من شكّ أنّ أهمّ المقوّمات التي يجب أن تتوفّر في القائد هو هذه الروح الأخلاقيّة العالية، وهذه الشفافيّة الكبيرة «فَبِما رَحمَةٍ مِن الله لِنتَ لَهُم وَلو كُنتَ فَظّاً غَليظَ القَلبِ لانفَضّوا مِن حَولِكَ»[1]، وكان شهيدنا الصدر كذلك رحيماً بالمؤمنين، ليّناً لهم، ينبع حبّه من أعماق قلبه ليغمرهم به.

لقد عشت مع الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) أمداً طويلاً، فكنت أعجب من حلمه وصبره وصفحه، كان يتلقّى ما يُوجّه إليه بصبر تنوء منه الجبال، ويصفح عمّن أساء إليه بروح محمّديّة.

نماذج خاصّة من أخلاقه:

ولا أُريد هنا إلّا تسجيل بعض النماذج ممّا كان من خلقه، وهي تَقصُر عن التعبير الكامل عمّا كانت تحمله روحه من سمو وعلو.

١ ـ طلب أحد (الطلبة) اجتماعاً خاصّاً بالسيّد الشهيد ﷺ، وفي هذا اللقاء طلب مساعدة ماليّة ليتمكّن من إجراء عمليّة جراحيّة لزوجته، وكان وضعها حرجاً من هذه الناحية.

كان الوضع المالي للسيّد الشهيد في تلك الفترة يعاني ضيقاً وشدّة، ومع ذلك أخرج مائة دينار وسلّمها إيّاه، واعتذر من قلّته. أخذها الرجل حامداً شاكراً، وكان هذا المبلغ في ذلك الحين مبلغاً لابأس به.

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

تحدّث هذا الرجل في مجلس من مجالس النجف عن كرم السيّد الشهيد وأريحيّته، وذكر قصّته معه، فتحفّز أحد الحاضرين ـ طمعاً في المال لالحاجته إليه ـ ليكرّر ما يشبه تلك القصّة فجاء يطلب المال لحاجة ذكرها، واعتذر السيّد الشهيد بعدم توفّر المال لديه، وأوعده أنّه متى ما توفّر فسوف يحقّق له ما يريد.

ظنّ هذا الرجل أنّ هذا الاعتذار تبرير لحرمانه ومنعه من العطاء، وليس عذراً واقعيّاً فانهال على السيّد الشهيد يكيل التهم والشتائم، فقال له: إنّكم تصرفون الحقوق الشرعيّة لشراء الذهب لنسائكم وبناتكم، تبنون القصور، وتشترون السيّارات، قبل يومين جاء فلان فأعطيته مائة دينار، وأنا اليوم أطلب منكم فلا تعطيني.

أمّا السيّد الشهيد فظلّ صامتاً يستمع إليه وحاول تهدئته بما يمكن، لكن لم تُجدِ معه تلك المحاولات.

كنت قد قرّرت وأنا أسمع إلى وقاحته أن أُلقّنه درسا فقد تملّكني الغضب والانفعال. وكان السيد الشهيد قد لمح ذلك في وجهي.

فلمّا أراد الخروج خرجت معه إلى باب المكتبة، فأمرني (رضوان الله عليه) بالجلوس، وظلّ ساكتاً حتّى سمع صوت غلق باب المنزل حيث تأكّد من خروجه، هنا قال لي:

«ماذا كنت ستفعل؟» فأخبرته بما كنت عزمت عليه.

فقال: «لابأس عليك، إنّني أسمع أكثر وأقسى ممّا سمعت، ويجب عليك أن ترتفع بأخلاقك وصبرك إلى مستوى المسؤوليّة، فإنّي بالرغم ممّا سمعت من هذا الرجل من تهم وشتائم، فإنّي لا أحمل عليه حقداً ولا كرها؛ لأنّه لو اطّلع على أوضاعي لما صدر منه ما صدر، وسوف يأتي اليوم الذي يندم فيه، ويصلح خطأه».

وشاء الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يأتي هذا اليوم، وجاء الرجل يعتذر يقبّل يد السيد الشهيد ورجله، وعندها ذكّرني بما نصحني به وقال: هكذا يجب أن نتعامل مع الناس.

٢ ـ بلغه أنّ أحد المعروفين في الحوزة العلميّة قال لمدير أمن النجف: «ماذا تنتظرون بالصدر، هل تريدونه خمينيّاً ثانياً في العراق، لماذا لاتعدمونه...».

فقال (رضوان الله عليه) لمّا بلغه ذلك:

«غفر الله لك يا فلان، إن قتلوني اليوم، قتلوكم غداً...».

ولم يزد على ذلك شيئاً.

٣ ـ كان السيّد الشهيد ؓ قد أطلعني مع أحد الإخوة الأعزاء على أمر هامّ يتعلّق بمستقبل العمل الإسلامي في العراق، ومنشأ الأهميّة نابع من الظروف الأمنيّة القاسية، فحدث أن ظهرت بعض خيوط هذا الأمر في مدينة النعمانيّة بين أصدقاء لي هناك، منهم المرحوم الشهيد الحاج نعيم النعماني، وهو أحد الكوادر القياديّة لحزب الدعوة الإسلاميّة آنذاك.

علم السيد الشهيد بذلك، فكان مفاجأة قويّة له، إذ كيف يتسرّب ذلك من دائرة محدودة جدّاً.

ومن العجيب أنّ كلّ الظروف كانت ضدّي، وكلّ الدلائل كانت تشير إليّ، فقد صادف أن زارني المرحوم الحاج نعيم بعد يوم واحد من اطلاعي على ذلك الأمر، ثمّ إنّ الأمر انتشر في مدينة النعمانيّة بواسطة الحاج نعيم، فكان من المنطقي أن أكون مورداً للظنّ القوي...

فدعاني (رضوان الله عليه) لجلسة خاصّة فقال لي: ولدي، إنّي أثق بك ثقة تامّة؛ ومن الطبيعي أن تشتبه أو تخطأ، ولو حدث هذا فإنّه لن يغيّر من موقعك في نفسي، إنّ الأمر الخاصّ الذي اطلعتك عليه انتشر في النعمانيّة، فهل أخبرت به أحداً؟

أكّدت له بأنّي لم أُخبر أحداً على الإطلاق، ويمكن التأكّد من ذلك ممّن أفشى الخبر هناك.

بعث ﷺ أحد الإخوة إلى مدينة النعمانيّة ليبحث عن رأس الخيط، ويحقّق في الأمر فعرف أنّ الخبر أفشاه الحاج نعيم، ولم يكن يعلم بأهميّته وخطورته.

وأحسّ المرحوم الحاج نعيم بأنّ الشبهة ستدور حولي، فجاء في اليوم التالي إلى النجف، وأخبر السيّد الشهيد بأنّ المصدر كان (فلان) وهو أخذه من (فلان) وأنّ ـ كاتب هذه السطور ـ لاعلاقة له بذلك.

وأحسّ السيّد الشهيد بحالتي النفسيّة، وما أُعاني من انكسار، خاصّة بعد أن علمت بأنّه بعث إلى النعمانيّة من يحقّق في هذا الأمر، إنّ خسارة ثقة السيّد الشهيد ليس أمراً هيّناً بالنسبة لي.

كان لقاء الحاج نعيم بالسيّد الشهيد قبل الظهر بقليل، وكان من عادتي أن أستضيفه إذا جاء إلى النجف، وبعد أن أدّينا الصلاة وكنّا على وشك إحضار الغداء، وإذا بالسيّد الشهيد يطرق الباب والابتسامة تعلو وجهه، وروح الأُبوّة وريحها تطفح منه، فقال:

«جئت أتغدّى معكما؛ لأنّي قدّرت أنّ الحاج نعيم سيتغدّى هنا» ثمّ قال لي: «أنت كولدي جعفر، فلا تضجر منّي».

يالله ما هذا الخُلق العظيم، والروح السامية و إنّك حقّاً ﴿لَعلىٰ خُلقٍ عَظيم﴾[1].

٤ ـ كتب سماحة آية الله السيّد الحائري في مذكّراته عن هذا الجانب ما يلي:

«انفصل أحد طلابه عن درسه وخطّه الفكري الإسلامي، ثمّ بدأ يشتمه

١ ـ سورة القلم، الآية ٤.

وينال منه في غيابه أمام الناس، وكان كثير من كلماته تصل إلى مسامع أُستاذنا العظيم، وكنت ذات يوم جالساً بحضرته الشريفة، فجرىٰ الكلام عن هذا الطالب الذي ذكرناه، فقال (رضوان الله عليه):

«أنا لازلت اعتقد بعدالة هذا الشخص، وأنّ ماصدر منه ناتج من خطأ في اعتقاده، وليس ناتجاً من عدم مبالاته بالدين»[1]

٥ ـ وكتب سماحته أيضاً:

«في الفترة التي عينت حكومة البعث الغاشم ستة أيّام لتسفير الإيرانيّين بما فيهم طلاب الحوزة العلميّة من النجف الأشرف رأيت أحد طلبة العلوم الدينيّة في النجف الأشرف مودّعاً لأُستاذنا الشهيد، فرأيت الأُستاذ يبكي في حالة وداعه إياه بكاء الثكلىٰ،رغم أنّه كان يعرف أنّ هذا الرجل يُعدّ في صفوف المناوئين له»[2].

نماذج من تعامله مع الشعوب الأُخرى:

وإذا أردنا أن نبتعد عن الانطباعات الخاصّة والوقائع الشخصيّة وتركنا الحقائق تتكلّم في افق اوسع تجد عنده الصدر والقلب الذي يعيش مع المسلمين في العراق وباكستان وإيران والهند ومع كلّ مسلم في أقطار الأرض وأنحائها بروح واحدة يعيش معهم آلامهم وهمومهم ومشاكلهم ولنقف مع بعض المحطات التي تستحق الوقوف عندها لما تحمل من مؤشرات روحيّة وأخلاقيّة رفيعة.

من تلكَ المحطات موقفه من الشعب اللبناني الأبي أثناء الأزمة الكبيرة التي خيّمت عليه فكان ضحيّتها الفقراء والمعوزين والمستضعفين، لم يقف الصدر مواسياً بكلمات المواساة وعبارات الرحمة والشفقة وإن كان ذلك مطلوباً وحسناً،

١ و ٢ ـ مباحث الاصول ج ١ ص ٤٦ و ٤٩.

لكنّه وقف بما يملك من قدرة ماليّة وماديّة وإن كانت محدودة، فهو تارة يبعث المال لمساعدتهم وأُخرىٰ يسمح بصرف الحقوق الشرعيّة عليهم من دون حاجة إلى مراجعته واستئذانه. ويجب أن أعترف ان ما قدّمه (رضوان الله عليه) لايعتبر شيئا ذابال من ناحيتين: فمن ناحية إنّ المال المقدّم ليس كبيراً ليسدّ حاجاتهم الكبيرة، ومن ناحية أُخرىٰ إنّ الأزمة والحاجة قد بلغا حداً جعل كلّ مال كثير لايساوي شيئاً، في الوقت نفسه لا يُعتبر السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) من المراجع الذين تغدق عليهم الأموال بشكل منتظم ليتمكّن من الإسهام مساهمة فعّالة، بل كان في بعض الأحيان يوفّر رواتب الطلبة بصعوبة شديدة، وكان في أحيانٍ أُخرىٰ يستقرض ليتمكّن من إعطاء الرواتب ومع ذلك فإنّ مساهمته وعدم استئثاره حتىٰ بهذا القليل يعتبر من المواقف التي يجب أن تسجّل له، وأن نعتزّ ونفتخر بها نحن أبناء الامة. فمثلاً في مقطع من رسالة أظن أنّها إلى سماحة السيّد محمد الغروي يقول له فيها عن موقفه من المحتاجين في لبنان:

«ومن ناحية أُخرىٰ كتب إلينا جملة من علماء لبنان حول مآسي المشرّدين والبائسين هناك من أبناء جبل عامل الذين فقدوا منازلهم وتحوّلوا إلى شبه لاجئين، وكانوا يترقّبون العون من النجف، وقد توكّلنا على الله تعالى وقرّرنا مساعدة جزئيّة توزّع على شكل موادّ غذائيّة وما أشبه على تلك العوائل المؤمنة المشرّدة، وتبلغ المساعدة التي قرّرناها سبعة الآف دينار، وقد وزّعت عن طريق مجموعة من كبار علماء الشيعة في لبنان كالسيّد أبي صدري والشيخ محمد تقي الفقيه والسيّد هاشم معروف وآل فضل الله وآل شمس الدين وكان لذلك وقع حسن...»[١]

وتكتب له العلويّة الكريمة والسيّدة الفاضلة رباب الصدر تستجيزه في

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٣٠).

صرف الحقوق الشرعيّة على مشاريع خيريّة تعليميّة ومهنيّة وتثقيفيّة للأطفال في لبنان ممّن يحتاجون إلى ذلك فيجيب (رضوان الله عليه):

«بسم الله الرحمن الرحيم

بعد السلام عليكم والدعاء لكم بالتسديد والتأييد إنّنا نثمّن بكلّ اعتزاز هذه الجهود الدينيّة المخلصة التي تبذلونها في هذه المؤسّسات ونأذن بالصرف عليها وسدّ عجزها من سهم الإمام عليه الصلاة والسلام أرواحنا فداه ومن الزكاة ومن الأثلاث المطلقة وكلّ ما يصرف في ذلك فهو واصل إلينا إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٢٤ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ[=١٩٧٩م]

محمد باقر الصدر»[١]

ويستفتيه سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيّد عبدالله الغريفي عن جواز دفع زكاة الفطرة إلى المتضرّرن في لبنان ويجيب (رضوان الله عليه):

«وأمّا دفع زكاة الفطرة على عوائل المؤمنين من ضحايا الحرب في لبنان فهو جائز، وقد أجبت على الاستفتاءات السابقة التي وردت منكم بريديًا...»[٢]

ويستأذنه الأخ السيّد إبراهيم محمد علي إسماعيل في صرف مبلغ ألف ليرة ممّا في ذمّته من الحقوق الشرعيّة على المعوزين والفقراء من أبناء بلدته وأرحامه في لبنان ويجيبه (رضوان الله عليه):

«بسم الله الرحمن الرحيم

بعد السلام عليكم والدعاء لكم بدوام التوفيق، أنت مأذون من قبلنا في صرف المبلغين المذكورين من سهم الامام عليه الصلاة والسلام أرواحنا فداه على الوجه المذكور والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد باقر الصدر»[٣]

---

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٣١).

٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٣٢).

٣ ـ راجع الوثيقة رقم (٣٣).

ومن باكستان يستأذنه سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد مختار حسين النقوي في صرف الحقوق الشرعيّة على المسلمين في باكستان الذين تضرّروا بسبب فيضانات أصابت القرىٰ والأرياف وأدّت إلى أضرار كبيرة في عام (١٣٩٦هـ=١٩٦٦م) فيجيب (رضوان الله عليه):

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

وبعد فإنّا نأذن في سدّ ضروراتهم من سهم الإمام عليه السلام أرواحنا فداه كما لامانع من مساعدتهم من الصدقات الواجبة والمستحبّة ونسأل المولى تعالىٰ أن يكشف ما بهم إنّه على كلّ شئ قدير

٢٠ شهر رمضان ١٣٩٦ محمد باقر الصدر»[١]

وعلى كلّ حال فإنّ ما أُريد التاكيد عليه مما تقدّم ليس تعظيم وتبجيل هذا الرجل الذي يكفيه تصميمه على الشهادة في سبيل الله تعالى عن كلّ تكريم وتبجيل، وإنّما أستهدف التأكيد على أنّ الشهيد الصدر كان يؤمن بالأُمّة إيماناً مطلقاً ويرىٰ أنّ الاهتمام بكلّ فرد من أفرادها وشعب من شعوبها من الواجبات الكبيرة التي يجب أن يوليها المرجع المزيد من الاهتمام.

مواقف أخلاقيّة أُخرى:

وهنا يجدر ان أُشير إلى هذه الحادثة التي وقعت خلال فترة الاحتجاز لأنّها تجري في نفس الاتجاه وتؤكّد على صحّة هذه الرؤية.

لقد وصلتنا رسالة بواسطة الحاج عباس (خادم السيد الشهيد) كانت تتضمن بيان عواطف ومشاعر وتألّم على ما يجري على السيّد الشهيد من محن ومصائب، كتبت بعبارات خليطة من الكلمات الفصحى والعاميّة، وكان أهمّ ما فيها أنّ

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٣٤).

الموقّعين فيها عاهدوا السيّد الشهيد على اغتيال قوّات الأمن المحاصرين لمنزله، وحدّدوا يوماً وساعة معيّنين، وضمّنوا الرسالة مبلغاً بسيطاً من المال هديّة للسيّد الشهيد واعتذروا من قلّته.

قرأت الرسالة، ثمّ اطلعت السيّد الشهيد عليها، وأخبرته بأنّ بعض هؤلاء غير معروفين بالتديّن، ومن المحتمل أن تكون هذه العمليّة مدبّرة من قبل السلطة لمعرفة ما إذا كان لنا اتّصال أو تعاون مع جهات أو أشخاص خارج البيت. فقال ﵀ فلننتظر الموعد الذي حدّدوه في رسالتهم فمن خلال ذلك يتبيّن الحال.

ترقّبنا الأحداث حتىٰ حان الوقت المعيّن حيث كنّا ننتظر ما يحدث، فإذا بمجموعة من الشباب الملثّمين يهجمون على قوّات الأمن وينهالون عليهم طعناً بالسكاكين بعد أن حاصروهم من طرفي الزقاق، وكان السيّد الشهيد ينظر إليهم من خلال فتحة صغيرة في النافذة.

بعد هذه العمليّة شدّدت السلطة من إجراءاتها الأمنيّة، وزوّدت رجالها بالرشاشات والقنابل، وأجهزة اللاسلكي، ومنعوا الناس لفترة طويلة من المرور خلال الزقاق خوفاً من عمليّة مشابهة.

علّق (رضوان الله عليه) على هذا الحادث فقال:

«لو قدّر للحجز أن يفكّ عنّا، وتعود الأُمور إلى طبيعتها، فسوف أصرف قسماً كبيراً من الحقوق الشرعيّة على تربية هؤلاء، إنّهم يملكون الشجاعة التي نحتاجها في مسيرتنا الجهاديّة، هؤلاء أفضل عند الله من الذين تخلّوا عنّا، أو الذين اتّهمونا ببعض التهم، ونحن نعاني ما نعاني في الحجز».

ولا أريد أن أتعرّض لهذا الجانب المؤلم ولمواقف البعض خلال تلك الفترة، والمعاناة الرهيبة التي كان يعانيها (رضوان الله عليه) من هؤلاء الذين كانوا مع سلطة البعث في مواقفهم وتوجّهاتهم، وإنّما أذكر فقط نموذجاً واحداً ليتصوّر القارئ

الكريم من خلاله حجم المعاناة وعظيم المحنة، وبلاغة المظلوميّة التي كانت تحوط بالسيد الشهيد.

في تلك الفترة العصيبة والسيد الشهيد يعيش تلك المشاكل الكبيرة، ويتحمّلها بروح الصابرين المؤمنين. يبعث أحدهم إليه برسالة مضمونها كما يلي:

«إنّنا نعلم أنّ الحجز مسرحية دبّرها لك البعثيون، وأنت تمثّل دور البطل فيها، والغرض منها إعطاؤك حجماً كبيراً في أوساط الأُمّة. إنّنا نعلم إنّك عميل لأمريكا، ولن تنفعك هذه المسرحية»!؟

لقد رأيت السيد الشهيد قابضاً على لحيته الكريمة وقد سالت دمعة ساخنة من عينه وهو يقول:

«لقد شابت هذه من أجل الإسلام، أفتوتّهم بالعمالة لأمريكا وأنا في هذا الموقع؟!!».

ومن المواقف الرائعة التي لازال لها وقع في نفسي قصّة ذلك الشاب الذي فُجع في لحظة واحدة بجميع أهله بحادث سيارة.

كان هذا الشاب في غاية التأثّر، يكاد قلبه يتقطّع من هول المصيبة التي حلّت به، يبكي بلا انقطاع بزفرات تُبكي الصخر الأصمّ، ولا يستطيع أحد وهو يرى هذه الحالة إلا أن يواسيه بدمعة حارة، سألني صديقه عن امكانية اللقاء بالسيد الشهيد في هذه الساعة من الليل، فوجدت أنّ من المناسب ان يواسي هذا الشاب المصاب، وكنت أظن أنّ أحداً لا يستطيع أن يخفّف من هول الصدمة التي يعاني منها، وكنت أحسب أنّه سوف يخرج بنفس الحالة التي جاء بها.

جاء السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) فأجلس الشاب المفجوع إلى جانبه، وبدأ بعاطفته الحارّة، وبكلماته الرقيقة يخفّف عليه من معاناته ويهوّن عليه من مصيبته، ولمّا أن تمكّن من قلبه بدأ يشرح له حقيقة الموت، وأنّه بداية الطريق إلى حياة

أسعد وأجمل من حياتنا هذه، وقرأ له بعض الآيات والروايات، ثمّ قال له: إذا كنت قد فقدت أباك فأنا أبوك، وإن كنت فقدت إخوتك فهذا ولدي جعفر أخوك ـ كان جعفر واقفاً عند الباب ـ بل جميع هؤلاء إخوتك.

كان هذا الشاب يُصغي للسيّد الشهيد وقد أخذت هذه الكلمات الموشّحة بأرقّ العواطف والمشاعر مأخذاً من قلبه، وبدأت ابتسامة ترتسم على وجهه، فأحسّ بالراحة والاطمئنان.

ثمّ أمر (رضوان الله عليه) بإحضار العشاء، وأظنّ أنّه اشترك معنا، وبعد ذلك خرج الشاب وقد اطمأنّت روحه وسكنت نفسه، وكأنّه لم ينكب بمصيبة كبيرة.

وفي ختام هذا الموضوع الذي لم أقصد به إلّا ذكر بعض الإثارات عن هذا الجانب من شخصية السيد الشهيد أودّ أنّ أُسجّل النص التالي الذي كتبه ﵀ وهو يتعلّق بموضوعنا هذا باعتباره وثيقة هامّة للدارسين والباحثين. وهذا النص يؤكد أنّ الاهتمام والرعاية من قِبل السيّد الشهيد الصدر يتجاوز مسألة الانتماء الطائفي والمذهبي إلى آفاق الإسلام الكبيرة، وإذا كان البُعد المذهبي يشكّل رابطة قويّة في أحيان كثيرة بين أبناء المذهب الواحد فإنّ البعد الإسلامي يجب أن يكون الإطار الأكبر في تقوية تلك الروابط بين أتباع تلك المذاهب، لأنّهم جميعاً يشكّلون الأُمة الاسلامية. ومن هذه الرؤية نرىٰ السيّد الشهيد الصدر يجيب أحد المستفتين عن سؤال حول وجوب الدفاع عن المسلم السني إذا تعرّض لخطر. ونصّ السؤال هو: هل يجب الدفاع عن المسلم السني إذا هجم عليه الكافر أو تعرّض له بخطر؟ وهل يُعتبر المدافع شهيداً إذا قتل في هذا الدفاع؟ ويجيب (رضوان الله عليه) بما يلي:

«ج ٢ يجب الدفع والدفاع مع الأمن من الضرر بلاشكّ، ويجوز مع احتمال الضرر والأمن من الهلكة بل يجب أيضاً، وأمّا في حالة التعرّض للهلكة

واحتمالها بدرجة معقولة فالأحوط تجنّب المرتبة التي تعرّض الإنسان للهلكة والموت مادام الهجوم على الغير ذا طابع شخصي»[١].

إنّ هذا الأمر يؤكّد الرؤية التي أعتقد أنّ الشهيد الصدر كان مؤمناً بها عن الأُمّة الإسلاميّة وضرورة الاهتمام بكلّ أبنائها سنّة وشيعة ملتزمين أو غير ملتزمين.

إنّ الاهتمام بذاته يمثّل أفضل دعوة للإسلام وإلى الالتزام بأحكامه وتعاليمه، والعودة إليه بعد الشرود عنه.

وفي نهاية هذا الموضوع أودّ أن أُسجّل نصّ الرسالة التي بعثها الى خادمه الوفي المخلص محمد علي محقّق الذي عُذّب بأيدي الظالمين في بيت السيّد الشهيد أثناء الاعتقال الأوّل الذي تعرّض له (رضوان الله عليه) فإنّها تؤكّد ماسبق أن ذكرته من أنّ رؤيته لأبناء الأُمّة رؤية سواء لافرق فيها بينهم إلّا بالتقوى، والرسالة بنفسها آية من الآيات الأخلاقية التي يجب أن تتّسم بها شخصيّة كل قائد، يقول (رضوان الله عليه):

١٥ محرم ١٣٩٦ [١٩٧٦]

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

جناب الوفي الزكي والمؤمن المهذّب النقي محمّد علي حرسه الله بعينه التي لاتنام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد: فقد تسلّمت رسالتكم الكريمة وكنت في تلهّف للاطلاع على أحوالكم واستقراركم ففرحت بالرسالة كثيراً وحمدت المولىٰ سبحانه وتعالى على وصولكم وسائر أفراد العائلة صحيحين سالمين. وعلم الله أنّ ذكرك وصورتك في قلبي، والبرّاني بكلّ مافيه يذكّر بك وبنبلك وأمانتك. فأنت لم

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٣٥).

تكن خادماً للبرّاني وإنّما كنت إبناً من أبنائه البارّين، وولداً من أولاده المخلصين، أعادك الله إليه على أفضل حال بجاه محمّد وآله الأطهار. وإنّي على أيّ حال وفي جميع الأحوال حاضر لما أقدر عليه من عونك ومساعدتك، وإنّ ولدنا آقاي أبو أحمد حفظه الله تعالى بمكنك أن تلجأ إليه كلّما احتجت إليّ.

إنّ الرفقاء والعائلة جميعاً يذكرونك بأفضل الذكر وأُعطره ويشعرون بالوحشة لسفرك، وولدنا محمد جعفر حينما اطّلع على أنّ الرسالة منك أهوىٰ عليها بفمه وأخذ يقبّلها وهو يناديك وقلبه الصغير ممتلئ حباً ووفاءاً لك وثناءاً عليك.

أرجو أن لا تقطع أخبارك عنّا لنكون في اطمنان عليك وعلى صحّتك واستقرارك والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعلى والدكم الجليل وعلى سائر إخوتكم ومن يتعلّق بكم خصوصاً أخيكم الكبير ثقة الاسلام الشيخ حسن على محقّق حفظه الله ورعاه. وفي الحقيقة أنّ ماتذكرونه أيّها الأوفياء من الشكر لاموجب له لأنّا لم نقم إلّا بما يجب. وفّقنا الله تعالى لخدمتكم جميعاً وأسبغ عليكم من نعمه وآلائه وبركاته ما هو أهل لذلك وهو أرحم الراحمين

محمد باقر الصدر».[١]

سيرته مع وكلائه

يشكّل الوكلاء ركناً أهمّ أركان كلّ مرجعيّة ومرجع، لما لهم من دور كبير على صعيد العمل الديني والاجتماعي وسوف نتحدّث على هذا الأمر في موضوع (المرجعيّة والحوزة في حياة السيّد الشهيد) بشيئ من التفصيل، أمّا هنا فنريد أن نتحدّث عن سيرة السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) مع وكلائه وعلاقته بهم ورؤيته لهم.

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٣٦).

وأستطيع أن أؤكد بحسب ما أعرف عن هذا الموضوع، وكذلك على ضوء الوثائق الخطيّة الموجودة أنّ للسيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) سيرة خاصة ومنهجاً فريداً في اسلوب تعاونه مع وكلائه وعلاقته بهم، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى إدراكه التام لأهمّية الوكيل ودوره الكبير في مجال التبليغ الديني من جانب، وإلى فهمه (رضوان الله عليه) للظروف الاجتماعيّة والسياسيّة هذا الفهم الذي يبلور في أحيان كثيرة رؤية المرجع وتصوّراته عن شتىٰ المواضيع من جانب آخر.

إنّ العادة الجارية المألوفة والتي تعتبر رؤية كلاسيكيّة، أنّ الوكيل عبارة عن ممثّل للمرجع لاتتعدىٰ مهمّته سوىٰ تعليم الأحكام الشرعيّة التي تعبّر عن اجتهاد مرجع التقليد في رسالته العمليّة، أو استلام الحقوق الشرعيّة وأمثالها، أو بعض النشاطات الأُخرىٰ كإثبات رؤية هلال شهر رمضان وشوّال أو عقود الزواج والطلاق وغير ذلك وبعض النشاطات الاجتماعيّة. والذي يحدّد مستوىٰ العلاقة بين المرجع ووكيله ورقة الوكالة الممنوحة له، وما سوىٰ ذلك فأمر مسكوت عنه لأسباب لانريد الخوض فيها.

وليس ما تقدّم نقداً للمراجع فإن تعليم الأحكام أو استلام الحقوق وأمثال ذلك من وظائف الوكيل وواجباته وإنّما الفرق في الرؤية والعلاقة بين المرجع والوكيل وأنّ هذا دوره فقط أم أنّ له وظائف ومهمّات أُخرىٰ لعلّها تفوق في أهميّتها ما تقدّم.

ويمكن تلخيص رؤية السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) لهذا الموضوع بالنقاط التالية:

١ ـ حرص السيّد الشهيد الصدر على إدخال عنصر العاطفة في العلاقة بينه وبين وكلائه بالقدر الذي تسمح به كلّ حالة فتجد كلمات وعبارات من مثل (عزيزنا، قرة عيني، ولدنا) وأمثال ذلك بالإضافة إلى العبارات المألوفة في عرف

الحوزات العلميّة. وأعتقد أنّ لهذه الكلمات تأثير نفسي كبير على مستوى الانشداد والارتباط الديني والروحي، والتفاعل الميداني للعمل من أجل الإسلام. وليس هذا الأُسلوب مبتكراً إذ أنّ الأئمة عليهم الصلاة والسلام قد استعملوه مع أصحابهم كما في كلمة الإمام علي عليه السلام بشأن محمّد بن أبي بكر حيث قال (محمد ابني من صلب أبي بكر). [١] وعن هذا المحتوىٰ العظيم لاحظ مجموعة من الوكالات التي اثبتناها في آخر الكتاب والتي تضمّنت أمثال هذه العبارات، لأنّها تعبّر عن رؤية عاطفيّة نموذجيّة في العلاقة بين المرجع ووكلائه.

٢ ـ ونلاحظ من مجموع الوكالات التي صدرت منه الحرص الشديد على إعطاء الوكيل دوراً قياديّاً دينيّاً واجتماعيّاً. فالوكيل ليس عبارة عن ورقة محدّدة بمجموعة من الأعمال والنشاطات الروتينيّة وكنموذج لذلك ماكتبه بشأن سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد عبد الكريم القزويني (حفظه الله) فإنّه ـ رغم عدم اشتماله على الوكالة بالمعنى المصطلح ـ لم يكتف فيه السيد الشهيد (رضوان الله عليه) بالمألوف من العبارات ولم يتحدّد بها، بل تجاوز ذلك إلى تشخيص الدور الحقيقي للعالم الديني والوكيل الحقيقي للمرجع، فهو معقد الآمال في خدمة الدين، وهو القدوة، وموضع الاستفادة والإرشاد والتوجيه ونصه كما يلي:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

وبعد فإنّ عزيزنا ثقة الإسلام العلاّمة السيّد عبد الكريم القزويني حرسه الله تعالى بعينه التي لاتنام من أعلام الطلبة في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف وممّن نعقد الآمال عليه في خدمة الدين الحنيف وتبليغ أحكامه ونشر حلاله وحرامه، لما نعرفه فيه من ثقافة وفضل وورع وتقوىٰ وإخلاص ووعي، وإنّ

١ ـ البحار ج ٤٢ ص ١٦٢.

حلوله بين ظهرانيّ جماعة من المؤمنين يتيح لهم فرصة ثمينة الالتفاف حوله والاقتداء به والاستفادة ـ منه ـ والاسترشاد بإرشاداته وتوجيهه. فنسأل المولىٰ سبحانه وتعالى أن يرعاه ويسدّد خطاه ويتقبّل أعماله ويحقّق على يديه الفوائد الجليلة للدين الحنيف إنه ولي التوفيق.

محمد باقر الصدر»[١]

إنّ عبارات من هذا القبيل ليس المراد منها نوعاً من التبجيل والتكريم القائم على أُسس موضوعيّة فقط وإنّما إشعار الوكيل بدوره القيادي في المجتمع ومهامّه الكبيرة التي لاتنحصر باستلام الحقوق الشرعيّة والأثلاث وأمثال ذلك. فالعمل الديني مسئوليّة شرعيّة أكبر من أن تحدّد بنماذج محدودة من الأعمال بل هي أكبر من ذلك بكثير.

يقول (رضوان الله عليه) في رسالة له إلى سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد عبدالله الغريفي حفظه الله «ولشدّة عنايتنا واهتمامنا بما تتحمّلونه من المسؤوليّات الدينيّة قد حرّرنا الوكالة من جديد وستجدونها مرفقة مع هذه الرسالة...»[٢] فهي إذاً المسؤوليّة الدينيّة التي يجب أن يؤدّيها أو يتحمّلها القائد وليس كل أحد.

إنّ هذا الأُسلوب في التعبير كما أنّه يبيّن دور الوكيل ويعبّر عن شخصيّته القياديّة فإنّه في الوقت نفسه يُشعر الأُمّة بأهميّة هذا الدور وخطورته. فلا يصحّ على ضوء ذلك أن تكون النظرة إليه محدودة بنوع من الأعمال والواجبات بل يجب أن تكون النظرة إليه شموليّة بحسب ما يراه المرجع الديني نفسه.

٣ ـ من الأُمور التي تثير الاهتمام منهجيّة وأُسلوب السيّد الشهيد في تعامله مع وكلائه. وأستطيع أن أقول: إنّه أوّل من فتح باب المناقشة والنقد الصريح الذي

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٣٧).
٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٣٢) وقد مضى ذكر مقطع منها.

قد يكون لاذعاً في بعض الأحيان بينه وبين وكلائه إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام.

إنّنا كثيراً ما نسمع عن حوادث تأنيب أو عتاب تصدر من المرجع مع هذا الوكيل أو ذاك، وهو أمر طبيعي لأنّ المرجع مسؤول ضمناً عن أعمال وتصرّفات وكلائه، أمّا أن يقع العكس فهو أمر نادر جداً. والأهمّ من ذلك كلّه تقبّله للنقد بغضّ النظر عن كونه صحيحاً أم لا، أو متقيّداً بحدود الأخلاق العامّة أم لا.

والأهمّ من ذلك كلّه أنّ السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) لا يرتّب أثراً سلبيّاً يكون بضرر هذا الوكيل أو ذاك. فهو يعتقد أنّ ما صدر منهم من مواقف سلبيّة سببه إمّا شبهة وقعوا فيها، أو عدم إدراك صحيح للواقع. ولايعتبر ذلك انحرافاً دينيّاً، ولم يجعل الولاء له مقياساً للاستقامة أو الانحراف، وقد يبلغ تطرّف بعض طلّابه إلى حدّ السب والاتهام كما نقل سماحة السيّد الحائري ومع ذلك لايرىٰ أنّ ذلك انحرافاً عن الإسلام وإنّما يعتبره مجرّد وقوع في شبهة أدّت إلى ذلك، وهو مع ذلك يبقىٰ ملتزماً بنهج أخلاقي رفيع فلا يصدر منه ردّ فعل انفعالي. وهذه الحقيقة يشهد له بها كلّ عدوٍ وصديق.

إنّ هذه الأخلاقيّة الرائعة تكشف عن قناعة السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) بوكلائه وممثّليه على أساس أنّهم دعاة الرسالة وقادة الأُمّة. وأعتقد ان العمليّة كلّها تجري في إطار إيجاد جوّ تربويّ مفتوح وتفاعل حقيقي بين المرجع ووكلائه وسبق أن ذكرنا نموذجاً لذلك وهو رسالة الوكيل الذي انتقل من كويت إلى القاهرة. ولإعطاء رؤية موثّقة وكاملة عن هذا الموضوع نذكر نموذجاً آخر وملخّص هذا الموضوع هو أنّ السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) رغب بعد وفاة أخيه المرحوم آية الله السيّد إسماعيل الصدر الذي كان وجوده يشكّل ثقلاً كبيراً للإسلام في الكاظميّة، أن يكون ولده سماحة السيّد حسين الصدر مكان أبيه

ليواصل المسيرة نفسها مستفيداً من التركة الاجتماعيّة لأبيه التي لا يمكن أن يرثها غيره. أدرك السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) أنّ القضيّة تحتاج إلى جهد كبير يحقّق لها النجاح فقرّر أن يلقي بثقله في الميدان ويسعىٰ إلىٰ إنجاح هذا المشروع بما يتاح من إمكانيّات. ولندع السيّد الشهيد يتحدّث عن تفاصيل هذا الموضوع ورؤيته عنه وأهميّته، ثمّ لنرىٰ بعد ذلك ما حصل له من أحد وكلائه وكيف تعامل معه ويظهر أنّ هذا الوكيل كتب رسالة نقديّة للسيّد الشهيد (رضوان الله عليه) ذكر فيها ما يتعلّق بهذا الموضوع فأجاب (رضوان الله عليه) بما يلي:

«بسمه تعالىٰ

عزيزي وعضدي المفدّىٰ لاعدمتك ولاحرمتك. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته لا أستطيع أن أقول شيئاً في خضمّ الآلام التي لا تطاق لولا الإيمان بالله، والآمال الضخمة التي انهارت في لحظة، والصرح الذي تداعىٰ، والجزء الذي تفتت من وجودي وخطي وكياني، هذا الجزء الذي كان لي أخاً في الدم أباً في المعنىٰ، وشريكاً في الخط، ورفيقاً في الألم والأمل ،وملجأً في الشدائد ،وعضداً في كل ملمّة وكياناً متمّماً للكيان الكبير.

أقول لا أستطيع أن أقول شيئاً في خضمّ تلك الآلام سوىٰ كلمة واحدة أستمدّ منها شيئاً من التسلية والرضا المنطقي، وهي أنّ الحياة التي تزخر بالألم تهون على الإنسان في مجال التضحية والفداء.

إنّ العذاب الذي قدّر لحياتي أن تمتزج به والتمزّق الذي قدّر لقلبي أن يعيشه سوف يمدّني بقدرة أكبر علىٰ التضحية بتلك الحياة المتمزّقه المتوهّجة بالألم. وهكذا كلّ إنسان يعيش حياة الألم يكون أقدر علىٰ التسامي والتضحية لأنّه يضحّي بحياة زاخرة بالمنغّصات، والحمد لله ربّ العالمين وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

كنت أعيش الجانب العاطفي من المصاب، وأعيش العقلي منه معاً، وعلى

مستوىٰ الجانب العقلي بدا لي من اللحظة الأُولىٰ أنّ التخطيط كلّه تحطّم، وأنّ الجهود العظيمة التي بذلت خلال عشر سنوات لإقامة هذا الكيان ليساهم في البناء الشامل للوضع الديني قد صدمت صدمة كبرىٰ. وقد خرّ الإنسان الذي سلّطت الأضواء كلّها عليه شهيداً أو كالشهيد في لحظة انفجرت فيها كلّ تراكمات الألم في سبيل العمل الإسلامي قبل أن يؤتى الكيان كلّ ثماره، ولم يكن هناك أيّ اهتمام خلال السنين السابقة لإبراز وجودنا بشكل مباشر اكتفاء بالوجود الآخر المنسجم مع الخطّ والفكر والنتيجة، حتّىٰ أنّ أكثر الأشخاص الذين كانوا يدورون في فلك زعامة الجامع الهاشمي في أرجاء المنطقة لم يكونوا يحملون عنّا أيّ مفهوم، إذ لم يكن من الضروري للإسلام تكوين هذا المفهوم بعد أن كان تكوينه عن السيّد الأخ يغني في النتيجة عن ذلك. وقد شعرت أنّ الفراغ الكبير الذي خلّفه المصاب في نطاق العلاقات الضخمة الواسعة في المنطقة سوف يملأ بالتدريج إذا ترك ونفسه بالبدائل الجاهزة في الكاظميّة المتمثلة في بقيّة المعمّمين، وهولاء حينما يتقاسموا التركة ويملأوا الفراغ سوف يملأونه بأذواقهم وأفكارهم وطريقة تفكيرهم في الإسلام وتقييمهم للأشخاص والأحداث، وبذلك نخسر كلّ شيئ. ولهذا كان من الضروري في نظري لتفادي المشكلة أو جزء كبير منها من أمرين:

الأوّل ـ السعي لتكوين مفهوم عنّا ينسجم مع مستوىٰ العمل الإسلامي المطلوب، ومع متطلّبات مستقبل المرجعيّة.

والثاني ـ إبقاء صورة المركز في جامع الهاشمي لينعكس عليه ذلك المفهوم ويتفاعل معه، لأنّ إبقاء صورة المركز شرط في إيجاد ذلك المفهوم وشرط في كيفيّة استثماره وتفاعل الأُمّة معه.

والأمر الأوّل بحاجة إلى تخطيط ،وأمّا الأمر الثاني فكانت هناك صور، الأُولى: أن يقدّم شخص من مستوى الفقيد الحبيب اجتهاداً وعلماً وشهرة ومقاماً في النجف. وهذه الصورة لاتحقّق الغرض الديني، إذ ـ بقطع النظر عن

إمكانيّة تحصيل شخص من هذا القبيل أوعدمها ـ إنّا لانملك شخصاً على هذا المستوىٰ يعيش نفس الخط كما كان السيّد الأخ يعيشه، وإذا ترك الاختيار للأجهزة الحاكمة في النجف فقد تختار فرداً على هذا المستوىٰ من أعداء الخط وبذلك نخسر كلّ الجهود العظيمة التي بذلت سنين متطاولة. والصورة الثانية: أن يستقدم شخص من الشباب على مستوىٰ السيّد نوري الإشكوري والشيخ عبد الهادي فضلي مثلاً، ونحن نملك على مستوىٰ الشباب من يكون منسجماً على الخط، ولكن شابّاً من هذا القبيل لايملك العناوين الضخمة والرصيد لايمكن أن يستقطب و لا أن يرث شيئاً ذا قيمة من التركة الكبيرة ،بل سوف يؤخذ على أمره ويسبقه إلى كلّ شيء البدائل الجاهزة في البلد. وبذلك يتفتّت الكيان، ويجب أن يبدأ هذا الشاب عمله منذ البداية فاقداًكلّ الأسلحة التي كان الكيان يملكها من اجتهاد وشهرة ومقام راسخ لدىٰ المرجعيّة، وارتباط تاريخي وعائلي بالكاظميّة إلى آخر ما هناك.

الصورة الثالثة: أن يقدّم شخص يملك الرصيد العاطفي بوصفه امتداداً للفقيد بحيث يستطيع بهذا الاعتبار أن يُبقي صورة المركز، ونحتفظ بسبب ذلك بالأرضيّة التي نستطيع من خلال الاحتفاظ بها بقيّة مختلف القوىٰ لجعلها تمارس دورها المطلوب في خدمة الإسلام والحوزة. فالرصيد العاطفي الذي شهد أبناء الخمسين وأبناء الستين أنّهم لم يشهدوا له نظيراً، كان يفرض حلاً من هذا القبيل، وقد تجسد هذا الحل في عناصر ثلاثة:

العنصر الأوّل ـ إشغال المركز وامتصاص الرصيد العاطفي الهائل بتقديم ابن الفقيد، وقد قدّم السيّد حسين دون السيّد محمد الذي اقترحتموه او السيّد حسين الآخر لعدّة اعتبارات، منها: أنّ الظروف الموضوعيّة أوضحت أنّ الشخص الوحيد الذي تسلطت كلّ الأضواء العاطفيّة عليه هو ابن الفقيد والاندفاع الشديد من مختلف الطباقات التي كانت تدور في فلك سيّدنا الأخ دلّل على ذلك بوضوح. هذا إضافة إلى أُمور أُخرىٰ لايمكن أن أستوعبها في

هذه الرسالة...

العنصر الثاني ـ استدعاء السيّد نوري الإشكوري من النجف بعنوان ملأ الفراغ العلمي في جامع الهاشمي، فالأرضيّة التي احتُفظ بها بسبب العنصر الأوّل تهيّئ الجوّ المناسب للسيّد نوري، ونحن نخطّط الآن بصورة جادّة لتهيئة ظروف لحوزة حقيقيّة في الكاظميّة تكون قاعدتها جامع الهاشمي بمسؤوليّة السيّد نوري وإشراف كامل منّا، وسوف تسلّط الأضواء علىٰ السيّد الإشكوري بوصفه أُستاذاً فاضلاً لكي يحتلّ من الفراغ القدر الذي يتاح له، ولكي يكون له من الوزن ما يجعل له تأثيراً في تقييم المرجعيّة حاضراً ومستقبلاً.

العنصر الثالث ـ التفقّد الأُسبوعي من قبلي بمعنىٰ حضوري ليلة الجمعة ونهار الجمعة من كلّ أُسبوع في الكاظميّة، ليساهم هذا الحضور في تكوين المفهوم الجديد بما يهيّئ من لقاءات، وليكون شرطا في إنجاح المساعي الأُخرىٰ لتكوين هذا المفهوم والإشراف على التخطيط بصورة كاملة.

هذه خلاصة الموقف في خضمّ المحنة، وأهمّ شيّ في إنجاح التخطيط التعاون في تكوين ميزانيّة محترمة للحوزة التي من المأمول أن تكون قاعدة العمل الديني في المنطقة كلّها، وبالرغم من أنّي قد أقدمت أنا شخصيّاً الآن على تغطية نفقات التخطيط والتعهّد براتب للسيّد الإشكوري الذي لايقلّ مع إيجار البيت عن أربعين ديناراً شهرياً، بالرغم من هذا أشعر أنّه لابدّ من التفكير لضمان الموقف عن طريق آل البهبهاني من ناحية، وعن طريق الأصدقاء في المنطقة والمؤمنين من ناحية أُخرىٰ.

أشعر الآن ياعزيزي بإعياء شديد ولهذا سوف أكتفي بهذا القدر والسلام عليك

محمد باقر الصدر [1]»

لقد أوضح (رضوان الله عليه) في رسالته هذه بمالايدع مجالاً للشكّ كلّ التفاصيل

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٣٨).

الضروريّة، والأهداف الحقيقيّة من اهتمامه بجامع الهاشمي، وأنّ الغرض ليس هو استمرار ذكرىٰ أخيه المرحوم السيّد اسماعيل الصدر والمحافظة على مكانته من خلال تعيين ابنه سماحة السيّد حسين السيّد اسماعيل الصدر في جوّ من الأسريّة اللامبرّرة، وإنّما لأنّ المسجد باعتباره مركزاً مهمّاً، وأنّ الاحتفاظ بالزخم العاطفي لنجل المرحوم السيّد اسماعيل يضمن نجاح العمل، هذا العمل الذي لايراد به إلّا خدمة الإسلام.

ولكن يبدو أن وكيله هذا لم يكتف بهذه التوضيحات واعتبر كل تلك المبرّرات غير كافية أو أنّه لم يكن قد تسلّم بعد هذه الرسالة، فأرسل رسالة أُخرىٰ وإن كنّا لانملك نصّها ولكن يبدو أنّها كانت قاسية جدّاً، ويظهر ذلك بوضوح من الرسالة الثانية للسيّد الشهيد نفسه فإنّها حملت روح تلك المضامين القاسية التي اتهمته فيها بالانحراف، والرسالة هي كما يلي:

«بسمه تعالى

عزيزي المعظّم كنت قد أرسلت إليكم رسالة قبل يومين عن طريق النجف، واليوم تسلّمت رسالة منكم حملها لي الشيخ طالب الصيمري، وأنا أتصوّر أنّ الرسالة التي كتبتها إليكم يمكن أن تجيب إلى حدٍ كبير على الرسالة التي تسلّمتها اليوم منكم ولكنّي مع هذا سوف أُحاول أن أقول شيئاً.

قرأت رسالتك مراراً عديدة، وأظنّ أنّها تركت في نفسي نَفسَ ما تركه في نفس الإمام أمير المؤمنين قولُ عضده المجاهد مالك الأشتر حين رآه قد ولّىٰ أولاد عمّه على أمصار المسلمين فقال: على ماذا حاربنا الشيخ بالأمس؟.

أنا أظنّ أنّ الشعور الذي تركه كلام الأشتر في نفس صاحبه هو شعور الارتياح الممزوج بألم عنيف، أو هو الألم الممزوج بالارتياح. ارتياح لأنّ في الأصحاب من يراقب ويسدّد، وألم نتيجة لرغبة الشخص في أن يحيط أصحابه بوجهة نظره كاملة غير منقوصة، هذا مع فارق في المسألة كبير بين صاحبك

وصاحب الأشتر، وهو أنّ صاحب الأشتر معصوم، والوضوح لديه وضوح على مستوىٰ الحس المطلق، وهذا يؤكّد ألمه من ناحية حين يشكّ الأشتر فيه ويخفّف من ألمه من ناحية أُخرىٰ لأنّ الوضوح الحسي لعمله خير عزاء وسلوة له.

نعم قد تألّمت ألماً ممزوجاً بالارتياح وقد أكون متسامحاً في كلا التعبيرين حين أفترض أني تالّمت وحين أفترض أنّي ارتحت لأنّي أعيش دوّامة ألم غير محدّد، ويملأ كلّ وجودي، فلا أدري كيف يدخل إلى نفسي ألم جديد أو ارتياح في خضمّ ذلك الألم ولاحول ولاقوّة الّا بالله.

هناك نقطتان في رسالتك يا عزيزي أجدني مضطراً بحكم وضعي أن اختصر في الجواب عليها، أمّا إحدىٰ النقطتين فهي الخطر الذي تراه ناجماً من صيرورتي عالماً لجامع الهاشمي يومين أو نصف يوم، وهذا الخطر أُؤكّد لك أنّه لا وجود له، إذ لا توجد هناك أيّ فكرة عندي إطلاقاً لصيرورتي عالماً يومين أو نصف يوم في جامع الهاشمي، لأنّ العالميّة في الجامع أو البلد تتمثّل في صلاة الجماعة أو التدريس أو أيّ نشاط من هذا القبيل مرتّب، وأنا مقرر لعدم القيام بأيّ عمل من هذا القبيل، نعم هناك شئ اسمه التفقّد الأُسبوعي، وهذا شئ أراني ملزماً به ولو لم يخلق الله جامع الهاشمي وفاءً لأبسط حقوق أخي التي تفرض عليّ ان أتفقّد عائلته في كلّ جمعة، وفي خلال هذا التفقّد سوف أُشرف طبعاً على سير العمل الديني في الجامع، وأُوثّق العلاقات على مستوىٰ عالم نجفي بالمؤمنين، وهذا مالايشكّل خطراً، نعم هذا سوف يعيق عن بعض الفوائد التي يمكن أن تحصل في يوم الجمعة على صعيد الحوزة في النجف، إلّا أنّها إعاقة موقّتة وفيها ملاك أقوىٰ من تلك الفوائد، وسوف يستمرّ هذا التفقّد منّي إلى أن تعود إلى عائلة أخي حياتها الطبيعيّة من الناحية النفسيّة وإلى أن يتفاعل السيّد نوري والسيّد حسين ضمن الوضع الديني بالشكل الذي يؤدّي إلى ملأ أكبر قدر ممكن من الفراغ.

وأمّا النقطة الأُخرىٰ فهي نقطة الأُسريّة والوراثة، وهذه النقطة تارة تُعرض

على مستوىٰ الاتّهام الثبوتي، أي اتهامي بالانحراف ثبوتاً، وأُخرىٰ تُعرض علىٰ مستوىٰ الاتّهام الإثباتي، أي أنّ هذا العمل يفسح المجال للاتهام، فإن كنت يا عزيزي تعرض ذلك على المستوىٰ الأوّل فجوابه مفصّلاً قد شرحته في الرسالة التي أرسلتها قبل يومين إليك، فإنّي رأيت أنّ الاحتفاظ بالرصيد الضخم الذي تركه فقيدي الحبيب بالشكل الذي ينسجم مع حاجة الدين يتوقّف على مزج عنصرين أحدهما بالآخر وهما السيّد حسين والسيّد نوري، علىٰ أن يقوم كلّ منهما بالدور الذي تمليه عليه طبيعة الموقف وطبيعة شروطه وظروفه وكلّ التصورات التي طبّقت كانت موضوعيّة بالاتفاق مع أشخاص يعيشون الرسالة كما أعيشها ويعيشون ظروف المنطقة أكثر مما يعيشها أنت، ويقدّرون أهميّة التركة التي تركها السيّد الأخ. إنّ الاعتراف بقوى واقعيّة أمر لابدّ لنا منه، وأنا أذكر أنّي قلت للشيخ مهدي بن الشيخ محمد الخالصي حينما لم يكن معمّماً وكان منسجماً كلّ الإنسجام، قلت له: إنّك لابدّ أن تتعمّم لترث هذا الكيان لأنّ الرصيد التاريخي والعاطفي لهذا الكيان لايمكن أن يرثه غيرك فإذا لم تعمّم فسوف يذهب هدرا من حساب الدين.

هناك كلمات كثيرة لاأستطيع أن أكتبها لكنّي بشكل عام أطلب منك أن لاتنساق مع العاطفة وتحكم بهذا الشكل السريع البات، إنّ المفاهيم النظريّة وحدها لاتكفي أساساً للعمل ما لم تؤخذ كلّ الظروف بعين الاعتبار. إنّ امتلاك مركز ديني في المنطقة هنا أعتبره في غاية الأهميّة، وكان الأُسلوب الوحيد هو ما وقع.

وأمّا عرض النقطة على المستوىٰ الثاني فأنا معك في أنّ التفسير اللارسالي يتبادر إلى ذهن الكثير، ولكن ماذا نصنع وقد حكمت الظروف بذلك، وهذا الانعكاس سوف يخفّفه من ناحية شرح واقع الظروف في نطاق المحبّين، و يخفف من ناحية أُخرىٰ التفاعل المثمر الذي سوف يتحقّق بالمجموع المركّب من السيّد الإشكوري وسيّد حسين ووضوح كامل جوانب الموضوع.

وأمّا ما نقلتموه من أنّ بعض الحاشية يرجّحون انتقالي إلى بغداد، فإن كنتم

تقصدون من ذلك جماعة السيّد [١] فأنا لم أُحس بهذا بل أحسست من الأصدقاء جميعاً الحرص الشديد على وضعي النجفي وفي مقدّمتهم أبو صادق وأبو صالح.

وهكذا نعرف يا عزيزي أنّ المسألة ليست هي مجرّد إرضاء آل الصدر أو إرضاء السيّد دام ظلّه وإن كان كلّ من هذين الإرضائين في غاية الأهميّة في نظري لكن لم يكن يتوقّف تحصيله على ما وقع. وليست المسألة أن لاتجوع عائلة أخي، وإن كانت هذه المسألة لاعتبارات وفاء معيّنة أعزّ عليّ من أن أفقد كلتا عيني لكن لم يكن يتوقّف حلّها على ما وقع. وإنّما المسألة هي ماشرحتها لك، وأحسّ بأنّي عاجز الآن عن كتابة المزيد وإن كان هناك مزيد» [٢]

ومهما يكن من أمر فإنّ تقبّله للنقد واستعداده لتوضيح خلفيات القضيّة ودوافعها ومن ثمّ تحمّل المسؤوليّة في عدم اتخاذ موقف سلبي بحجم النقد، كلّ ذلك يدلّل علىٰ نهج متميّز في نظرته إلى وكلائه.

هذه نماذج أردنا منها أن تعكس صورة تقريبيّة لهذا الجانب من شخصيّة الإمام الشهيد الصدر (رضوان الله عليه)، وأعتقد أنّه أكبر من ذلك بكثير فإنّ من عاش معه وعرف تفاصيل حياته يعرف أنّ ذلك قليل ولايعبّر تعبيراً كاملاً عن الواقع.

سيرته مع أُسرته وأهل بيته

لست مبالغاً إذا قلت: إنّ للسيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) في سيرته وأُسلوبه وخطابه الأخلاقي مع أسرته، وأعني آل الصدر ـ أيّدهم الله ـ وأهل بيته وأعني زوجته المكرّمة و أبناءه ووالدته وأُخته الشهيدة تميّزاً خاصّاً لم أرَ مثله فيما أعرف. وإذا كانت مشاعر القربىٰ الفطريّة تفرض نوعاً من السلوك الأخلاقي

١ ـ يقصد بالسيد المرحوم آية الله العظمى السيد محسن الحكيم ﷺ.
٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٣٩).

المتميّز والعلاقات الحميمة، والمحبّة والمودّة فإنّي أعتقد أنّ السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) كان إلى جانب ذلك حريصاً على إعطاء تلك العلاقات طابعاً هادفاً يخدم من خلاله ما يؤمن به من كون القائد يجب أن تكون له خصوصيّات إيجابيّة نموذجيّة بحيث يكون قدوة للآخرين .

والحقيقة كان بودّي أن أكتب هذا المقطع من دون تعليق إلّا أنّني كنت أُجرّ جرّاً لتسجيل هذه الحقيقة بدافع كان أقوىٰ من رغبتي. ولعلّ معايشتي لبعض جوانب حياته الشخصيّة والعائليّة ومعرفتي بدوافعه الحقيقيّة كان هو السبب، فإنّني لم أشهد نموذجاً يمتلك نفس الروعة والجمال في أُسلوب التعامل الأخلاقي والسيرة المتميّزة، وكان في كلّ ذلك يجعل للهدف المقدّس حظّاً وافراً ونصيباً كبيراً.

١ ـ مع أُسرته الكريمة:

ولنقف أوّلاً مع سيرته من أُسرته الكريمة (آل الصدر) ولنأخذ مستوىٰ علاقته مع واحدٍ منهم وهو المرحوم آية الله السيّد رضا الصدر (رحمه الله) ولنرىٰ أُسلوب تعامله وتخاطبه الرفيع البعيد كلّ البعد عن المجاملة والتصنّع.

كتب إليه (رضوان الله عليه) رسالة جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

سيّدي المفدّىٰ وملاذي المعظّم، بنفسي أنتم وبروحي جلسة أجلسها بين يديكم فأشمّ من عبيركم عطر الآباء والأعمام والأجداد، وأشعر بالروح والارتياح في ظلالكم الوارفة ،وأنهل من نميركم العذب. وعلم الله يا بقية الماضين وثمال الباقين أني كلّما ألتفت إلى تلك الأيّام التي عشناها معاً، وعشناها قبل أن أفقد طودي وأخي أكاد أتحرّق، ويكاد قلبي يتمزّق،

فواحسرتاه على اجتماعاتنا الثلاثيّة التي لم أكن أشعر بأنّها سوف تسلب مني بهذا الشكل المرير، وا أسفاه على أيام مضت وليال خلت كنت أعيش فيها وأنا مغترّ ولا أدري ماذا يخفي الدهر لنا.

كثيراً ما أصعد إلى الغرفة الفوقيّة أستذكر تلك الساعات الحبيبة التي كنت سعيداً فيها بقربكم، وأحاول أن استرجع تلك النسمات ولكن هيهات.

كثيراً ما أقف أمام الدار التي كان السيّد الأخ يسكنها في النجف في هذه الأيام، وإنّما أخصّ هذه الأيّام لأنّها الأيّام التي أتاحت لنا قبل سنين أن نجتمع ثلاثياً في تلك الدار وفي هذه الدار.

سيّدي إنّ الكلمات تجمد على شفتيّ وتتحوّل إلى دموع، ولا أدري لماذا دخلت في هذا الحديث وأنا المتماسك بقدر الإمكان، أظنّ أنّي خيّل لي وأنا أكتب هذه السطور أنّي بين يديك ومن أولى منك يا بقيّة الماضين وثمال الباقين أن أشكو إليك أشواقي الضائعة وهمومي وآلامي، من أولى منك يا بقيّة الماضين وثمال الباقين أن أسمح لنفسي معه بالانطلاق على سجيّتها فأبكي بين يديه على ذلك الجمع الذي تشتّت، وتلك الأيّام التي تصرّمت، وأنا الذي أُمسك بلجام نفسي دائماً لكي لا تضعف...»[1]

ويكتب له رسالة أُخرى وكانت بعد عودة المرحوم السيّد رضا الصدر من العراق إلى إيران بعد أن سمحت السلطات العراقيّة والإيرانيّة بتبادل الزيارات بعد فترة انقطاع طويل دامت عدّة سنوات كتب يقول له:

«تسلّمت قبل نصف ساعة تلك الرسالة الكريمة المنحدرة من ذلك المقام الرفيع المشعّ فضلاً ولطفاً، وقد قبّلت الرسالة بعيني وقلبي ،وقرأت من بين سطورها تلك الروح الكبيرة التي أظلّتنا بلطفها، وذكرى تلك الأيّام الحبيبة التي جمعت الشمل بعد طول فراق وأسعدتنا بقربكم والتشرّف بمجلسكم، وعلم الله

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٤٠).

يا ابن العم العزيز يابقيّة الماضين ويا عماد الباقين أنّها كانت فرصة من فرص العمر بالنسبة لي وقد نعّمت فيها بلطف أخ كبير، ولم أكن أنا المضيّف ولم تكن أنت في دار غيرك ليشار إلى الزحمات، بل قد كنت يا سيدنا المفدّىٰ في بيتكم، وكنّا في كنفكم، ولم نشعر من خلال ذلك إلا باللطف والرحمة، وثقوا يا مولاي أنكم خلّفتم في نفوسنا وفي أرجاء البيت بفراقكم وحشة كبيرة وفراغاً شديداً، وإنّي أسال المولىٰ سبحانه وتعالىٰ أن يمتّعنا بوجودكم الشريف ويقرّ عيوننا بالاجتماع بخدمتكم في كلّ سنة مرّة على الأقل، وهل هناك من متعة لأمثالنا يا ابن العم إلّا اجتماع الأحبّة...»[1]

وفي آخر رسالة كتبها له في عام ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م وفيها ذكر الإرهاصات أو بدايات الثورة الإسلاميّة في إيران وهي كسابقتها تحمل نفس المشاعر والأخلاق والآداب الفريدة جاء في مقطع منها:

«تشرّفت بلثم تلك الرسالة الكريمة وسعدت بقراءة تلك السطور الحبيبة، وعشت مع المولىٰ المفدّىٰ، مع آلامه وهمومه، مع مشاعره وعواطفه، مع أنفاسه ونفحاته مع تلك الروح الكبيرة التي تتدفّق وشأنها العطاء والوفاء... أمّا ما وصفتم من أوضاع إيران العزيزة فكان وصفاً بالغ التأثير وأنا دائماً في حالة تطلّع وقلق، أعيش هموم المؤمنين من بعيد وأتحسّس بنارهم وأُشاركهم آلامهم ومخاوفهم وآمالهم، وأبتهل إلى المولى سبحانه أن يُعلي كلمة الإسلام وينصرها ويؤيّد العلماء ويسدّدهم إنّه على كلّ شيً قدير.

وأمّا محنة ابن العمّ المفدّىٰ أبي صدري فقد نغّصت علينا البقيّة الباقية من صفو الحياة في خضمّ هذه المحن والآلام، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم...»[2]

---

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٤١).

٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٤٢)، وهناك رسائل أُخرى أيضاً صادرة منه ﷺ إلى ابن عمّه المرحوم آية الله السيّد رضا الصدر أثبتناها في قسم الوثائق بالأرقام التالية: (٤٣ و ٤٤ و ٤٥) فراجع.

وسبق أن ذكرنا ماجاء في رسالته إلى أحد وكلائه قوله: «وليست المسألة أن لا تجوع عائلة أخي، وإن كانت هذه المسألة لاعتبارات وفاء معيّنة أعزّ عليّ من أن أفقد كلتا عيني» [1] فإنّها تعبّر عن مدىٰ ما تحمله نفسه الكريمة من وفاء ومحبّة وعواطف نبيلة تجاه أُسرته الكريمة.

٢ ـ مع أهل بيته:

وإذا أردنا أن نتعرّف على سيرته مع أهل بيته فسوف نجد صورة رائعة طافحة بكلّ ألوان المشاعر الإسلاميّة والإنسانيّة والروحيّة جسّد فيها صورة الابن البار مع والدته، والأخ الوفي الحنون لأُخته، والزوج المخلص لزوجته، والأب النموذجي لابنه وبناته.

كان (رضوان الله عليه) رغم انشغاله بهموم العمل المرجعي والمسؤوليّات الإسلاميّة الكبيرة وما يكتنف ذلك من مشاكل وصعاب، لايغفل الجانب التربوي ولايتساهل في مسئوليّته تجاه كلّ من في بيته.

كان في كلّ يوم يجلس إلى والدته (رحمها الله) يؤنسها بحديثه ويخفّف عنها من آلام ما تعاني من أمراض ومشاكل صحّية، ويخفّف من قلقها عنه. فقد كانت (رحمها الله) تشعر بقلق كبير على سلامته ولها إحساس بأنّ السلطة سوف لن تتركه على أيّ حال. فكان (رضوان الله عليه) يدخل إلى قلبها بكلّ الوسائل ليبدّد هذه المشاعر أو يقلّل من سطوتها. فكان في كلّ يوم يجلس معها في غرفتها ومعه كتبه ودفاتره ويبقىٰ معها ـ في أكثر الأحيان ـ حتّىٰ العصر يكتب ويعدّ أبحاثه وغير ذلك. واستمرّ على ذلك حتّىٰ اليوم الأخير قبل اعتقاله ومن ثمّ استشهاده.

١ ـ تجدد ذلك في آخر الوثيقة رقم (٣٩) وقد مضى نصّها بالكامل.

وكان مع أُخته الشهيدة السعيدة بنت الهدىٰ (رحمها الله) في غاية الرقة واللطافة، وهو يدرك أنّ هذه البطلة المضحيّة التي ضحّت بمستقبلها كإمرأة من أجل أُمّها وأخيها تستحقّ كلّ إجلال وإكبار، ولذلك أعطاها الكثير من وقته وجهده في سبيل تعليمها وتثقيفها، ونضجت (رضوان الله عليها) نضوجاً كبيراً مصحوباً بوعي شامل للواقع السياسي والاجتماعي والإسلامي في العراق، فكانت نموذجاً مصغّراً لأخيها فيما تحمل من هموم إسلاميّة، وصفاء روحي، وهدفيّة واعية لأعمالها وجهودها.

وبالنسبة لزوجته المكرّمة العلويّة الفاضلة أُمّ جعفر (حفظها الله) فقد كانت تحتلّ من قلبه موقعاً كبيراً ،إذ كانت شريكته في السرّاء والضرّاء، وتحمّلت من أجله الكثير من العناء والمشقّة بدأت من حين تغرّبها بعد هجرتها إلى العراق وانتهت بالحجز وما صاحبه وما أعقبه من صعاب ومشاكل، فكانت تستحقّ وبكلّ جدارة اهتمامه الكبير وعنايته الخاصّة، فكان (رضوان الله عليه) يدرك أهميّة هذه التضحيات ولذلك أولاها الكثير من الحنان والاحترام، وإنّي منذ عرفتها لم أرَ ولا مرّة واحدة ما عكّر صفو علاقتهما أبداً فلا مشاكل ولا منغّصات وهو أمر عجيب حقّاً.

أمّا مع ابنه وبناته فكان ﷺ في غاية الرقّة والمحبّة والحنان يلاعب الصغار ويؤنسهم، ولم يحاول في يوم من الأيّام أن يضربهم أو يهينهم، بل كان ينهج أفضل السُبل في تربيتهم، يتعامل معهم بروح الصداقة فيما تقتضيه الظروف، وبروح الأُبوّة في أحيانٍ أُخرىٰ.

وأتذكّر أنّه (رضوان الله عليه) حينما تنتهي جلسته اليوميّة في كلّ يوم عند أذان الظهر ويدخل إلىٰ بيت العائلة يستقبله أطفاله وكأنّه قادم من سفر بعيد، تمتلئ قلوبهم بالفرح والسرور.

وكان إذا تحدّث إليه أحدهم ـ وهم ما بين العقد الأوّل والثاني من أعمارهم ـ يصغي إليه إصغاءه للكبار يناقشه ويحاوره، وهو يحاول بذلك أن يزرع في نفوسهم الثقة والاعتماد على النفس وقوّة الشخصيّة. وأتذكر أنّ إحدىٰ بناته الصغار ـ وكان عمرها في حدود العاشرة أو أقلّ ـ كانت قد أعدّت دفتراً وفي كلّ يوم كانت تطلب منه كتابة حديث أو رواية فلم يكن يتردّد في التجاوب معها فيملي عليها حديثاً أو رواية، وكانت تحفظ ما يكتب لها، وكان يسمّيها لقمان الحكيم، وهي عقيلة الشهيد السيّد مؤمّل الصدر.

وكان (رضوان الله عليه) يربّي أطفاله على أنّهم ملك للإسلام ،وإنّ ما في أيديهم من أموال أمانة لا ملك، وأتذكّر حينما كنت أساعد في فرز المال وتقسيمه في آخر كلّ شهر، كان بعض أطفاله ـ وهم صغار ـ يحضرون معنا في بعض الأحيان تلك الجلسات، فيرون أكوام المال فيتعجّبون، فكان يترك العمل ويتحدّث معهم فيقول:

«أولادي هذا المال ليس لي، هذه أموال صاحب الزمان ـ عجّل الله فرجه ـ هذه أموال المسلمين أمانة بيدي، أولادي المال ليس مهمّاً، وهذه الدنيا لاقيمة لها، إنّنا نريد الآخرة، والآخرة خير وأبقى...».

ويتحدّث معهم بأمثال هذه العبارات والمفاهيم.

وكان (رضوان الله عليه) قد اتّفق مع زوجته المكرّمة السيّدة أُمّ جعفر (حفظها الله) في حال صدور ما يستوجب العقوبة من أحدهم أن تقوم هي بضربه وتأديبه، وكذلك خوّلني نفس الشيً فيما يناسب، وكان يعلّل ذلك بأنّ الأولاد أكثر إنشداداً إلى الأم بحكم الفطرة والتربية والمخالطة، وسرعان ما تستطيع إزالة ذلك من قلوبهم، أمّا الأب فإنّه بحاجة إلى وقت أطول ليُحدث نفس الشيً. هذا إضافة إلى أنّه أكثر قدرة من غيره على تغذيتهم بالمفاهيم والأفكار الإسلاميّة، وهذا الأمر يحتاج إلى أرضيّة سليمة وقلوب محبّة.

ورغم تواضعه (رضوان الله عليه) مع أطفاله فإنّ هيبته كانت تفرض احترامهم له، والتزامهم بحدود العلاقة المؤدّبة.

والحقيقة أجد نفسي عاجزاً عن مزيد من الوصف والبيان لأنّني لا أستطيع أن أعبّر بشكل دقيق عن تلك الأجواء الرائعة والحالات الفريدة، فلله درّك يا سيّدي يا أبا جعفر.

زهده وعزوفه عن الدنيا

قد يطول الحديث لو أردت أن أكتب عن هذا الجانب من حياة السيّد الشهيد ﵀ فلقد كان المثل الرائع في الزهد بمفهومه الإسلامي الصحيح.

أمّا السبب الذي دفعني للكتابة عن هذا الموضوع من حياته ﵀ فهو ما لمسته فيه من تجسيد رائع للفكر الأخلاقي الإسلامي الرفيع، ونهج حقيقي لطريق أهل البيت ﵈، فكان الزاهد الحقيقي الذي يعتبر قدوة صالحة لمن أراد أن ينهج هذا الخط ويمثّله.

ولم يكن الشهيد الصدر يتزهّد في حطام الدنيا لأنّه لا يملك شيئاً منها، أو لأنّه فَقدَ أسباب الرفاهيّة في حياته فصار الزهد خياره القهري، ولو كان كذلك لأغفلت الكتابة عن هذا الجانب من حياته، بل زهد في الدنيا وهي مقبلة عليه، وزهد في الرفاه وهو في قبضة يمينه، وكأنّه يقول (يا دنيا غرّي غيري).

وأيضاً لو كان زهده في الدنيا، وفي رفاه العيش فيها بسبب تحرّجه من صرف الحقوق الشرعيّة على نفسه لكان موقفي أيضاً غير هذا، باعتبار أنّ ذلك من أُولى واجبات الفقيه النموذجي ،ولكن أن يكون بإمكان الشهيد الصدر ﵀ أن يحيى أفضل حياة، ويعيش أسعد عيش بماله الخاصّ الحلال الطيّب، ومع ذلك يزهد في مأكله وملبسه، وشراء دار او سيارة، أو غير ذلك، فهو الزهد الحقيقي الذي يجعل الإنسان يُكبر هذه الشخصيّة العملاقة.

والزهد بذاته حسنة يتقرّب بها الإنسان إلى باريه عزّ وجلّ ويكسب بها رضاه، والشهيد الصدر أحد الأعلام في سماء التقوى يتوهّج نوراً مع الزاهدين من علمائنا الأبرار، إلّا أنّي أعتقد أنّه استهدف بزهده أيضاً ما هو أكبر من مسألة تربية النفس وتطهيرها، إنّه أراد أن يجسّد النموذج المثالي للمرجع الربّاني، وينشئ مرجعيّة ترابيّة زاهدة تجسّد مفهوم القيادة العلويّة المضحّية، تكتفي بطمرين وقرصين، كما كان علي عليه السلام يفعل، فكانت سيرته وسلوكه أبلغ داعٍ للإسلام، ومبلّغ له.

لقد أدرك الشهيد الصدر رحمه الله أنّ المرجعيّة بما هي كيان قيادي للمسلمين مستهدفة من قِبل السلطة الحاكمة، في ظرف كانت تواجه فيه انتقادات خطيرة من بعض قواعدها الشعبيّة يتعلّق ببعض القضايا الماديّة، فكان لابدّ من حمايتها؛ لأنّ في ذلك حماية الإسلام، فكان الهدف إذن هو الدفاع عن الإسلام.

فهو زُهد جمع بين حسنتين، التقرّب إلى الله تعالى بذات الفعل، والدفاع عن دينه بتجسيده سلوكيّاً.

وهنا أُسجّل بعض النماذج ممّا بقي في ذاكرتي لعلّ القارئ العزيز يتمكّن أن يحيط من خلالها بعظمة هذا الفقيد العزيز.

١ ـ كان رحمه الله زاهداً في ملبسه بالمقدار الذي تسمح به الظروف الاجتماعيّة، في الوقت الذي كان بإمكانه لبس أرقى الأقمشة. ويعلم الله أنّي ما رأيته لبس عباءة يزيد سعرها عن خمسة دنانير في الوقت الذي كانت تصله أرقى أنواع الملابس والأقمشة ممّن يحبّونه ويودّونه.

وكان (رضوان الله عليه) قد أمرني بالاحتفاظ بجميع الهدايا من الأقمشة وغيرها لتوزيعها على الطلبة فيما بعد، وكان إذا حضر في مجلسه العامّ المنعقد قبل ظهر كلّ يوم يلاحظ أوضاع الطلبة الحاضرين، فإن رأى أنّ ملابس أحدهم غير لائقة

ومناسبة لشأن طالب العلم يأمرني بإيصال قطعة قماش له مع أُجرة خياطتها.

بل رأيت العجب في يوم من الأيّام، وذلك بعد جريمة إعدام الشهداء الخمسة ﴿ حيث أصيب بخدر شديد في رجله أعجزه عن الحركة عدّة أيام، فلمّا أراد الاستحمام طلب منّي مساعدته، فلمّا دخل الحمّام رأيت ما نسمّيه بـ(الفانيلة) وفيها أكثر من مزق، فقلت له: سيدي هذه (الفانيلة) ممزّقة، فهل أشتري لكم غيرها؟ فقال: كلّا، هذه لا يراها أحد.

ولقد رأيته مراراً يصلح ملابسه بنفسه.

٢ ـ وفي يوم من الأيام دخل عليه خادمه الوفي (محمّد علي المحقّق) في وقت لم يتوقّع دخول أحد عليه، وكان ﴿ جالساً في مكتبته فوجده يأكل خبزاً يابساً وبيده قدح من الماء، ولم يكن يتوقّع صعود الأخ محقّق في تلك الساعة، فخجل ﴿ خجلاً شديداً، وأدار وجهه إلى الحائط وهو لايدري ما يفعل.

وحدّثني الأخ محقّق (حفظه الله) أنّه سمع السيّد الشهيد يخاطب خادمة كانت عندهم تعرف بأُمّ صالح بقوله: «إذا بعثتِ بوجبة الغداء لآغاي محقّق، فابعثي معه الخبز الحار، واتركي لنا الخبز البارد».

٣ ـ رغم تحسّن الوضع المالي للسيّد الشهيد في السنوات الأخيرة فقد بقي حال منزله من ناحية التأثيث وما فيه من لوازم منزليّة على حاله، وكنت في فترة الاحتجاز أُحدّث نفسي فأقول لو أنّ السلطة البعثيّة أرادت مصادرة محتويات هذا المنزل فهل ستجد شيئاً مادّياً يستحقّ المصادرة؟ ومع ذلك فبعد استشهاده سلبت السلطة جميع ما فيه من أشياء بسيطة لتؤكّد خبثها ودناءتها.

وقد سمعت السيّد الشهيد يقول:

«يجب عليّ وأنا في هذا الموقع ـ يعني المرجعيّة ـ أن أكون ـ في مستوى العيش ـ بمستوى الطلبة الاعتيادي».

وكان ﷺ كذلك، فإنّ ما في بيته بمستوى ذلك إن لم يكن أدنى.

فمحتويات منزله عبارة عن غرفة الاستقبال وفيها سجّادة لاأعلم هل أُهديت له أم قد اشتراها؛ لأنّها قديمة، وعلى يسار غرفة الاستقبال غرفة أُخرى مفروشة هي مقبرة آل المامقاني ﷺ ليس للسيّد الشهيد فيها قليل أو كثير. وإذا صعدت إلى المكتبة وجدتها مفروشة بقطعتين ممّا نسمّيه بـ(البسطة) وهي جزء من صداق والدة السيّد الشهيد.

وفي الداخل ـ مسكن العائلة ـ توجد غرفة هي للنوم وللضيوف ولجلسة العائلة الاعتياديّة لا تحتوي إلّا على أبسط المفروشات.

وتوجد غرفة فوقها خاصّة بالسيّد الشهيد ﷺ مفروشة بما نسمّيه بـ(الكنبار) مع منادر للنوم، وهذه الغرفة أقرب إلى المخزن منها إلى غرفة الاستراحة والنوم.

وأتذكّر أنّ السيّد الشهيد ﷺ فوجئ يوماً بعددٍ من الضيوف، واقتضت الظروف بقاءهم لما بعد الظهر، فكان لابدّ من تقديم الغداء لهم، ورغم أنّ عددهم كان لايزيد على خمسة عشر شخصاً، فلم يكن ما في البيت من لوازم يكفي لهذا العدد، وأحسّ بذلك أحد أصدقاء السيّد الشهيد وهو المرحوم الحاج عبد الصلوات، وكان صدفة في ذلك الوقت في البيت فذهب إلى السوق واشترى ما كان يلزم من صحون وملاعق.

وهكذا استمرّ وضعه إلى آخر يوم من حياته.

٤ ـ وكان حاله في مأكله كذلك، إذ يحاول الاكتفاء مع عائلته بأبسط ما يمكن ويحرص على الاحتفاظ بمستوى مقبول من العيش، وكانت زوجته الطاهرة تكتب في كلّ يوم ورقة صغيرة باحتياجات البيت وتسلّمها لآغاي محقّق ليوفّرها لهم، وهي الاحتياجات البسيطة المتعارفة. فأمرني (رضوان الله عليه) بالإشراف على تلك الورقة خشية أن يكون فيها من الطلبات أكثر من المألوف، بل كان في

بعض الأحيان يشرف عليها بنفسه، وسمعته يقول: لاأرضى بشراء الفواكه مهما كان المبرّر، حتّى لو كان ذلك من أجل الضيوف، ويجب أن ننتظر إلى الوقت الذي يتمكّن جميع الناس من شرائها.

وأتذكر أنّي كنت في السوق وكان معي ولده السيّد جعفر وكان طفلاً، فرأى الموز بلونه الأصفر الجميل يباع في السوق فأحبَّ أن يأكل منه فاشتريت له كيلو غرام واحد من مالي الخاصّ، فأكل منه وأعطى لأُخته الصغيرة أيضاً وانتهى كلّ شيء، وحسبت أنّ الأمر قد انتهى، ولكن بعد ساعة من ذلك جاء السيّد الشهيد يلومني على ما فعلت عندما لاحظ قشور الموز في سطل النفايات فعرف الأمر، ثمّ دعا ولده ينصحه بكلمات جميلة ورقيقة أحفظ منها هذه العبارة:

«ولدي إنّ موز الجنّة أطيب وألذّ من هذا الموز».

ولا أُغالي إذا قلت: إنّ الزهد من سمات هذه العائلة المظلومة، وخلق من أخلاقها، فقد تعوّدوا على العيش والاكتفاء بما هو موجود، بل كانوا لا يحبّون التمايز والتفاخر على غيرهم.

وأذكر أنّي حينما كنت معه في الحجاز لأداء العمرة وكانت العائلة برفقته أيضاً لم نذق اللحم خلال كلّ تلك المدّة، وكان معظم طعامنا الخبز والبيض واللبن، ولمّا مازحته ﷺ عن هذا الأمر قال لي: «جئنا لنعتمر لالنأكل».

٥ ـ استشهد (رضوان الله عليه) وهو لايملك وسيلة للنقل (السيّارة) وكان أحد الأخيار قد أوصى بسيارته (التويوتا) للسيّد الشهيد ولمّا استلمها أمر ببيعها ليضيف قيمتها إلى أموال الرواتب والمساعدات، في وقت كان بأمسّ الحاجة إلى وسيلة للتنقّل، فمن ناحية كان يواجه ﷺ حرجاً من أخلاق بعض السوّاق وتصرّفاتهم، ومن ناحية أُخرى كانت الأوضاع الأمنيّة تتطلّب ذلك، ورغم إلحاحنا عليه بعدم بيعها، إلّا أنّه أصرّ على ذلك، وظلّ (رضوان الله عليه) إلى آخر يوم من حياته مكتفياً في تنقّله بسيّارات الأُجرة أو سيّارات الأصدقاء.

٦ ـ استشهد (رضوان الله عليه) وهو لا يملك داراً ولا عقاراً، ولم أره يفكّر إلّا بشراء مقبرة له ولطلّابه وسوف أتحدّث عنها.

لقد شهدت عدّة عروض قدّمت له لشراء دار له من أموال خاصّة وليست حقوقاً شرعيّة، ومن ذلك عرض تقدّم به تاجر من أهل البصرة، وكان محبّاً للسيّد الشهيد فقد علم بأنّ داراً تقع إلى جانب منزل السيّد الشهيد معروضة للبيع فحاول شراءها وأخبره بأنّ مال الشراء مال شخصي وليس حقوقاً شرعيّة، فرفض السيّد الشهيد قبول هذا العرض وقال له:

«إذا اشتريت هذه الدار فإنّي سوف أُوقفها لسكن الطلّاب ولن أسكنها أبداً».

فقال المتبرّع: أريدها داراً خاصّة لكم. فقال السيّد الشهيد:

«أنا لن أمتلك داراً حتّىٰ يتمكّن كلّ الطلبة من شراء دور لهم وحينئذٍ سأكون آخر من يشتري».

ومن تلك العروض ما حدّثني به الوجيه الحاج كاظم عبد الحسين، قال عرضت على السيّد الصدر (رضوان الله عليه) شراء دار له فرفض، وعرضت عليه الخروج من العراق وشراء دار له في أيّ دولة يختار العيش فيها، فرفض الخروج والدار.

وهناك رسالة أشار فيها (رضوان الله عليه) إلى ذلك وهذه الرسالة في غاية الأهميّة لمن يفكّر في الكتابة عن السيّد الشهيد الصدر جاء في مقطع منها:

«وبعد فإنّي أكتب إليكم هذه الرسالة في اليوم السابع من صفر يوم وفاة الإمام الحسن عليه الصلاة والسلام، هذا الإمام الممتحن الذي عاش أتعس ظروف العمل الإمامي وأنكاها وقدّر له أن يكون صامداً ثابتاً صابراً وهو يرىٰ رسالة ربه وشريعة جده تتمزّق في أيدي الأمويّين الطغاة، وتفقد مواقعها الحقيقيّة في الأُمة نتيجة مؤامرتهم على الإسلام وكيدهم للمسلمين وكأنّي به ـ بأبي وأُمّي ـ والحياة تضيق به، أو يضيق بها، يفتّش عن الموت فلا يجده كما يطلبه الأولياء،

شهادة واضحة في سبيل الله، حتىٰ جاءته الشهادة أخيراً يحملها سمّ معاوية، وما أعذب سمّ ينقل الإنسان الثابت الصابر من جوار أعدائه إلى جوار ربّه، ولاحول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

حدثني السيّد علاء الدين حفظه الله تعالى [١] عن اهتمامكم واهتمام الوجيه العزيز الحاج كاظم عبدالحسين بشأن شراء دار ووجود متبرّع بمبلغ سبعة [٢] بهذا الشأن. وإنّي أُقدّر لكم أيّها الأحبّة هذه الاهتمامات، وأرجو من المولىٰ سبحانه وتعالىٰ أن يثيب المتبرّع الموفّق بأفضل ما يثيب به المحسنين، ويزيد في توفيقه، ويجمع له خير الدنيا وخير الآخرة، إنّه سميع مجيب. غير أنّي في نفس الوقت أعتذر عن قبول هذا التبرع لشراء دار لأنّي لاأشعر بحاجة إلىٰ الأخذ من هذه الدنيا إلّا بمقدار ما يوفّر لي الاستقرار اللازم لممارسة المسؤوليّات الدينيّة وهذا يحصل في بيت الإيجار المناسب أيضاً. ولئن كان أولادي سوف لن يحصلوا من أبيهم على ميراث من هذا القبيل فلهم أُسوة بأبيهم الذي لم يقتن له أبوه داراً ولاعقاراً، وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها إلى جدث.

نعم في الوقت الذي يتاح لنا فيه أن نحوّل المرجعيّة من ذات إلى موضوع، وتكون حقيقة أكبر من الشخص وأبقىٰ منه وأوسع من وجوده تكون جديرة حينئذٍ ببيت يكون البيت الثابت للمرجعيّة يتناوب عليه المراجع ولا يكون بعد وفاة المرجع ميراثاً ولا أداة استغلال، وهذا شيء متروك للمستقبل...»[٣].

استشهد (رضوان الله عليه) وهو يسكن في دار أُسرة آل المقاماني الكرام وكان قد تبرّع بذلك سماحة آية الله الشيخ محيي الدين المامقاني حفظه الله وهي تتكوّن من

١ ـ المقصود به العلامة الحجة السيد علاء الدين بن المرحوم آية الله السيّد مير محمد القزويني ﷺ عالم محافظة البصرة.

٢ ـ المفروض ان تكون هكذا: سبعة الآف دينار كويتي.

٣ ـ راجع الوثيقة رقم (٤٦).

شقّين، شقّ لسكن العائلة وآخر مقبرة للأسرة، وكان قد بلغ سماحة الشيخ المامقاني أنّ السيّد الشهيد الصدر قال: إن هذه الدار مؤجرة بكذا مبلغ، وهو أمر يخالف الواقع، فكتب (رضوان الله عليه) رسالة إلى سماحة الشيخ المامقاني جاء في مقطع منها:

«وقد ساءني ما بلغني أخيراً من أنّ بعض الأشخاص نقلوا إلى سماحتكم عنّي أنّ الدار مستأجرة بكذا مبلغ، ومسّوا بهذا النقل شغاف ذلك القلب الطاهر الذي لم يعرف في يوم من الأيّام ـ وحتّىٰ حينما كانت الدنيا تحت اقامه [1] ـ قيمة حقيقيّة لغير المعنويّات والمشاعر العالية، لغير العلم والنبل، وعلم الله إنّ شيئاً ممّا نقل لم يصدر منّي على الإطلاق، بل الأمر على العكس تماماً، فإنّ من يفتح معي حديثاً حول قضيّة خاصّة من هذا القبيل ليس إلّا الخواصّ، وكثيراً ما وقع الحديث مع الخواصّ وشرحت لهم إحساسي العميق بهذا اللطف والإيثار، وكثيراً ما بيّنت أنّ توفير سكنى هذه الدار الطاهرة ليس مجرّد إشباع حاجة إلى السكنىٰ فقط، بل إن بركات وروحانيّات هذه الدار ومن هو راقد في تربتها الطاهرة أمر لايمكن أن يقدّر، وفي آخر حديث أتذكّره الآن وقع لي مع ابن العمّ السيّد آقا رضا حيث شرحت له جانبا من ألطافكم، وذكرت أيضا أنّ عدم استعداد الشيخ الأخ حفظه الله لاعتباري مستأجراً لطف أخويّ يضاف إلى ألطافه الأخويّة الأُخرى...» [2]

وهذه الرسالة مؤرّخة بـ٢٥ جمادىٰ الثانية ١٣٩٨هـ أي في عام ١٩٧٨م أي قبل استشهاده بعامين تقريباً.

وهكذا عاش شهيدنا الصدر إمّا مستأجراً أو في دار تبرّعيّة غير ملكيّة فرضوان الله عليه وهو في دار القرار.

---

١ ـ كذا ورد في النسخة الخطيّة لهذه الرسالة والظاهر أنّ الصحيح: أقدامه.

٢ ـ راجع الوثائق رقم (٤٧). وقد جاء نفس المضمون في رسالة أُخرى له ﷺ إلى سماحة الشيخ المامقاني حفظه الله تعالى أثبتناها في قسم الوثائق برقم (٤٨).

٧ ـ في الشهر الأوّل من الحجز منعت السلطة الظالمة دخول الموادّ الغذائيّة إلى منزل السيّد الشهيد، وقطعت الماء والكهرباء والهاتف في محاولة لقتل جميع من في البيت، وكان وضعاً محرجاً، لقد كنت في خدمة السيّد الشهيد جالساً في مكتبته وكانت آثار الجوع بادية عليه، والشحوب يغطّي وجهه، وكان يتحدّث معي فمرّت من أمامنا طفلة من أطفاله فرقّ لها قلبه، وسالت دمعة من عينه، وقال:

«سيقتلون هؤلاء جوعاً بسببي، ليتهم يحجزونني وحدي ويطلقون هؤلاء».

لقد نفد كلّ ما كان موجوداً من طعام، وبدأنا نعاني معاناة لا يعلمها إلّا الله، ولم تبقَ إلّا قطع قليلة من الخبز اليابس والتالف، فكانت العائلة تهيّئه لنا كطعام شعبيّ من الأطعمة المعروفة في العراق، فكان (رضوان الله عليه) يأكل منه وهو يقول:

«إنّ ألذّ طعام ذقته في حياتي هو هذا؛ لأنّه في سبيل الله عزّ وجلّ».

٨ ـ في الوقت الذي كانت فيه العروض تتوالى من هذا وذلك لشراء دار للشهيد السعيد، كان (قدس سره) يرفض ذلك، ويسعى لشراء مقبرة له ولطلابه، ففي السنوات الأخيرة من عمره الشريف بدأ بالبحث عن قطعة أرض قريبة من الصحن الشريف خالية من كلّ شبهة ليجعلها مقبرة، وقد كلّف الأخ حجّة الإسلام السيّد محمود الخطيب بالبحث عن المكان المناسب لهذا الغرض.

وكان أمله أن يُدفن مع طلابه في مكان واحد، قد قال مراراً: إنّه سيجعلها خاصّة به وللذكور من ذريّته ولطلّابه. وكان (رضوان الله عليه) قد جمع مقداراً من المال لهذا الغرض، ولولا أحداث رجب، وما تبعها من احتجازه لنفّذ هذا الأمر.

هذه نماذج مقتضبة أردت بذكرها الإشارة إلى ما كانت نفسه الكبيرة تتمتّع به من زهد وإعراض حتّى عن أبسط مظاهر الحياة الماديّة، وهذه الحالة السامية أراد بها أيضاً الحفاظ على قدسيّة المرجعيّة، وخدمة الإسلام.

عبادته وانقطاعه إلى الله تعالى

من الجوانب الرائعة في حياة السيّد الشهيد ﴿ الجانب العبادي، ولا يستغرب أحد إذا قلت: إنّه ﴿ كان يهتمّ في هذا الجانب بالكيف دون الكمّ، فكان يقتصر على الواجبات والمهمّ من المستحبّات.

كانت السمة التي تميّز تلك العبادات هي الانقطاع الكامل لله سبحانه وتعالى، والإخلاص والخشوع التامّين، قال الله (تعالى) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنونَ الَّذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾[1]. كان ﴿ لا يصلّي، ولا يدعو، ولا يمارس أمثال هذه العبادات إلّا إذا حصل له توجّه وانقطاع كامل، وكان متكتّماً على أمره هذا، ومتخفيّاً في عبادته، ولا يعرف أقرب الناس منه شيئاً عن هذا الأمر.

الأمر الذي يثير الدهشة أن يتمكّن الإنسان ،وخاصّة من هو في مثل موقع السيّد الشهيد ﴿ والذي يعيش الكثير من المشاكل والهموم الكُبرىٰ أن يتجرّد منها في ثلاثة أوقات على الأقلّ، بحيث تحصل له حالة من الانقطاع والخشوع التامّين في كلّ يوم وعلى مدى العمر. إنّ هذا الأمر من الأُمور الشاقّة جدّاً، والتي لا يتمكّن إلّا النوادر من تحقيقها على هذا المستوى الرفيع.

ولم أكن مطّلعاً على وضعه هذا إلى أن وقعت بعض الأُمور التي أثارت انتباهي، وحفزتني على الاستفسار منه. وعندها كشف لي عن أمره هذا.

كانت المرّة الأُولى التي أحسست فيها بهذه الظاهرة حينما طلب منه عدد كبير من العلماء والمؤمنين الصلاة بهم إماماً في الحسينيّة الشوشتريّة، وكان بعض أهل الرأي، ـ ومنهم المرحوم آية الله الشيخ مرتضىٰ آل ياسين ﴿ ـ يرون ضرورة هذا العمل؛ لأنه يشكّل حصانة للسيّد الشهيد من بطش السلطة واعتدائها، ويجعل وجوده الديني والاجتماعي أمراً واقعيّاً يصعب تحدّيه.

١ ـ سورة المؤمنون، الآيتان ١ ـ ٢.

وبعد أن عُرضت الفكرة عليه رفض قبولها، ولم أكن أعرف السبب الحقيقي للرفض، وكنت أظنّ أنّ هذا العمل سيكون من الأعمال الإضافيّة التي تُحَمّل عليه لتضاف إلى جدول أعماله اليومي الكبير، خاصّة أنّ صلاة الجماعة تتطلّب التزاماً يوميّاً مستمرّاً.

وفيما بعد أصرّ عليه خاله المرحوم الشيخ مرتضى آل ياسين، وألحّ عليه كثيراً، فاضطرّ إلى الاستجابة، فصلّى بالناس إماماً صلاتي الظهر والعصر في الحسينيّة الشوشتريّة.

وحدث أن جاء قبل تلك الفترة ضيف ذو شأن كبير من لبنان، وكان وصوله بعد أذان الظهر بقليل وكان السيّد الشهيد ؓ جالساً على مصلّاه، فأخبرته بوصول ـ فلان ـ فأمرني باصطحابه إلى الغرفة، وقامؓ فجلس فى الزاوية التي اعتاد الجلوس فيها من الغرفة متهيّئاً لاستقبال ضيفه.

وبعد دقائق صعدت إلى الغرفة مع الضيف وإذا بي أرى السيّد الشهيد قد وقف يصلّي وهو في حالة من الانقطاع والخشوع العجيبين وكأنّه لم يكن على موعدٍ مع أحد.

وكنت فيما سبق من الأيام أتربّص الفرص لأُصلّي خلفه جماعة في البيت، فكان في أحيان كثيرة يجلس في مصلّاه فكنت أجلس خلفه، وقد دخل وقت الصلاة، بل قد يمضي على دخول وقتها أكثر من نصف ساعة والسيّد الشهيد جالس مطرق برأسه يفكّر، ثمّ فجأة ينهض فيؤدّي الصلاة.

هذه الأُمور وغيرها دفعتني في يوم من الأيام للاستفسار منه عن سبب هذه الظاهرة، فقال (رضوان الله عليه):

«إنّي آليت على نفسي منذ الصغر أن لا أُصلّي إلّا بحضور قلب وانقطاع، فأضطرّ في بعض الأحيان إلى الانتظار حتّى أتمكّن من طرد الأفكار التي في

ذهني، حتّى تحصل لي حالة الصفاء والانقطاع، وعندها أقوم للصلاة».

ولم تكن هذه الحالة خاصّة بالصلاة فقط، بل كانت تمتدّ إلى كل أشكال وصور العبادة الأُخرى، ولقد سمعته خلال فترة الحجز ـ ولم أسمعه قبل ذلك ـ يقرأ القرآن في أيام وليالي شهر رمضان بصوت حزين وشجي، ودموع جارية، يخشع القلب لسماعه، وتسمو النفس لألحانه، وهو في حالة عجيبة من الانقطاع والذوبان مع معاني القرآن، إنّه مشهد عجيب يعجز القلم عن وصفه، وما فيه من معنويات كبيرة.

ومن المشاهد الخالدة في ذاكرتي والتي تتعلّق بهذا الموضوع ما حدث في سفرنا لأداء العمرة قبل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران بقليل، فقد كان رضوان الله عليه يذهب إلى المسجد الحرام يصلّي الظهر والعصر، ثمّ يعود إلى الفندق لتناول وجبة الغداء، ثمّ يعود مرّة أُخرى في حدود الساعة الثانية ظهراً إلى المسجد حيث يقلّ الزحام بسبب شدّة الحرّ. وكانت أرض المسجد الحرام مغطّاة بالمرمر الطبيعي ـ وهو غير المرمر الموجود حالياً ـ فكان لا يتمكّن أحد من شدّة الحرّ من الطواف في تلك الفترة، فكان ﷺ يذهب في ذلك الوقت إلى المسجد حافي القدمين، وكنت أطوف معه، فوالله ما تمكّنت من إكمال شوط واحد، حتّى قطعت طوافي وذهبت مسرعاً إلى الظل، فقد شعرت أنّ باطن قدميّ قد التهب من شدّة الحرّ، وما طفت في تلك الساعة إلّا منتعلاً.

فكنت أعجب من حال السيّد الشهيد ﷺ وهو يطوف ويصلّي، وكأنّه في الجوّ الطبيعي الملائم، فسألته يوماً بعد عودتنا من المسجد الحرام عن هذه القدرة العجيبة من التحمّل، فقال:

«ما دمت في المسجد الحرام لا أشعر بالحرارة، نعم بعد أن أعود إلى الفندق أحس بألم في قدميّ».

ولم يكن ذلك إلّا بسبب انقطاعه وتوجّهه إلى الله تعالى، وإلّا فإنّه (رضوان الله عليه) كان يتضايق من الحرّ في الظروف الطبيعيّة.

وذهبت معه في المدينة المنوّرة إلى البقيع لزيارة الأئمة الأطهار عليهم السلام، فدخل من الباب حافي القدمين بخشوع وخضوع، فاقترب من قبور أجداده الأطهار وبدأ بزيارتهم وكأنّهم أمامه يراهم ويرونه، والدموع تنهمر من عينيه دون انقطاع، وقد حلّق إلى عالم آخر في مشهد فريد من الولاء والحبّ لأهل البيت عليهم السلام[1].

جملة من كراماته رحمه الله:

وكان لهذا الصفاء آثاره، وكان لهذا الانـقطاع دوره فـي وقـوع بـعض الكرامات، فمن تلك الكرامات:

١ ـ دخل السيّد الشهيد رحمه الله إلى حرم الإمام علي عليه السلام لزيارته، وكان أمامه أحد خدّام الحرم الشريف، ولم يكن يعلم بوجود السيّد الشهيد ،ولمّا بدأ (رضوان الله عليه) بالزيارة فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، إلتفت الخادم مذهولاً إلى السيد الشهيد وقال له: أُدخل يا سيدي فوالله لقد سمعت الإمام يقول: أُدخل يا ولدي، ولم أكن أعلم بوجودك هنا.

---

١ ـ في هذه السفرة حشّدت السلطة عـدداً كـبيراً مـن قـوات الأمـن ـ رجـالاً ونسـاءاً ـ لمـراقـبة السـيد الشهيد، بدأوا مسيرتهم معنا من مطار بغداد، فكانوا معنا في الطائرة، وفـي الفـندق، وفـي كـلّ مكـان، ولم نكن بحاجة إلى جهود كبيرة لكشفهم، فهم ومن خلال تصرّفاتهم وأسـئلتهم كشـفوا عـن هـويّتهم منذ اليوم الأوّل.

وقد اضطربت السلطة في تلك الفترة بسبب توهّمها بأنّ السيد الشهيد رحمه الله يحاول الخروج مـن الحجاز إلى لبنان، وكان سبب ذلك أنّنا سحبنا جوازات السفر التـي كـانت مـودّعة عـند إدارة الفـندق لغرض تصريف بعض المال في البنك، فظنوا أنّ هذه مقدّمة للهروب، فاتّصلوا ببغداد، فـحضر مسـاعد مدير الشعبة الخامسة المعروف بـ(فيصل)، وهو من أهل الفلوجة، مجرم مـعروف بـالوحشية والعـنف، فكان يشرف بنفسه على مراقبتنا حتّى اللحظة التي وصل فيها السيّد الشهيد إلى مطار بغداد.

٢ ـ وجاء رجل من أهل القرنة في محافظة البصرة، وكان معروفاً بحبّه وولائه لأهل البيت عليهم السلام ويشهد الجميع بصدقه، فحدّث السيّد الشهيد بهذه الكرامة، فقال:

أُصبت بمرض في بطني، وبعد إجراء الفحوصات في مدينة الطب في بغداد قرّر الأطباء إجراء عمليّة جراحيّة لي، قال :فأُصبت بالخوف والرعب، فتوسّلت بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي كنت أرى قبّته الشريفة من نافذة غرفتي في مدينة الطب أن يعينني في محنتي.

وفي الليلة نفسها رأيت في عالم الرؤيا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فتوسّلت به إلى الله من أجل شفائي فقال لي: إذهب إلى السيّد محمّد باقر الصدر، فهو الذي يعالجك.

قال: فجئت إلى مكان آخر فوجدتك فيه، وأخبرتك بقول الإمام عليه السلام فكشفت عن بطني وأخرجت حصاة أو غدّة ـ والترديد منّي ـ ثم مسحت عليها، ثمّ قلت لي: قد شفيت من علّتك.

استيقظت من النوم سليماً معافى من كلّ علّة، وقد استغرب الأطباء، وتعجّبوا ممّا حدث.

وكان يحمل معه بعض الصور (الشعاعيّة) والتحاليل التي أُجريت له قبل أن يرى رؤيته والتي كانت تثبت صحّة كلامه.

٣ ـ وفي عقيدتي أنّ أهمّ تلك الكرامات ماكنت أحسّه منه، ففي الأُمور الصعبة والحرجة والتي يصعب على العقل أن يستنتج أو يقرّر أرى الشهيد الصدر وفي لحظة واحدة يعطي الموقف الصحيح والمناسب. وقد قال لي:

«إنّ حالة من الوضوح تحصل لي في مثل هذه الموارد».

وإذا كانت ـ الأمانة ـ لاتسمح لي بتسجيل تلك الذكريات بتفاصيلها

الدقيقة؛ لأنّها تتعلّق بآخرين فلا ضير من ذكر حالة إجماليّة واحدة من مشاهداتي فيما يتعلّق بهذا الموضوع.

كان السيّد الشهيد ﷺ ينهج أسلوب الشورى في أموره الهامّة. فكان يجمع أهل الرأي والخبرة ممّن يثق بهم، ثمّ يطرح عليهم ما هو المهمّ من الأمور ،وكان لا يخالف الأكثريّة حتّى لو كان رأيهم يغاير قناعاته الخاصّة. وأتذكر أنّه في السنوات الأخيرة من عمره الشريف ـ تقريباً ـ دعا من يثق به إلى اجتماع من هذا القبيل وعرض عليهم فكرة دعم إحدى المرجعيات التي سمّاها لهم بكلّ ما يملك من طاقات.

والحقيقة لم تكن في تلك الفترة مبرّرات واضحة لهذا الدعم الكبير. لذا كان موقف الأكثريّة سلبيّاً من هذه الفكرة وكانت قناعة السيد الشهيد إيجابيّة منها فلم يسعه مخالفتهم.. ثمّ سألته في وقت آخر عن هذه القضية وعن سبب ذلك، فقال:

«إنّي أرى صحّة موقفي كما أراك. إنّ لديّ وضوحاً كالشمس يدعوني إلى دعم تلك المرجعيّة».

ومرّت الأيّام، وشاء الله أن يتألّق نجم تلك المرجعيّة في سماء الإسلام، عندها قال لي: «هل أيقنت بصحّة رؤيتي؟».

٤ ـ ومن الكرامات التي لاأشكّ فيها ما حصل له قبل الاعتقال الأوّل الذي تعرّض له. فقد كان (رضوان الله عليه) مصاباً بمرض ضغط الدم. وفي ذلك اليوم الأسود وقبل اعتقاله بساعة تقريباً أخرج علبة أو كيس الأقراص فابتلع عدة أقراص وهو لايشعر. وكان هذا يشكّل خطورة حقيقة على حياته. فنقل إلى المستشفى مغشيّاً عليه. وبعد نقله إلى المستشفى اقتحم جلاوزة المجرم ناظم گزار ـ مدير الأمن العام في تلك الفترة ـ البيت لاعتقاله. ثم علموا بتدهور حالته الصحيّة ونقله إلى المستشفىٰ. فذهبوا الى المستشفىٰ للقبض عليه، وكادوا أن يفعلوا لولا أنّ الأطبّاء

حذّروهم من تدهور حالته الصحيّة ومنعهم لهم من فعل ذلك، وكان هذا سبب نجاته منهم، وسوف يأتي تفصيل ذلك في فصل الاعتقالات التي تعرّض لها إن شاء الله تعالى [١].

روح التضحية والفداء عنده

قد يكون من نافلة القول أن نتحدّث عن هذا الجانب من حياة السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) بعد أن روّى شجرة الإسلام بدمه الطاهر، وسجّل صورة من أبهى صور الفداء والتضحية في التاريخ. وإذا كان لابدّ أن نكتب شيئاً عن هذا الجانب فلأنّ طبيعة العرض التاريخي والمنهجي تتطلّب ذلك، وإلّا فإنّ السيّد الشهيد يعتبر في هذا الجانب قمّة شامخة ينحدر عنها السيل ولا يرقى إليها الطير.

إنّ من عاش مع السيّد الشهيد يستطيع أن يدرك بسهولة أنّ حالة التضحية حالة متجذّرة في أعماق نفسه، لم أعهده إلّا مضحيّاً مؤثراً غيره على نفسه. وهي حالته وسلوكه قبل المرجعيّة وبعدها.

وكان سخيّاً إلى حدٍّ كبير في ميادين التضحية فتارة يضحّي بمرجعيّته، وأخرى بكتابه، وثالثة بماله وجاهه، وأخيراً بروحه ودمه. ولنا على كلّ ذلك شواهد وأدلّة.

وهنا لابأس بذكر بعض المواقف التي تشير إلى بعض ما تحمله تلك النفس الكبيرة من تضحية وفداء.

١ ـ في هذا الاعتقال تعرّض خادمه الوفي محمد علي محقّق إلى التعذيب، فقد كان في البيت أثناء اقتحامه من قبل رجال الأمن فطلبوا منه أن يدلّهم على السيّد الشهيد ﷺ فأبى ذلك فانهالوا عليه بالضرب الشديد، والتعذيب الوحشي، فلمّا علمت زوجة السيّد الشهيد بذلك جاءت وأخبرتهم بأنّ السيّد الشهيد في المستشفى فانقذته من أيديهم.

١ ـ في عام (١٣٨٩هـ=١٩٦٩م) وفي إطار عدائها للإسلام حاولت سلطة البعث العميل في العراق توجيه ضربة قاتلة لمرجعيّة المرحوم آية الله العظمى السيّد الحكيم، من خلال إلصاق تهمة التجسّس بنجله الشهيد العلامة السيّد مهدي الحكيم، الذي كان يمثّل مفصلاً مهمّاً لتحرّك المرجعيّة ونشاطها.

وبدأ غبار الجريمة يتطاير إلى العيون، ورائحتها الكريهة تزكم الأنوف، وكانت خطوات البعث تتّجه إلى النجف يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة؛ لتسحق ما عجز غيرها عن سحقه.

وكان للسيّد الشهيد الموقف المشرّف في دعم المرجعيّة الكبرى من جانب، وفضح السلطة المجرمة من جانب آخر، فبعد أن علم بعزم السلطة على توجيه تهمة التجسّس إلى المرحوم السيّد مهدي الحكيم شارك بفعاليّة وبالتنسيق مع مرجعيّة الإمام الحكيم لإقامة اجتماع جماهيري حاشد يعبّر عن مستوى تغلغل المرجعيّة الدينيّة وامتدادها في أوساط الأُمّة وقوّتها وقدرتها الشعبيّة، ولكي يعطي للمرحوم السيّد مهدي الحكيم بُعداً جماهيريّاً وشعبيّاً، باعتباره يمثّل المرجع الأعلى لإلقاء كلمته أو بيانه على الحشود الكبيرة المجتمعة في الصحن الشريف.

وحصل الاجتماع، وكان حاشداً ومهيباً، ضمّ كلّ طبقات المجتمع العراقي وأصنافه، وعبّرت الجماهير به عن موقفها ودعمها بوضوح تامّ للمرجعيّة الدينيّة الرشيدة.

وكان المفروض أن يردع ذلك السلطة وينبهها إلى خطورة الموقف وما قد ينتج عنه إن هي أقدمت على تنفيذ جريمتها، ولكنّها لم ترتدع؛ لأنّ ما حصل كان مخطّطاً متكاملاً أعدّه لهم أسيادهم المستعمرون، وهذه أُولى حلقاته.

وحدثت للمرجعيّة أزمة كبيرة، ووقع للسيّد الحكيم مايشبه الحصار، فلا

داخل عليه ولاخارج، حتّى من أقرب المقرّبين إليه خوفاً من بطش السلطة وغضبها.

وهنا كان للسيّد الشهيد موقفه التضحوي الخالد، فقد كسر الحصار وكان أوّل داخل على السيّد الحكيم، وكانت أوّل زيارة حصلت بعد فترة من زمن الحصار، وكان السيّد الشهيد يعلم خطورة ما قام به، فالسلطة البعثيّة لا تؤمن بأيّ منطق إلّا منطق القوّة ،وكان يعلم أنّه يعرّض حياته لخطر كبير لكنّه لم ينثن أبداً، وحقّق ماكان يشعر أنّه تكليف شرعي.

ولم يقف دعمه عند هذا الحدّ، بل سافر إلى لبنان ليقود حملة إعلاميّة مكثّفة دفاعاً عن المرجعيّة، ومن هناك كتب رسالة إلى سماحة السيّد محمد باقر الحكيم ـ حفظه الله ـ تحدّث فيها عمّا قام به من نشاطات إعلاميّة قال فيها:

«أكتب إليكم هذه السطور بعد أُسبوعين كاملين من دخول لبنان، وأودّ أن أُعطيك صورة عن الموقف في حدود رؤيتي له، وأشعر بأنّ وجود صورة لك عن الموقف شيء مفيد على خط العمل.

لاأدري كيف أُصنّف الحديث، أتصوّر أنّي أبدأ بما تمّ من عمل ثم أتحدّث لك عن الموقف بشكل عامّ، ثمّ عن المشاكل والمكاسب.

أمّا ما تمّ من عمل فهو كالتالي:

أوّلاً: خطاب استنكار وقّع عليه حوالي أربعين عالماً.

ثانياً: ملصقة جداريّة أُلصقت في كثير من المواضع في بيروت تطالب بإنقاذ النجف.

ثالثاً: برقيات طيّرها أبو صدري ـ السيد موسى الصدر ـ إلى جميع رؤساء وملوك الدول العربيّة والإسلاميّة بإسم المجلس الشيعي الأعلى يشرح لهم فيها المأساة، ويستنجد بهم، وقد جاءه الجواب حتّى الآن من جمال عبد الناصر وفيصل والأرياني الرئيس اليمني.

الشارع الشيعي في بيروت مكهرب بالقضية. وكذلك الإنسان الشيعي في لبنان بشكل عام. بالرغم من نشاطات البعثيين... والسفارة العراقيّة في بياناتها المتعاقبة حول الموضوع تكشف عن شعورها بعمق المشكلة. وعن اضطرارها إلى شيء من المداورة واصطناع أساليب المجادلة»[١].

٢ ـ في صباح اليوم الذي قرّر الإمام الراحل سماحة آية الله العظمى السيّد الخميني (رضوان الله عليه) مغادرة العراق إلى الكويت، قرّر السيّد الشهيد ﵀ الذهاب إلى بيت الإمام لتوديعه، بالرغم من الرقابة المكثّفة التي فرضتها سلطات الأمن المجرمة على منزله.

وفي الصباح ذهب السيّد الشهيد إلى منزل السيّد الإمام. ولكن للأسف كان الإمام قد غادر قبل ذلك الوقت بقليل، ومع ذلك جلس﵀ في المنزل ليعبّر عن تأييده وتعاطفه مع السيد الإمام لمن بقي بعد الإمام في بيته.

وقد أخبرني (رضوان الله عليه) أنّه أثناء التحقيق الذي جرى معه في اعتقال رجب سُئل عن أهداف هذه الزيارة، وقال له مدير الأمن العام: إنّها تمثّل في رأي السلطة مظهراً من مظاهر التنسيق والتعاون، وإلّا فلماذا لم يبادر باقي المراجع والعلماء لزيارته أو توديعه؟!

قال﵀:

«كنت قد صمّمت على الشهادة ،ولم يكن يخطر ببالي أن أعود حيّاً إلى النجف الأشرف. فقلت له: فسّروها بما شئتم. لقد ذهبت لتوديعه جهراً لاسرّاً.

فأغضب ذلك مدير الأمن، إذ لم يكن يتوقّع منّي هذا الجواب، وكان يتصوّر أن أعتذر من ذلك».

وسوف يأتي بعض ما يتعلّق بذلك في موضوع الاعتقالات التي تعرّض لها (رضوان الله عليه).

١ ـ الجهاد السياسي للشهيد الصدر، ص ٣٩.

والحقيقة أنّه لا يعرف قيمة هذا الموقف وأمثاله إلّا الذين عاشوا تلك الأجواء الإرهابيّة التي سادت العراق، وعرفوا الوسائل التي تتعامل بها السلطة مع معارضيها، إذ يُعتبر هذا الموقف من المواقف الشجاعة والبطوليّة؛ لأنّه يمثّل تحدّياً خطيراً للسلطة.

٣ ـ وفي اعتقاله الذي تعرّض له (رضوان الله عليه) في انتفاضة (١٧) رجب عام (١٩٧٩م=١٣٩٩هـ) كان الأخ المجاهد حجة الإسلام والمسلمين الشيخ طالب السنجري ـ حفظه الله ـ قد بقي في تلك الليلة في منزل السيّد الشهيد متبرّعا بحمايته والدفاع عنه في حال تعرّضه لما كنّا نخشى وقوعه، وفي الصباح حينما جاء مدير أمن النجف لاعتقال السيّد الشهيد أصرّ سماحة الشيخ السنجري على مرافقة السيّد الشهيد، والذهاب معه إلى مديريّة الأمن العامّة، رغم علمه بأنّ الاعتقال هذا ليس بهدف التحقيق، وإنّما للإعدام، ورغم منع قوات الأمن له، فقد ألقى بنفسه في داخل السيارة التي كانت تحمل السيّد الشهيد، وذهب معه إلى مديريّة الأمن العامّة.

وفي بغداد أظهرت السلطة كلّ ما عندها من حقد وغضب عليه، فنال أقسى أنواع التعذيب ،وكان توقّع السيّد الشهيد (رحمه الله) أن ينال سماحة الشيخ السنجري الشهادة في ذلك اليوم.

وبعد الإفراج عن السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) على إثر التظاهرة التي خرجت في النجف، اعتذر مدير الأمن العامّ من السيّد الشهيد، وأبلغه أنّ (القيادة) لا تعتبر ما جرى اعتقالاً، بل زيارة!! وإذا كان قد حدث شيء من الإزعاج فإنّ مدير أمن النجف يتحمّل مسؤوليّة ذلك؛ لأنّه أساء فهم طلبنا منه بإحضاركم إلى بغداد.

وكان (رضوان الله عليه) قد حدّثني:

«أنّ السلطة كانت قد قرّرت إعدامي هذه المرّة، وكان كلّ الظواهر تدلّ على ذلك».

وسوف يأتي تفصيل ذلك في فصل الاعتقالات التي تعرّض لها ﷺ.

وعلى كلّ حال رفض السيّد الشهيد العودة إلى النجف إلّا بعد الإفراج عن مرافقه الشيخ السنجري ـ حفظه الله ـ وحاول مدير الأمن العامّ ثني السيّد الشهيد عن طلبه ولكن دون جدوى، وأخيراً اضطر مدير الأمن إلى إطلاق سراحه وعاد مع السيّد الشهيد إلى النجف، وقد قال لي:

«كنت مصمّماً على البقاء في مديرية الأمن مدى الحياة إذا لم تفرج السلطة عن مرافقي».

٤ ـ ويروي سماحة السيد كاظم الحائري القضيّة التالية:

«حدّثني الأستاذ ﷺ ذات يوم فقال: إنّني أتصوّر أنّ الأمّة مبتلاة اليوم بالمرض الذي كانت مبتلاة به في زمن الحسين ﷺ، وهو مرض فقدان الإرادة، فالأُمّة تعرف حزب البعث، والرجال الحاكمين في العراق، ولا تشكّ في فسقهم وفجورهم وطغيانهم وكفرهم وظلمهم للعباد، ولكنّها فقدت قوّة الإرادة التي بها يجب أن تصول وتجاهد في سبيل الله، إلى أن تسقط هذه الزمرة الكافرة عن منصب الحكم، وترفع الأُمّة كابوس هذا الظلم عن نفسها.

وعلينا أن نعالج هذا المرض كي تدبّ حياة الإرادة في عروق هذه الأُمّة الميّتة وذلك بما عالج به الإمام الحسين ﷺ مرض فقدان الإرادة في نفوس الأُمّة وقتئذٍ، وهو التضحية الكبيرة التي هزّبها المشاعر، وأعاد بها الحياة إلى الأُمّة، إلى أن انتهى الأمر بهذا السبب إلى سقوط دولة بني أُميّة. فعلينا أن نضحّي بنفوسنا في سبيل الله، ونبذل دماءنا بكلّ سخاء في سبيل نصرة الدين الحنيف.

والخطة التي أرى ضرورة تطبيقها اليوم هي أن أجمع ثُلّة من طلابي، ومن صفوة أصحابي الذين يؤمنون بما أقول، ويستعدّون للفداء ،ونذهب جميعاً إلى الصحن الشريف متحالفين فيما بيننا على أن لانخرج من الصحن أحياء، وأنا أقوم

خطيباً فيما بينهم ضدّ الحكم القائم، ويدعمني الثلّة الطيّبة الملتفّة من حولي، ونثور بوجه الظلم والطغيان، فسيجابهنا جمع من الزمرة الطاغية ونحن نعارضهم ـ ولعلّه قال: ونحمل السلاح ـ إلى أن يضطرّوا إلى قتلنا جميعاً في الصحن الشريف، وسأستثني ثلّة من أصحابي عن الاشتراك في هذه المعركة، كي يبقوا أحياء من بعدي ويستثمروا الجوّ الذي سيحصل نتيجة لهذه التضحية والفداء.

قال ﴿﴾: إنّ هذا العمل مشروط في رأيي بشرطين:

الشرط الأوّل: أن يوجد في الحوزة العلميّة مستوىً من التقبّل لعملٍ من هذا القبيل. أمّا لو أطبقت الحوزة العلميّة على بطلان هذا العمل وكونه عملاً جنونيّاً، أو مخالفاً لتقيّة واجبة، فسوف يفقد هذا العمل أثره في نفوس الأُمّة، ولا يوفي ثماره المطلوبة.

الشرط الثاني: أن يوافق أحد المراجع الكبار مسبقاً على هذا العمل كي يكتسب العمل في ذهن الأُمّة الشرعيّة الكاملة.

فلابدّ من الفحص عن مدى تواجد هذين الشرطين. أمّا الشرط الأوّل فصمّم الأُستاذ ﴿﴾ على أن يبعث رسولاً إلى أحد علماء الحوزة العلميّة لجسّ النبض ليعرض عليه هذه الفكرة ويستفسره عن مدى صحّتها. وبهذا الأُسلوب سيعرف رأي عالم من العلماء كنموذج لرأي يتواجد في الحوزة العلميّة.

وقد اختار ﴿﴾ بهذا الصدد إرسال سماحة الشيخ محمّد مهدي الآصفي ـ حفظه الله ـ إلى أحد العلماء، وأرسله بالفعل إلى أحدهم كي يعرض الفكرة عليه ويعرف رأيه، ثمّ عاد الشيخ إلى بيت أُستاذنا الشهيد وأخبر الأُستاذ بأنّه ذهب إلى ذلك العالم في مجلسه ،ولكنّه لم يعرض عليه الفكرة، وكان السبب في ذلك أنّه حينما دخل المجلس رأى أنّ هذا الشخص مع الملتفّين حوله قد سادهم جو من الرعب والانبهار الكامل نتيجة قيام الحكومة البعثيّة بتسفير طلبة الحوزة العلميّة ،ولا توجد أرضيّة لعرض مثل هذه الفكرة عليه إطلاقاً.

وأمّا عن الشرط الثاني فرأى أُستاذنا الشهيد ؒ أنّ المرجع الوحيد الذي يترقّب بشأنه أن يوافق على فكرة من هذا القبيل هوالإمام الخميني ـ دام ظلّه ـ الذي كان يعيش وقتئذٍ في النجف الأشرف، فلا يصحّ أن يكون هذا العمل من دون استشارته، فذهب هو (رضوان الله عليه) إلى بيت السيّد الإمام وعرض عليه الفكرة مستفسراً عن مدى صحّتها، فبدأ على وجه الإمام ـ دام ظلّه ـ التألّم، وأجاب على السؤال بكلمة (لا أدري) وكانت هذه الكلمة تعني أنّ السيّد الإمام ـ دام ظلّه ـ كان يحتمل أن تكون الخسارة التي ستوجّه إلى الأُمّة من جرّاء فقد هذا الوجود العظيم أكبر ممّا قد تترتّب على هذا العمل من الفائدة.

وبهذا وذاك تبيّن أنّ الشرطين مفقودان، فعدل أُستاذنا الشهيد ؒ عن فكرته، وكان تاريخ هذه القصّة بحدود عام (١٣٩٠هـ [=١٩٧٠م]) أو (١٣٩١هـ [=١٩٧١م])»[١].

وكان من جملة الظروف والأسباب التي أدّت الى هذا التفكير التضحوي ما تعرّض له طلبة الحوزة العلميّة والعلماء وبعض أوساط الأُمّة من حملات تسفير وتشريد رهيبة كانت تستهدف القضاء على الإسلام.

٥ ـ بعد اغتيال الشهيد المطهري على أيدي القوىٰ المضادّة للثورة قرّر السيّد الشهيد إقامة مجلس الفاتحة عليه للاعتبارات التالية:

أوّلاً:لأنّ الشهيد الشيخ المطهري يعتبر من رجالات الثورة الإسلاميّة ،وأحد منظّري إيران الفكريين، لذا كان الواجب تكريم هذه الشخصيّة الكبيرة.

وثانياً:كان موقف بعض المرجعيّات من انتصار الثورة الإسلاميّة وإقامة حكومة إسلاميّة في إيران موقفاً يتّسم بالضعف والخوف، فقد أحجم الجميع عن

١ ـ مباحث الأُصول، ج١ ص٤٩.

القيام بأيّ عمل تكريمي لهذه الشخصيّة الكبيرة، وكان مجلس الفاتحة اليتيم هو المجلس الذي أقامه الشهيد الصدر. بينما كانت بعض المرجعيّات في تلك الفترة تُقيم مجالس الفاتحة والعزاء لمن كان يعتبر في مستواه العلمي والاجتماعي بمنزلة تلميذ من تلاميذ الشيخ المطهّري، بل كانت ـ بعض الجهات ـ تتسابق لإقامة مثل هذه الأعمال الاجتماعيّة، وكان يعتبر ذلك نوعاً من فرض الوجود العملي على الميدان، والساحة الاجتماعيّة لهذه المرجعيّة أو تلك. بينما كان السيّد الشهيد قد نأى بنفسه عن تلك المظاهر والأعراف.

أحجم الجميع عن إقامة مجلس الفاتحة على روح الشهيد المطهري، وهذه حقيقة يعرفها الجميع، ومن المؤكّد لو أنّ المطهّري كان قد توفّي في زمن الشاه المقبور لأُقيم له أكثر من مجلس، أمّا في زمن الإمام الخميني ﷺ وفي ظلّ الثورة الإسلاميّة في إيران فلا يجرأ على ذلك إلّا الشهيد الصدر؛ لأنّ هذا المجلس لايحقّق هدفاً اجتماعيّاً أو مصلحة ذاتيّة، كما هو الحال في الظروف الطبيعيّة ،بل قد يسبب مشاكل لاحدّ لها مع السلطة.

وأقام (رضوان الله عليه) مجلساً حاشداً في جامع الطوسي في النجف الأشرف، ليعبّر من خلاله عن وقوفه ودعمه للثورة الإسلاميّة في إيران وتحشّدت قوّات السلطة تراقب المجلس بدقّة، وتلتقط الصور الفوتوغرافيّة لكلّ داخل وخارج؛ لأنّها تعلم أنّ هذا المجلس يختلف عن غيره في الهدف والقصد ،ولذا كان هذا المجلس من (أدلّة الإدانة) التي وجّهت للسيّد الشهيد في اعتقال رجب.

لم يكن خافياً على سيّدنا الشهيد الخطر الذي يترتّب على مثل هذه النشاطات والأعمال ،ولكنّه وجد أنّ الموقف المبدأي والرسالي يتطلّب هذا النوع من التضحية، فلم يتردّد لحظة في إعطاء المبادئ والقيم ما تريد، وهكذا فعل.

٦ ـ ومن مواقف الفداء والتضحية ما حدث خلال فترة الحجز، وهو في أشدّ

ظروف المحنة، وأقسى أيّام الحصار، فقد أجاب على كلّ البرقيّات التي كانت قد أُرسلت له من قبل بعض العلماء والقيادات الدينيّة والسياسيّة في جمهورية إيران الإسلاميّة، ومنها برقية الإمام السيّد الخميني (قدس سره)،وهي وإن كانت لم تصله إلّا أنّه استمع لها من الإذاعة العربيّة في طهران، وقد إجاب عليها من خلال اتصال هاتفي من إيران وأُذيع من خلال المذياع ونصّ الجواب كما يلي:

«سماحة آية الله العظمى الإمام المجاهد السيد الخميني (دام ظله).

استمعت إلى برقيتكم التي عبّرتم بها عن تفقّدكم الأبوي لي، وإنّي إذ لا يتاح لي الجواب على البرقية لأنّي مودّع في زاوية البيت ولا يمكن أن أرى أحداً أو يراني أحد لا يسعني إلّا أن أسأل المولى (سبحانه وتعالى) أن يديم ظلّكم مناراً للإسلام، ويحفظ الدين الحنيف بمرجعيّتكم القائدة. أسأله تعالى أن يتقبّل منّا العناء في سبيله، وأن يوفّقنا للحفاظ على عقيدة الأُمّة الإسلامّية العظيمة ،وليس لحياة أيّ إنسان قيمة إلّا بقدر ما يعطي لأُمّته من وجوده وحياته وفكره، وقد أعطيتم للمسلمين من وجودكم وحياتكم وفكركم ما سيظلّ به على مدى التاريخ مثلاً عظيماً لكلّ المجاهدين.

محمد باقر الصدر».

ولك ـ أيّها القارئ الكريم ـ أن تقدّر خطورة هذا الموقف قياساً بالأوضاع والظروف التي كانت تحيط بالسيّد الشهيد، ووضع السلطة وموقفها منه.

لم يكن خافياً على السيّد الشهيد أنّ أقصر الطرق ـ لو أراد فك الأزمة المستعصية مع السلطة ـ هو الابتعاد بولائه وتأييده لشخص الإمام الخميني والثورة الإسلاميّة في إيران. إنّ ذلك كان سيحقّق له السلامة الشخصيّة ولو لأمدٍ ما.

ولم يكن خافياً عليه أنّ طريق الشهادة السريع هو في الإعلان عن هذا الولاء والتأييد.

وكان (رضوان الله عليه) لو أراد أن يستعمل ـ الدبلوماسيّة ـ لكان بإمكانه أن يتعذر

للسلطة أثناء التحقيق الذي جرى معه في اعتقال رجب عن برقيّة الإمام الخميني بأنّ البرقيّة كانت مبادرة من الإمام لايتحمّل هو مسؤوليتها، ولكنّه لم يفعل.

ولم يستلم السيّد الشهيد وحتّى يوم استشهاده برقية الإمام؛ لأنّها احتجزت من قبل السلطة قبل وصولها إليه، وكان قد سمعها من جهاز التسجيل فقط.

وكان من حقّ السيّد الشهيد أن يعتذر عن الجواب، فمن هو في وضعه «لأنّي مودع في زاوية البيت ولايمكن أن أرى أحداً أو يراني أحد» حسب تعبيره لا يتوقّع منه أحد جواباً على برقيّة، وإذا كانت هناك ضرورة تُلزم بالجواب فإنّ هناك طرقاً اُخرى غير الهاتف أسهل وأفضل، بل كان بإمكان السيّد الشهيد قطع الاتصال الهاتفي، وكان سيعتقد من كان على الخط أنّ السلطة هي التي فعلت ذلك.

ولم يسمح إباء الصدر بكلّ ذلك، فما أن تمّ الاتصال به مع إيران حتّى تلا جواب البرقيات وكان قد أعدّه قبل ذلك، ونقله الأثير من خلال إذاعة إيـران وتلفازها إلى أسماع المؤمنين والمسلمين في معظم أنحاء العالم ،وعبّر بذلك عن دعمه المطلق، وتأييده اللامحدود للإمام الراحل وللثورة المباركة، وسجّل موقفاً خَلُد في صفحات الفداء والتضحية من التاريخ.

وكذلك لم يتردّد‏ؒ من الحديث مع من اتصل به من إيران في المكالمة الهاتفيّة التي أذاعها راديو طهران القسم العربي رغم أنّه لم يكن يعرف المتحدّث معه ـ وكان يظنّ أنّه سماحة حجة الاسلام والمسلمين الشيخ التسخيري.

وكان (رضوان الله عليه) يتوخّىٰ من ذلك تحقيق عدة أهداف منها:

١ ـ أنّه شخّص أنّ صدّاماً جاء بسياسة القبضة الحديديّة والأرض المحروقة والتصفية الجسديّة، وقد بدأ بها بشكل واضح فلابدّ للسيّد الشهيد أن يستبق الأحداث ليسجّل الموقف الإسلامي.

٢ ـ أنّ القرار الغربي هو إدخال العراق وشعبه في مواجهة مع الثورة

الاسلاميّة ومسخ هويّة الشعب العراقي، فكان موقف الشهيد الصدر هو إنقاذ الشعب من هذه المأساة بإعلانه الموقف الأصيل.

٣ ـ كسر الحاجز النفسي والروحي الذي كان يلف الشعب العراقي من خلال هذه التضحية، وبدء مسيرة الجهاد، وهذا ما حصل بالفعل.

٤ ـ تسجيل الموقف المبدئي والإسلامي تجاه الثورة وسلامة خطّها، وأهميّة هذه التجربة العظيمة.

المرجعيّة والحوزة العلميّة

في حياة الإمام الشهيد الصدر ﵀

- مرحلة ما قبل التصدّي للمرجعيّة.
- مرحلة التصدّي للمرجعيّة.
- المرجعيّة الموضوعيّة.
- عقبات التصدّي للمرجعيّة.
- إنجازاته الحوزويّة.

مرحلة ماقبل التصدّي للمرجعيّة

من المواضيع الجديرة بالبحث موضوع المرجعيّة ـ فكراً وسلوكاً ـ في حياة الإمام الشهيد الصدر، كيف كان يعمل ويخطّط للنهوض بها إلى مستوى الطموح الإسلامي الكبير، وبما يواكب متطلبات العصر الحديث وحاجاته المتجدّدة؟.

والحوزة العلميّة باعتبارها مؤسّسة علميّة ودينيّة تعيش في ظلّ المرجعيّة، وتعيش المرجعيّة في كنفها، كيف كان يراها الإمام الشهيد الصدر؟ وهل كان يخطّط لإعادة بنائها وتنظيم كافّة مرافقها الدراسيّة والمنهجيّة والإداريّة بما يتناسب مع دورها في الحياة الإسلاميّة، ومع مقتضيات العصر وحاجاته الراهنة والمستقبليّة؟.

ولا أُريد هنا أن استعرض تاريخ المرجعيّات والحوزة العلميّة على امتداد التاريخ، وما لهما من نقاط إيجابيّة ومواقف رائعة، أو ما عليهما من سلبيّات شكّلت نقاط ضعف ومحاسبة ترشحت منها مشاكل كبيرة ورثتها المرجعيّات الواعية وتحمّلت عواقبها ودفعت ثمناً غالياً وكبيراً تسبب في تأخير حصاد المردودات الإيجابيّة لصالح المسيرة الإسلاميّة الكبرى.

إنّ ذلك يحتاج إلى دراسات مستقلّة تبحث المسألة من جذورها القديمة، وإنّما أُشير فقط إلى ما كان منها محلّ اهتمام السيّد الشهيد﴾.

لقد وجد شهيدنا العظيم أنّ أوّل وأهمّ قضيّة يجب أن تعالج هي الحالة الذاتيّة في المرجعيّة، إذ المفروض على كلّ مرجعيّة أن تعتمد الموضوعيّة أُسلوباً في عملها المرجعي، لأنّه يحقّق أكبر قدر من الخدمة للإسلام، ولابدّ لكلّ مرجعيّة أن تكون حلقة في سلسلة كبرى، ولبنة قويّة تشدّ اللبنة التي سبقتها والتي تليها، والمرجعيّة الجديدة يجب أن تواصل عمليّة البناء من حيث انتهت المرجعيّة التي سبقتها، لا أن تبدأ من نقطة الصفر كما هو الحال في أُسلوب المرجعيّة الذاتيّة، لأنّ المرجعيّة الدينيّة ليست مجداً شخصيّاً ولا وقفاً على صنف دون آخر، بل هي مسؤوليّة دينيّة ومقام ربّاني، وعلىٰ هذا الأساس لايجوز أن تُترك هذه الأمانة رهناً للظروف والأوضاع، ولابدّ من إيجاد صيغة سليمة تضمن استمرار عمل المرجعيّة وتكفل سلامة مسيرتها.

وقد عالج شهيدنا الصدر ذلك بوضع أُطروحة المرجعيّة الموضوعيّة التي سيأتي ذكرها.

والقضيّة الأُخرى المهمّة هي افتقار المرجعيّة والحوزة إلى نظام داخلي ـ إن صحّ التعبير ـ واضح المعالم، محدّد الصورة، يحكم كافّة المجالات.

كان السيّد الشهيد ﴿ قد شخّص تلك المشاكل، واقترح لها الحلول الناجعة قبل تصدّيه العملي للمرجعيّة، فكان طموحه وتفكيره باتجاه بناء هيكل مرجعي وحوزوي متين ينسجم مع متطلّبات العصر، ويلبّي كافة المستجدّات في حياة الأُمّة بما يخدم الإسلام على أكمل وجه، ولم يكن بالإمكان إحداث هذا التغيير بين عشيّة وضحاها، خاصّة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أجواء الحوزة، والتقاليد التي تسودها، وكذلك الإمكانات العمليّة والماديّة في مجال التنفيذ بالنسبة للسيّد الشهيد، والتي كانت محدودة إلى درجة كبيرة.

ولم يكن من خيار أمام سيّدنا الشهيد ﴿ في تلك الفترة إلّا الاستفادة من الوضع

الموجود، والإمكانات المتاحة لإحداث بدايات التغيير حسب الأُطروحة التي كان قد وضعها.

ومن المؤكّد أنّ عمليّة التغيير التى كان يستهدفها الشهيد الصدر في تلك المرحلة كانت شاملة للمرجعيّة والحوزة من جانب، وللأُمّة من جانب آخر، إذ يبدو من تاريخ تأسيس حزب الدعوة الإسلاميّة في أواخر عام (١٩٧٥م) المصادف لربيع الأوّل (١٣٧٧هـ) وتأسيس جماعة العلماء في عام (١٩٥٨م)، أنّ ما كان قد صمّم على تنفيذه خطّة شاملة وعامّة لكليهما.

تأسيس جماعة العلماء:

وظهرت أُولى معالم التغيير بتأسيس جماعة العلماء في النجف الأشرف، وإصدار مجلة الأضواء، وممّا لاشكّ فيه أنّ الشهيد الصدر كان قد أدّى دوراً كبيراً في دعمها وتطويرها وتنميتها بكلّ ما يملك من طاقات وإمكانات، وهو وإن لم يكن عضواً فيها إلّا أنّ تأثيره كان يتمّ عن طريق خاله المرحوم آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين، الذي كان يثق ثقة تامّة بسيّدنا الشهيد الصدر وبحكمته وتخطيطه.

وعن جماعة العلماء ومبرّرات وجودها واهدافها كتب سماحة آية الله السيّد محمد باقر الحكيم (حفظه الله) عن تلك الفترة ما يلي:

«لابدّ لأن نفهم عمق الأحداث التي سوف أتناولها، والمواجهة التي وقعت بين الإمام الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) وحزب البعث في العراق، من أن نرجع إلى بدايات سنة (١٣٧٨هـ=١٩٥٨م) أي بعد التغيير في الحكم الذي حصل في العراق بعد انقلاب الرابع عشر من تموز عام (١٩٥٨م=١٣٧٨هـ)، فقد ظهرت على سطح المسرح السياسي في العراق مجموعة من التيّارات السياسيّة والفكريّة، بعد أن

حصل الشعب العراقي نتيجة الانقلاب على بعض المكاسب السياسيّة والاجتماعيّة.

وقد احتدم الصراع في المرحلة الأُولى بين التيار الماركسي الذي كان يقوده الحزب الشيوعي العراقي والذي كان يحصل على الدعم المعنوي من قائد الانقلاب عبد الكريم قاسم من جانب، ومجموعة التيّارات السياسيّة الأُخرى كالتيار القومي الذي كان يجمع بين الناصريين والبعثيين وغيرهم، والذي كان له وجود سياسي في الحكم وفي الشارع، بسبب الدعم الذي كان يحصل عليه من الجمهوريّة العربيّة المتّحدة حينذاك بقيادة جمال عبد الناصر، وكالتيّار الإسلامي الذي كانت تتعاطف معه جماهير واسعة من الشعب العراقي المسلم دون أن يكون له وجود سياسي قويّ، عدا بعض الأحزاب السياسيّة الإسلاميّة الصغيرة.

وقد وجد علماء النجف الأشرف أنّ من الضروري أن يطرح الإسلام كقوّة فكريّة وسياسيّة أصيلة تنتمي إلى السماء، وتمتدّ جذورها في الشعب المسلم.

وولدت من أجل ذلك أُطروحة (جماعة العلماء) التي يمكن أن نقول بحقّ إنّ وجودها يرتبط بشكل رئيسي بعقليّة السيّد الشهيد الصدر، واهتمامات المرجعيّة الدينيّة وطموحاتها الكبيرة التي كانت تتمثّل بالمرحوم الإمام السيّد محسن الحكيم، بالإضافة إلى الشعور بالحاجة الملحّة لمثل هذه الأُطروحة لدى قطّاع واسع من الأُمّة.

ورغم أنّ السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) لم يكن أحد أعضاء جماعة العلماء لصغر عمره، إلّا أنّه كان له دور رئيسي في تحريكها وتوجيهها، كما ذكرت ذلك في مذكّراتي عن جماعة العلماء في النجف الأشرف.

ومن خلال ذلك تمكّن علماء النجف الأشرف أن يطرحوا الخطّ الإسلامي الصحيح، ويعملوا على إيجاد القوّة السياسيّة الإسلاميّة المتميّزة.

وقد باشرت جماعة العلماء ـ بالرغم من قوّة الأحداث، وعدم توفّر الخبرة السياسيّة الكافية، وتخلّف الوعي الإسلامي في الأُمّة ـ عملها من أجل إرساء قواعد هذا الخطّ الأصيل، وذلك من خلال بعض المنشورات والاحتفالات الجماهيريّة، والاتّصال ببعض قطّاعات الشباب، وإصدارها لمجلة الأضواء الإسلاميّة التي كانت تشرف عليها لجنة توجيهيّة مكوّنة من شباب العلماء، كان لها اتّصال وثيق بالسيّد الشهيد الصدر.

بعد مضي أقلّ من عام تمكّنت جماعة من العلماء من بناء قاعدة إسلاميّة شابّة، ولذا قرّرت هذه الجماعة إصدار نشرة الأضواء الإسلاميّة كأداة للتعبير عن وجودها من ناحية، ولمواصلة السير في الطريق الذي رسمته من ناحية ثانية.

وقد بعثت مجلة الأضواء من خلال خطّها الفكري والسياسي، ومن خلال ما رسمته من معالم الطريق الإسلامي وخطوطه العريضة، وبالأخصّ الخطوط التي كانت ترسم ضمن موضوع ـ رسالتنا ـ الذي كان يكتبه السيّد الشهيد الصدر بإسم جماعة العلماء، وبإذنها طبعاً بعث الروح الإسلاميّة في قطّاعات واسعة من الجماهير.

وسافرت إلى لبنان في سنة (١٣٨٠هـ=١٩٦٠م) حيث كانت طموحاتنا أن أنقل أفكارنا إلى ذلك البلد، وودّعت السيّد الأُستاذ الشهيد حيث كان في الكاظميّة حينذاك بعد أن عشت معه أياماً، وكنت أُراسله باستمرار في رسائل طويلة، وكان يجيبني بأُخرى يتحدّث فيها عن عواطفه الفيّاضة وهمومه الإسلاميّة.

وفي هذه الرسائل بدأ السيّد الشهيد يحدّثني عن هجمة قاسية شرسة، قام بها حزب البعث تستّرت ببعض أهل العلم، فلقد كانت الواجهة في هذه الهجمة بعض من ينتسب إلى أهل العلم، ولكن كانت يد حزب البعث وراءها، حيث يطرح السيد الاستاذ في بعض رسائله بأنّ المحامي (حسين الصافي) الذي كان معمّماً

من قبل، ومن عائلة علميّة، وله صلات شخصيّة وطيدة ببعض أهل العلم، ومسؤول حزب البعث في النجف الأشرف، كان وراء هذه الحملة، وتحدّث إلى بعض الأشخاص لإثارتهم.

فقد كتب السيد الشهيد في صفر (١٣٨٠هـ=١٩٦٠م) يقول:

«لقد كان بعدك أنباء وهنبثة، وكلام، وضجيج، وحملات متعدّدة جُنّدت كلّها ضد صاحبك [١]، وبغية تحطيمه... ابتدأت تلك الحملات في أوساط الجماعة التوجيهيّة المشرفة على الأضواء، أو بالأحرى لدى بعضهم ومن يدور في فلكهم فأخذوا يتكلّمون وينتقدون، ثمّ تضاعفت الحملة، وإذا بجماعة تنبري من أمثال حسين الصافي ـ ولا أدري ما إذا كانت هناك علاقة سببيّة وارتباط بين الحملتين، أو لا ـ تنبري هذه الجماعة... فتذكر عنّي وعن جماعة ممّن تعرفهم شيئاً كثيراً من التهم من الأُمور العجيبة».

ومن الملاحظ أنّ البعثيين استعملوا في هذه الحملة أُسلوبين رئيسين:

الأوّل: أُسلوب الاتّهام بأن هذه المجلة لاتعبّر عن رأي جماعة العلماء، وإنّما هي تعبّر عن رأي تنظيم سياسي ديني سرّي يستغل اسم جماعة العلماء، وقد كان الاتّهام بالتنظيم السياسي في تلك الفترة الزمنيّة يعتبر تهمة شنيعة، بسبب التخلّف السياسي الديني في أوساط المتديّنين، وبالأخص أهل العلم منهم.

الثاني: موضوع (رسالتنا) الذي يُكتب باسم جماعة العلماء، وكان يكتبه السيّد الشهيد الصدر دون أن يعرضه على أحد منهم، فقد كتب السيّد الشهيد في نفس الفترة يقول:

«كما أنّ هناك زحمة من الإشكالات والاعتراضات لدى جملة من الناس، أو (الآخونديّة) في النجف على النشرة، وخاصّة (رسالتنا)، باعتبار أنّها كيف

١ ـ يعني نفسه رضوان الله عليه.

تنسب إلى جماعة العلماء مع أنّها لم توضع من قبلهم، ولم يطّلعوا عليها سلفاً، وأنّ في ذلك هدراً لكرامة العلماء، هذا في الوقت الذي يقول الأخ.....إنّ الكلمة في بغداد متّفقة على أنّ (رسالتنا) كتابة تجديد وابتكار تختص بمستواها الخاصّ عن بقيّة الأضواء».

وقد كتب في ٦ ربيع الأوّل ١٣٨٠هـ=١٩٦٠م

«لا أستطيع أنّ أذكر تفصيلات الأسماء في مسألة جماعة العلماء وحملتها على الأضواء... ولكن اكتفي بالقول: بأنّ بعض الجماعة كان نشيطاً في زيارة أعضاء جماعة العلماء لإثارتهم على الأضواء، وعلى (رسالتنا)، حتّى لقد قيل: إنّ الشيخ الهمداني الطيّب القول قد شُوّهت فكرته عن الموضوع... وهذا الذي حصل بالنسبة للشيخ الهمداني حصل بالنسبة إلى جملة من الطلبة مع الاختلاف في بعض الجهات».

وقد كتب أيضاً:

«فإنّني أُجيبك على سؤالك فيما يخصّ من موقف الخال، فإنّ الشيخ الخال كان في الكاظميّة بعيداً عن الأحداث نسبياً، ولم يطّلع إلّا على سطحها الظاهري، هو ماضٍ في تأييده (للأضواء) ومساندته لها، وقد طلب... أن يكتب إلى بعض جماعة العلماء لتطييب خاطرهم، وجلب رضاهم عن (الأضواء)... فكتب إلى....وأخبره بأنّ (الأضواء) لم تكن تصدر إلّا بعد مراقبته وإشرافه، وأنّها تناط الآن... كما أخبره بأنّ كاتب (رسالتنا) سوف ينقطع عن الكتابة...».

وأيضاً كتب السيّد الشهيد:

«فقد حدّثني شخص في الكاظميّة أنّه اجتمع به في النجف الأشرف فأخذ يذكر عنّي له سنخ التُهم التي كالها حسين الصافي من دون مناسبة مبرّرة. وعلى كلّ حال، عسى أن يكون له وجه صحّة في عمله إن شاء الله».

وقد كان لهذه الإثارة دور كبير في تحريك جماعة العلماء بالخصوص ضدّ السيّد الشهيد، فإنّ دوره الأساسي كان في أوساط المتشدّدين من أهل العلم

البعيدين عن التيّار الإسلامي وهمومه، ومشاكل الأُمّة وانحرافاتها الفكريّة والسياسيّة، ولذا كان تأثيره على جماعة العلماء محدوداً...

وقد أحسن السيّد الأُستاذ الشهيد الصدر في معالجة الموقف بهدوء حيث تمسّك بالصبر والسكوت، فقد كتب يقول:

«وأمّا واقع (الأضواء) هنا فهو واقع المجلة المجاهدة في سبيل الله، وقد هدأت ـ والحمد لله ـ حملة جماعة العلماء عليها بعد أن تمّ إشعارهم بأنّهم المشرفون عليها، غير أنّ حملة هائلة ـ على ما أسمع ـ يشنّها جملة من الطلبة، ومن يُسمّى بأهل العلم أو يحسب عليهم، وهي حملة مخيفة، وقد أدّت ـ على ما قيل ـ إلى تشويه سمعة (الأضواء) في نظر بعض أكابر الحوزة، حتّى كان جملة ممّن يسمّيهم المجتمع الآخوندي مقدّسين، أو وجهاء لايتورّعون عن إلصاق التّهم (بالأضواء) وكلّ من يكتب فيها...».

ومن الجدير بالذكر أنّه كان الإخوان في اللجنة التوجيهية يتسامحون في تقديم ما يكتبونه إلى الجماعة للإشراف المباشر عليه خوفاً من ملاحظات تبديها الجماعة تمسّ الصيغ الجديدة التي كانوا يقدّمونها للأفكار الإسلاميّة التي كانت تُمدّ التيار الإسلامي الواعي بالوقود والعطاء.

ولكن التجربة التي مارسوها بعد الضجّة دلّلت على أنّ جماعة العلماء كانت على درجة من الوعي تجعلها لاتعارض مثل هذه الأفكار، بل تمنحها التأييد والقبول؛ لأنّه يشهد (رضوان الله عليه) بعد ذلك في تاريخ ١٨ ربيع الأوّل فيقول:

«وأُسرة (الأضواء) التي لاغبار عليها وجه من الوجوه مورد للاطمئنان الكامل، وهم يعرضون مقالاتهم على الثلاثة، ولم يصادفوا لحدّ الآن مشكلة مبدأيّة في هذا المقام، والحمد لله ربّ العالمين».

«حدسي أنّ (الأضواء) سوف تستمر إن شاء الله تعالى؛ لأنّها تتمتّع الآن برصيد قويّ من الداخل والخارج، فمن الخارج بلغت عدد الاشتراكات (...) ومن الداخل تتمتّع برضا جماعة العلماء».

وهكذا تمكّن السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) بحكمته وصموده وصبره أن يواصل طريقه مع إخوانه وتلامذته في الجهاد، وأن يقفوا جميعاً في وجه هذه الهجمة الشرسة التي استغلت أخسّ المشاعر في الإنسان، واستعملت أخبث الأساليب، وتمكّن بسبب ذلك الخط الإسلامي الأصيل أن يستمرّ في تفاعله مع الامة والتاثير فيها.»[١]

وكتب سماحته كذلك عن جماعة العلماء ودور الإمام الشهيد الصدر فيها:

«... وكانت الفكرة العمليّة لدى الشهيد الصدر حولها هو أنّ إيجاد تنظيم يضم نخبة من العلماء الواعين الذين لديهم استعداد لممارسة العمل السياسي ولو بالحدّ الأدنى أمر مهم وعندها يكون التحرّك من خلالها ذا طابع جماعيّ ويمكن أن يحقّق الأهداف التالية:

أ ـ الواجهة السياسيّة ذات الصيغة الشرعيّة في نظر الأمّة وذات العمق التاريخي المتجذّر والتي يمكن ـ تحت غطاءها ـ أن يتمّ التحرّك المرحلي في بناء الحزب والقيام بالنشاطات الفكريّة والثقافيّة... في المقاطع المختلفة.

ب ـ دفع الأمّة باتجاه العمل السياسي واضفاء الشرعيّة عليه وكسر الحاجز النفسي الذي بناه الاستعمار في محاولته لفصل الدين عن السياسة خصوصا في أوساط الحوزة العلميّة حيث كانت تعيش تحت تأثير هذا الاتجاه من ناحية وما خلّفته إحباطات العمل السياسي للحوزة العلميّة من آثار ونتائج في السابق.

جـ ـ تطوير العمل السياسي في وسط الحوزة العلميّة بعد أن عمل الاستعمار على عزلها وتحجيم دورها، بل منعها في بعض الأحيان بالقوة عن ممارسة هذا الدور بحيث أصبح العمل السياسي وكأنّه من الأمور الغريبة والمرفوضة في بعض

١ ـ مجلة الجهاد العدد (١٤) الصادر في شهر جمادى الآخرة سنة ١٤٠١ هـ=١٩٨١م.

أوساط الحوزة العلميّة. وثم يمكن لهذه الجماعة أن يكون لها دور مهم في إسناد ودعم دور المرجعيّة الدينيّة الرشيدة في التصدّي للعمل السياسي.

د ـ مواجهة التيّارات الثقافيّة والسياسيّة ذات البعد الإلحادي وكذلك الانحرافات الأخلاقيّة والسلوكيّة في الأُمّة والتي كانت تحتاج إلى تصدٍّ واسع وفعّال من قبل الحوزة العلميّة.

وقد كانت المرجعيّة الدينيّة الرشيدة المتمثلة بالإمام الحكيم تلتقي في تحرّكها السياسي وتصوّراتها العمليّة مع الأهداف الثلاثة الأخيرة من وراء تأسيس جماعة العلماء بالإضافة إلى أهداف أُخرىٰ، الأمر الذي أدّىٰ إلى أن يقوم الإمام الحكيم ﷺ بالمساهمة مع بقيّة العلماء المنضوين تحت هذا التشكيل بتأسيس ودعم جماعة العلماء التي كانت تضمّ كبار علماء النجف الأشرف من الطبقة الثانية والثالثة بعد المراجع الكبار، والذين كانوا ينطلقون في نشاطاتهم وتصوّراتهم من أهداف المرجعيّة، ويمكن تلخيص الأهداف الأُخرىٰ المرحليّة لتأسيس جماعة العلماء ـ من وجهة نظر المرجعيّة وفي إطارها ـ بالأهداف التالية:

أ ـ المطالبة بالحقوق المهضومة للمسلمين بشكل عامّ والشيعة بشكل خاصّ سواء على المستوىٰ المدني أو الديني، وطرح الفكر السياسي الإسلامي على الأُمّة.

ب ـ اتخاذ المواقف السياسيّة تجاه الأحداث التي تواجهها الأُمّة وتطوّراتها، وإيجاد تيّار سياسيّ إسلامي في مقابل التيّارات الأُخرىٰ الوضعيّة التي غزت العراق وبلاد المسلمين مع الاهتمام بطرح هذا التيّار والفكر من خلال العمل الجماعي للحوزة العلميّة.

جـ ـ محاولة الجمع بين جميع أطراف الحوزة العلميّة المتمثّلة بالمراجع العظام في صفّ واحد تجاه الأحداث والمواقف، حيث كانت هذه الجماعة تمثّل في

انتماءاتها الحوزويّة مختلف الأطراف المهمّة فيها، بالرغم من أنّ المرجع الأعلىٰ آنذاك هو الإمام الحكيم (رضوان الله عليه) الذي برزت المرجعيّة فيه بشكل واضح بعد وفاة آية الله البروجردي (رضوان الله عليه) سنة ١٣٨٠هـ= ١٩٦٠م.

وعلى هذا الأساس أمكن أن تتكوّن هذه الجماعة في النجف الأشرف التي كانت تسندها المرجعيّة الدينيّة وتلقي في الوقت نفسه تبنّياً غير محدود من الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) الذي كان حينذاك شابّا معروفاً بالفضل في أوساط الحـوزة العلميّة، ولكن لايسمح له عمره بالانضمام إلى قائمة أسماء الجماعة.

ولكنّه مع ذلك كتب جميع بياناتها السبعة، كما كان يكتب باسمها (كلمتنا) في مجلة الأضواء على الغالب.

وكان يفكر بالبداية أن ينشر باسمها كتاب (فلسفتنا) إلّا أنّه عدل عن هذه الفكرة بعد ذلك لما أثاره بعض الأشخاص ضدّه من (تهمة) أنّه يرغب باستخدام اسم الجماعة للتستّر على تحرّكه السياسي الواقعي وهو التحرّك الحزبي.

كما أنّه انقطع عن كتابة (كلمتنا) بعد ذلك باسمها بعد أن أثير هذا الموضوع ضدّه أيضاً.

وكانت لعلاقته الخاصّة برئيس هذه الجماعة خاله آية الله الشيخ (مرتضىٰ آل ياسين) وببعض أعضائها من أرحامه وأصدقائه أمثال ابن عمه السيّد (محمد صادق الصدر) وأخيه السيّد (اسماعيل الصدر) وآية الله السيّد (محمّد تقي بحر العلوم) وحجّة الإسلام والمسلمين السيّد (باقر الشخص) وغيرهم الأثر الكبير في قدرته على التأثير في مسار هذه الجماعة.

كما كان لوجود حجّة الإسلام السيّد (مهدي الحكيم) وأخيه السيّد محمّد باقر الحكيم (كاتب هذه السطور) في جهاز مرجعيّة الامام الحكيم الأثر المهم في التنسيق بين أهداف المرجعية من تشكيل جماعة العلماء وفكرتها والأهداف

الخاصّة للحزب الذي كان حينذاك في بداية وجوده ولم يكن قادراً على ممارسة التأثير إلّا من خلال هذه العلاقات الطبيعيّة التي كانت موجودة قبل وجود الحزب نفسه.

وبهذا الشكل تمكّنت هذه الجماعة أن تحظىٰ بتأييد المرجع العام وكلّ المراجع الآخرين، كما تحظىٰ في الوقت نفسه بقبول شباب الحوزة الذي يتطلّع للعمل المنظّم الخاصّ لأنّها كانت تمثّل من ناحية حاجة فعليّة وضروريّة للمرجعيّة وللحوزة العلميّة من جهة، وللتنظيم السياسي الخاصّ من جهة اُخرىٰ، كما أنّ أعضاءها كانوا يمثّلون الطبقة الثانية في الحوزة العلميّة الذين يأتون بعد المراجع العظام.

وبهذا أصبحت جماعة العلماء في النجف الأشرف نموذجاً يقتدىٰ به في ساحة العمل السياسي في وسط المرجعيّة الرشيدة والحوزات العلميّة والتنظيم الخاصّ.

وعندما توقّفت جماعة العلماء في النجف الأشرف أو تقلّص نشاطها لأسباب لامجال لتفصيلها الآن نجد انبثاق فكرة جماعة علماء في بغداد والكاظميّة لتحقيق أهداف المرجعيّة ذاتها بعد أن تولّت المرجعيّة مباشرة قيادة العمل السياسي وأصبحت قادرة علىٰ تجسيد وحدة الحوزة العلميّة باعتبارها المرجعيّة العليا. وقد تميّزت جماعة العلماء في بغداد والكاظميّة بنشاطها في الستينات وكانت تضمّ في أعضاءها كبار علماء بغداد والكاظميّة وكانت غالبيّتهم الساحقة من المستقلّين والعاملين في إطار المرجعيّة وحدها بالإضافة إلى بعض العلماء المعدودين الذين يرتبطون بالتنظيم»[1]

١ ـ الامام الشهيد الصدر ـ النظرية السياسية ص ٣٢ ـ ٣٩.

وذكر السيّد الحكيم أسماء اللجنة المشرفة على جماعة العلماء في النجف الأشرف وهم آية الله المرحوم الشيخ مرتضىٰ آل ياسين، وآية الله المرحوم الشيخ حسين الهمداني، وآية الله المرحوم الشيخ خضر الدجيلي.

وأمّا أعضاء الجماعة فهم آية الله المرحوم السيّد محمد تقي بحر العلوم، وآية الله المرحوم السيّد موسىٰ بحرالعلوم، وآية الله المرحوم السيّد محمد باقر الشخص، وآية الله المرحوم الشيخ محمّد رضا المظفّر، وآية الله السيّد مرتضىٰ الخلخالي، وآية الله المرحوم الشيخ محمد طاهر آل شيخ راضي، وآية الله الشيخ محمد جواد آل شيخ راضي، وآية الله المرحوم السيّد محمد صادق الصدر، وآية الله المرحوم الشيخ محمّد حسن الجواهري، وآية الله المرحوم السيّد اسماعيل الصدر، وآية الله الشيخ محمد تقي الايرواني.

تأسيس مدرسة العلوم الإسلاميّة:

والخطوة الأُخرىٰ التي كانت في إطار تغيير الأوضاع على الصعيد الحوزوي مساهمته الكبيرة في تأسيس (مدرسة العلوم الإسلاميّة) التي كانت تحت رعاية وإشراف آية الله العظمىٰ السيّد الحكيم (رضوان الله عليه)، وهي أوّل محاولة جادّة لتنظيم الوضع الدراسي في الحوزة، والخطوة الأُولىٰ نحو تبنّي أُسلوب (المراحل) فيالدراسة الحوزويّة.

وعلى كلّ حال لم تسلم جماعة العلماء، ولامدرسة العلوم الإسلاميّة (الدورة) من معارضة قويّة استهدف وأدهما معاً من قبل بعض الجهات التي لم يكن يروق لها هذا اللون من التجديد. ولعلّ الرسائل التي كتبها السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) إلى سماحة السيّد محمد باقر الحكيم (حفظه الله) تكشف عن حجم المعاناة التي كان الشهيد الصدر يعانيها من جرّاء هولاء وأمثالهم.

ومما يجدر ذكره هنا أنّ الإمام الشهيد الصدر كتب في هذه الفترة أحد الروائع الفكريّة التي أتحف بها العالم الإسلامي وهو كتاب (فلسفتنا) الذي لبّىٰ فيه أكبر حاجات العالم الإسلامي وقارع فيه الفكر الماركسي الإلحادي الذي كان يهيمن على ما كان يسمّىٰ بالمعسكر الشرقي.

هذه أهمّ النشاطات التي برزت على أساس الأُطروحة الشاملة التي وضعها السيّد الشهيد الصدر في مرحلة ما قبل التصدّي للمرجعيّة.

الشهيد الصدر يرفض التصدّي للمرجعيّة:

بعد وفاة الإمام الحكيم (رضوان الله عليه) عام (١٣٩٤هـ= ١٩٧٤م) حاول بعض علماء العراق المبرّزين وبعض الأوساط العلميّة في حوزة النجف الأشرف دعوة السيّد الشهيد الصدر إلى التصدّي للمرجعيّة، إلّا أنّه رفض ذلك بإصرارا مفضّلاً مصلحة الإسلام الكبرىٰ على ما يمكن أن نسمّيه بالمجد الشخصي والمكانة الدينيّة والاجتماعيّة الشخصيّة.

وكان ممّن حاول استجلاء الأمر تمهيداً لإرجاع الناس إليه في التقليد آية الله المرحوم السيّد مير محمّد القزويني ﷺ عالم محافظة البصرة وصاحب التأثير القوي فيها. إلّا أنّ السيّد الشهيد اعتذر عن القبول وكتب له رسالة جاء في مقطع منها:

«قبل بضعة أيّام جاء ابن اختكم العزيز ومعه بعض الإخوان الأعزّاء إليّ وذكروا أنّ سماحتكم تودّون التفضّل بالإطلاع علىٰ بعض بحوثي الفقهيّة فأرسلت تلبية للرغبة الأخويّة المقدّسة التي بلغتني عنكم بعض ماكتبه الطّلاب من بحوثي في كتاب الطهارة من العروة الوثقىٰ، وأنا أودّ يا مولاي العزيز بهذه المناسبة أن أشكر لكم عنايتكم الأخويّة بي التي أعتبرها بحقّ من كنوزي في الحياة ومن آمالي الكبيرة في خطّ الإسلام العظيم وفي نفس الوقت أؤكّد

لسماحتكم أنّي أرسلت تلك البحوث لمجرّد أن يطلّع أخ علىٰ بحوث أخيه غير راضٍ بأي وجه من الوجوه بأن يرتّب عليهابعض الآثار التي أشار إليها أُولئك الإخوان الأعزّاء الذين بلّغوني رغبتكم الشريفة فإنّهم ذكروا أنّ سماحتكم ترغبون في الاطلاع على بحوثي الفقهيّة وتقييمها من الناحية العلميّة لكي تتّخذوا موقفاً معيّناً تجاه المؤمنين الراغبين في الرجوع إليّ في مسائلهم الدينيّة. وهذه النقطة التي أُريد أن اتحدّث عنها إلىٰ سماحتكم فعلاً لأشرح بين يديكم واقع تقديري للموقف، إنّي لا أُفكّر فعلاً بأيّ شكل من الأشكال في القيام اجتماعيّاً بمهامّ الإفتاء ونحوها من الشؤون التي يمارسها اليوم المراجع الكبار أطال الله في أعمارهم لأنّي أنظر إلى القيام بهذه الشؤون بوصفه معنى حرفيّاً وأداة لخدمة الإسلام لابوصفه معنى إسميّاً وفقاً لنفع نفسي ومادامت نظرتي إلى القيام بتلك الشؤون نظرة حرفيّة باعتباره سبيلاً لخدمة الإسلام فأنا أُحسّ في الوقت الحاضر الذي يملأ فيه الفراغ بالمراجع الكبار أنّ دخولي إلى تلك المجالات ليس فيه مكسب للإسلام...»[١]

وكان رأي السيّد الشهيد الصدر في تلك الفترة أنّ الجهود و الطاقات يجب أن تتكاتف لدعم مرجعيّة عليا قادرة على سدّ الفراغ الذي تركه رحيل الإمام الحكيم في ظلّ ظروف قاسية جداً، إذ أنّ السلطة البعثيّة كانت قد استعدّت لتنفيذ مخطّط يستهدف المرجعيّة الدينيّة والحوزة العلميّة وهو ماكان يُعبّر عنه بـ(القضاء على الرجعية) ولم تكن متحرّجة أو متورعة من ارتكاب أبشع الجرائم إذا كان ذلك يحقّق لها هدفها. إنّ الشهيد الصدر كان يدرك أنّ الصراع الذي دار بين الإمام الحكيم وسلطة البعث لم يكن صراعاً شخصيّاً، وإنّما كان الصراع صراعاً عقائديّاً يتجاوز الحدود الشخصيّة. وهذا الأمر يفرض أن تكون النجف مستعدة لمواجهة بهذا المستوىٰ.

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٩١٤).

وعلى هذا الأساس وجد (رضوان الله عليه) أنّ الضرورة والظروف الموضوعيّة تحتّم تأييد مرجعيّة واحدة وقويّة تتخطّى بسرعة مراحل البناء المألوفة والمتعارفة بحيث لايتيسّر للسلطة المجرمة تنفيذ مخطّطها كما تريد، ومن هذا المنطلق تبنّى (رضوان الله عليه) مرجعيّة الإمام الخوئي ﴿رحمه الله﴾ فأرجع إليه في التقليد ـ حسب شروط اتفقا عليها ـ وحرص كلّ الحرص على دعم مرجعيّته بكلّ ما كان يملك من إمكانات.

ومن الوثائق التي بين أيدينا في هذا المجال جوابه على رسالة وجّهها إليه سماحة الشيخ عبد الأمير قبلان حول التقليد والأعلميّة فأجابه بأنّ الأعلم هو سماحة الإمام الخوئي ونصّ السؤال والجواب كالتالي:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

السلام على سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين وعلى أبنائه الميامين ورحمة الله وبركاته.

سليل الائمة وأمل الشيعة المحقق الكبير آية الله السيد محمد باقر الصدر دام ظلّه.

سلام عليكم ودعائي لكم وطلبه منكم نسأل الله أن يديمكم للأُمّة الإسلاميّة قائداً ورائداً.

بعد وقوع الكارثة التي حلّت بعالمنا الإسلامي بفقد عميدنا الكبير المرجع الأعلىٰ للطائفة الكريمة السيّد الحكيم ﴿رحمه الله﴾.

راجعنا بعض الإخوان في أمر تقليدهم وبما أنّ فضيلتكم الخبير في هذه الأُمور والمرجع في كلّ معظلة فالرجاء من سيادتكم إرشادنا إلى من نسلّمه أمر ديننا لنرشد إخواننا إليه ولكم جزيل الأجر والثواب.

ومن عندنا العائلة تبلغ سلامها إلى عيالكم الكريمة ووالدتكم الجليلة

ولشقيقتكم المصونة.

أخوكم المخلص

عبد الأمير قبلان

١٩٧٠/٦/٤م

بسمه تعالى

عزيزي المعظّم سماحة العلّامة الجليل الشيخ عبد الأمير قبلان دام عزّه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تلقّيت بكلّ احترام رسالتكم الأخويّة بمناسبة الفاجعة الكبرىٰ التي حلّت بالمسلمين فأسال الله سبحانه أن يحسن عزاءكم ويعظّم أُجورنا وأُجوركم.

ورأيي بشأن التقليد على أساس خبرتي بحال المراجع الأعلام متّعنا الله بدوام ظلهم جميعاً أن الأعلم هو سماحة الإمام الخوئي أدام الله ظلّه الوارف.

وتقبّلوا في الختام أخلص تحيّاتي واحترامي والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمّد باقر الصدر»[1]

وفي رسالة أُخرىٰ له إلى سماحة السيّد ذيشان حيدر كتبها له بعد أن وصلته أخبار تفيد أنّ بعض طلّابه حاولوا كسبه إلى جانب مرجعيّة السيّد الشهيد أكّد له فيها أنّه بريئ من كلّ من يمارس هذا الدور، وأنّه عدوٌ له وليس محبّاً يقول في مقطع من رسالته:

«قبل زمان نقل لي ناقل عن العلّامة الجليل السيّد جمال الدين نجل سيّدنا الأُستاذ دام ظلّه الوارف حديثاً مؤدّاه أنّه دامت بركاته نقل عنكم أنّكم أخبرتموه بأنّ بعض تلامذتي أقاموا لكم ولائم وعقدوا بعض الجلسات وكانوا يحاولون إقناعكم بالعدول عن مرجعيّة سيّدنا الأُستاذ دام ظلّه والتوجه في الإرجاع والتقليد إلينا وأنّكم قابلتم هذه المحاولات بثبات ولم تستجيبوا لها،

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٥٠).

وحينما سمعت الخبر في البداية كنت متأكّداً من عدم خلوّ ذلك من التباسات أوجبت الاشتباه، وكان تأكدي على ضوء ماسمعته أنا منكم من الأحاديث التي دارت بينكم وبين السيّد أبي عماد جمال الدين دامت بركاته، ولكن لمزيد الاحتياط اتصلت مع التلامذة الذين احتفوا بكم ودعوكم إلى بيوتهم وقلت لهم: إنّي بريء من كلّ شخص يمارس مثل هذا العمل فكانوا كلّهم يؤكّدون عدم قيامهم بذلك، وكانوا يريدون أن يكتبوا إليكم ليجعلوا منكم شاهداً لصدقهم أمامي، فأبرزت لهم اقتناعي وعدم الحاجة إلى تسبيب المتاعب لكم، ولكنّ شعوري أخيراً ببعض الآثار جعلني أشعر بأنّ مقتضى الوظيفة الشرعيّة أن أكتب اليكم مستوضحاً واقع الحال، وذلك لأنّي إذا ثبت لي أنّ شخصاً ممّن ينسب نفسه إليّ قد تكلم معكم لإقناعكم بالعدول في الإرجاع والمرجعيّة من سيّدنا الأُستاذ دام ظلّه إليّ فإنّي أعتبر ذلكَ الشخص عدوّاً لي وأسحب ثقتي منه، لأنّ المخلص لي هو من يسير كما أسير ويعظّم من أُعظّمه ويقدّس من أُقدّسه وأنت تعلم علاقتي الروحيّة بسيّدنا الأُستاذ وتعلم أنّك رجعت إليه وأعلنت عنه على أثر السؤال منّي...»[1]

ولمزيد الإطلاع راجع موضوع (أخلاقه مع أساتذته) فقد ذكرت العديد من الرسائل المشابهة التي تؤكّد إصراره على دعم وتأييد مرجعيّة السيّد الخوئي رحمه الله إلى جانب ابتعاده بنفسه عن كلّ مظاهر التصدّي للمرجعيّة رغم توفّر كلّ الشروط الذاتيّة والموضوعيّة فيه للتصدّي.

ولم يكن هذا الدعم والتأييد لمرجعيّة المرحوم الإمام الخوئي ﷺ ليمرّ دون أن يتعرّض الشهيد الصدر لكثير من العداء والمضايقات من بعض الجهات التي لم تكن راغبة بذلك وكانت تتوقع أن تحصل على هذا الدعم دون غيرها، ومن المؤكّد أنّ السيّد الشهيد لم يكن غافلاً عن ردود الفعل السلبيّة المتوقعة التي ستترتّب على

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٥١).

دعمه لمرجعيّة الإمام السيّد الخوئي ﵀ إلّا أنّه قدّم مصلحة الإسلام العليا على الأضرار والمصالح الشخصيّة، وهذا هو شأن القائد الرسالي الهادف.

مرحلة التصدّي للمرجعيّة

أسباب التصدّي للمرجعيّة:

أثبتت الأحداث أنّ الفراغ الذي تركه رحيل الإمام الحكيم ﵀ لم يُـملأ بالشكل المطلوب سياسيّاً واجتماعيّاً ـ وإن كان من الناحية الفقهيّة قد مُلأ كاملاً ـ وبدأت الأُمور تسير إلى ما لايحمد عُقباه وبدأت علامات الخطر واضحة فيما سوف تصل إليه أوضاع الأُمّة والمرجعيّة والحوزة في العراق.

لقد كان واضحاً لمن له أدنىٰ دراية بالأوضاع في العراق أنّ الضرورة كانت تقتضي التصدّي السريع لمرجع يفهم حياة الأُمّة والمجتمع العراقي بالذات من كلّ الزوايا والمناحي، ويحيط بالظروف والأوضاع إحاطة كاملة، ويعرف ما يجب ويلزم من مواقف وما لايجب ولا يلزم، ولايجعل التقيّة خطاً ثابتاً في عـمله، ولايفرّق فيه بين (الكيان المرجعي) كمقام ربّاني له لوازم ومقتضيات قد تفرض الإقدام على التضحية كما فعل الأئمة ﭺ، وبين المرجع باعتباره إنساناً من أبناء الأُمّة له الحقّ في حماية نفسه بالطريقة التي يراها من دون تأطّر بكيان ديني أو قيادي.

وأتذكّر أنّ من الأُمور التي هزّت الشهيد الصدر﵀ في تلك الفترة، أنّ أحد المؤمنين سأل أحد المراجع الكبار عن جواز أو حرمة الانتماء إلى حزب البعث الحاكم في العراق، فأفتاه بالجواز، وكان ذلك المرجع خائفاً من أن يكون السائل من جواسيس السلطة، أو أنّه يخشى من انعكاس ذلك على السلطة لو أفـتى بالحرمة، مما كان يسبب له أضراراً شخصيّة، وإلّا فنحن نعلم أنّ هذا المرجع يحرّم

في الواقع الانتماء الى حزب البعث العميل وانه أجلّ من ان يفتي بالجواز واقعا. وكان تعليق السيّد الشهيد على هذه القضيّة وغيرها أنّ الوضع إذا استمرّ بهذا الشكل فانّ الأجيال التي سوف تأتي سترى الانتماء إلى حزب البعث أمراً طبيعيّاً لاحرج فيه، ولهذا السبب تصدّى (رضوان الله عليه) إلى الإفتاء بحرمة الانتماء لحزب البعث، حتّى لو كان الانتماء صوريّاً، وأعلن ذلك على رؤوس الأشهاد، فكان هو المرجع الوحيد الذي أفتى بذلك وحزب البعث في أوج قوّته، وكان ذلك أحد الأسباب التي أدّت إلى استشهاده.

وأستطيع أن أقول: إنّ الإمام الشهيد الصدر توصّل إلى قناعة تامّة استند فيها إلى ما ترشّح من واقع التجربة أنّ الوضع في العراق عامّة والنجف باعتبارها مركز الحوزة والمرجعيّة خاصّة بحاجة إلى مرجعيّة من نمط آخر قادرة على معالجة مشاكل خطيرة وكبيرة وإيجاد حلول جريئة أو اتخاذ مواقف قد تسخط السلطة وتغضبها و لاأريد هنا سرد جميع ما تعرّضت له الأُمّة أو الحوزة في العراق من أزمات ومحن ولم تقف المرجعيّة العليا موقفاً يتناسب مع حجم المحنة، ولكن على سبيل المثال أذكر نموذجين:

الأوّل: عمليّات مطاردة الطلبة العراقيّين بحجّة أداء الخدمة العسكريّة الذي سبّب تقلّص عدد الطلبة الذين لم يكن يبلغ عددهم أكثر من مائة إلى مائة وخمسين نفراً، مضافاً إلى ما يصحب ذلك من قلق نفسي يؤثّر على مستوىٰ تحصيلهم العلمي.

والثاني: عمليّات التسفير التي عمّت الطلبة الآخرين من غير العراقيّين وهم بالآلاف مما يعنى في الواقع إفراغ الحوزة العلميّة في النجف وكربلاء والكاظميّة وسامراء وهذا ما وقع فعلاً.

وكذلك الحال مع حوادث كثيرة وخطيرة كان منها إعدام الشهداء الخمسة

الذين يمثّلون طليعة موكب الشهداء في العراق. وأيضاً الموقف من اعتقال أو إعدام المئات من أبناء الشعب العراقي.

انّ السلطة لم تجرأ في زمن مرجعيّة الامام الحكيم ﵁ على ارتكاب هذه الجرائم لأنّ الإمام الحكيم كان لها بالمرصاد، ليس فقط لأنّ مرجعيّته كانت مرجعيّة عامّة بل لأنّه كان يملك الشجاعة الكافية لمواجهة السلطة، هذه الشجاعة التي كانت تجعلها تحسب له ألف حساب، وكان بحق أن يعبّر السيّد الشهيد الصدر عنه بـ (الإمام المجاهد) [1] لأنّه كان يقف بحسب ما تمليه عليه المسئوليّة الشرعيّة من دون ملاحظة لأوضاعه الشخصيّة، وكان السيّد الحكيم ﵁ يعلم يقيناً أنّ أيّ مواجهة مع السلطة سوف لاتكون لصالحه شخصيّاً قطعاً ولكنّه مع ذلك حرص أن يبذل كلّ ما في وسعه للحفاظ على الكيان الإسلامي مهما كانت الأضرار الشخصيّة.

من هنا نجد تقييماً رائعاً لشخصيّة الامام الحكيم في رسالة تعزية بعثها السيد الشهيد (رضوان الله عليه) إلى نجله الشهيد السيّد مهدي الحكيم ﵁ لاعلى أساس خصائص الإمام الحكيم الذاتيّة فقط بل لأنّه مثّل المرجعيّة المستقيمة الصامدة الطاهرة يقول في رسالته:

«أكتب إليك وقلبي يتفطّر وكياني يتفجّر ألماً، والدنيا أمام عيني مظلمة بعد أن انطفأت الشمس وهوىٰ العماد وتهدّم البنيان الذي تعلّقت به آمال كلّ الواعين من المسلمين وسقطت الراية التي عشنا في ظلها ونعمنا في فيئها بآلام الجهاد، إي والله يا أخي نعمنا في فيئها بآلام الجهاد وما ألذّه من نعيم وما أروعها من راية تسقط وهي في قمّة الصمود والثبات، في قمّة النظافة والطهر، في قمّة الاستقامة والنزاهة، في قمّة الشموخ مهما احتشدت المصائب ومهما تفرقّت بالناس المذاهب.

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٥٢).

أكتب هذه الكلمات وأمامي شريط من الذكريات ما أعظمها من ذكريات عن الزعامة الرشيدة التي كان بودي وبود المئات من المخلصين ان يشتروا بقاءها بدمائهم وان يدفعوا عنها الموت بكل ثمن، ولئن كان الموت أمر الله الذي لايردّ وقضاءه في أنبيائه وكافّة أوليائه الذي لايمكن أن يدفع فإنّ على كلّ المسلمين أن يدفعوا عن زعيمهم ومرجعهم الموت لابوصفه إنساناً من لحم ودم فإنّ هذا الإنسان قد مات ولكن بوصفه خطاً للعمل في سبيل الله ومدرسة لتخريج العلماء المجاهدين ومنعطفاً في تاريخ المرجعيّة ومفهوماً يشكّل الأساس لبناء الأُمّة من جديد...»[١]

والنقطة المهمة إلى جانب ماذكرناه استيعاب الإمام الحكيم ﵀ لأوضاع الشعب العراقي استيعاباً شاملاً، واطلاعه على الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة في العراق وقدرته على التعامل مع كافّة الأوضاع بما ينسجم مع كلّ حالة، لأنّه ابن العراق وصاحب البيت أدرىٰ بالذي فيه وأعرف بما ينفعه.

هذه الروحية فقدتها النجف بعد الإمام الحكيم.

ويذكر سماحة السيّد محمد باقر الحكيم في موضوع (الشهيد الصدر في واجهة التصدّي) الأحداث التي دفعته للتصدّي فيقول:

«ولا أُريد هنا أن أتناول هذا الموضوع الشائك بتفاصيله وملابساته ولكنّ الواقع الذي واجهه الشهيد الصدر وتتابع الأحداث دفع بالشهيد الصدر على غير رغبة منه أن يدخل في مواجهة الأحداث بشكل مباشر.

ومن هذه الأحداث المحاولة الأولىٰ للتسفير العام للحوزة العلميّة بعد وفاة الإمام الحكيم في أواخر سنة (١٣٩٤هـ=١٩٧٤م) حيث كان آية الله الخوئي مريضاً راقداً في المستشفىٰ في بغداد وعلىٰ أبواب السفر إلى لندن للمعالجة، وكان

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٥٣).

طلّاب الحوزة العلميّة والعلماء في حيرة من موقفهم تجاه الإنذار بالسفر الذي وجّهته الحكومة المجرمة عن طريق مكبّرات الصوت السيّارة، وكان الشهيد الصدر في زيارة توديعيّة لآية الله الخوئي، نقل له مجمل الأوضاع في النجف ورجّح له أن يتّخذ موقفاً واضحاً من هذه القضيّة وهو الطلب من الحوزة الامتناع عن السفر ووافق آية الله الخوئي على ذلك، ونقل الشهيد رسالته إلى حاشية السيّد الخوئي وكبار الحوزة العلميّة.

ويبدو أن الحاشية كان لها رأي آخر بالموضوع وتقدير آخر للموقف فلم تستجب لمتطلّبات الرسالة بل أمعن بعضهم في الموقف السلبي بأن أبرز التشكيك بصحّتها.

وهكذا تمّ سفر عدد كبير من العلماء والطلبة حتّىٰ أنقذ الموقف الإمام الخميني (رضوان الله عليه) الذي تدخّل في الأمر ولأوّل مرة، وأعلن تعطيل الحوزة احتجاجاً على هذا القرار، وطلب عدم الاستجابة للسفر، فأعلنت الحكومة العدول عن قرارها بعد أن أرسلت (علي رضا) أحد كبار مسؤولي المخابرات العراقيّة آنذاك للتفاوض مع العلماء في النجف الأشرف حيث اجتمع بالإمام الخميني وغيره من العلماء، وأسمعه الإمام كلاماً واضحاً وقويّاً تجاه هذا الموضوع .

وكان للشهيد الصدر دور كبير في التنسيق ودعم هذا الموقف القوي الجديد في الحوزة تجاه الحكم العفلقي المجرم.

كما كان من هذه المواقف والأحداث البرقيّة التي أرسلتها الحوزة العلميّة إلى أحمد حسن البكر تطالبه بإيقاف التسفيرات بتوقيع كبار العلماء أمثال آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين وآية الله السيّد محمّد سعيد الحكيم وآية الله الشيخ محمد جواد آل شيخ راضي وغيرهم والتي سعىٰ الشهيد الصدر إلى ترتيبها.

ومنها التهيؤ لمواجهة التوقّعات التي كانت موجودة في إقدام حزب البعث

العفلقي المجرم على تحجيم واحتواء المواكب الحسينيّة في الأربعين، حيث قام الشهيد الصدر في توعية أصحاب المواكب وإلفاتهم إلى هذه المؤامرة الدنيئة ضدّ الشعائر الحسينيّة والتي تطوّرت الأحداث تجاهها تدريجيّاً بعد ذلك في السنوات التالية حتّىٰ كانت انتفاضة صفر المحدودة سنة ٩٦هـ وانتفاضة صفر الدمويّة الأُخرىٰ سنة ٩٧هـ والأحداث المؤلمة التي رافقتها.

وكانت لتلك الجهود التي يبذلها الشهيد الصدر أثر مهم في مجال تأخير تنفيذ الحكم المجرم لمؤامراته ضدّ الإسلام وضدّ الشعائر الحسينيّة بشكل خاص من ناحية، وتوعية الجماهير في الوقوف تجاه هذه المؤامرة الإجراميّة من ناحية أُخرىٰ...»[1]

وعلى كلّ حال وجد الشهيد الصدر نفسه مضطراً إلى التصدّي المرجعي ـ ولو بشكل محدود ـ وإن كان يميل نفسيّاً إلى التريّث وتأجيل عمليّة التصدّي إلى وقت آخر.

استعداده للتنازل عن المرجعيّة:

ومن المعروف أنّ الإمام الشهيد الصدر ابتعد عن كلّ المظاهر التي تلازم عمليّة التصدّي عادة، فلا جهاز دعائي يرشد الناس إلى تقليده، ولا رسالة عمليّة توزع مجاناً ،ولا تمييز فيإعطاء الرواتب على أساس حضور البحث، أو الولاء الشخصي، وابتعد عن كلّ مظهر من المظاهر التي يُعرف المرجع من خلالها، والأعظم من كلّ ما تقدّم استعداده الدائم للذوبان في أيّ مرجعيّة صالحة تخدم الإسلام، والتنازل عن وجوده كلّه لصالحها، وكان هذا الخطّ ثابتاً طول حياته

١ ـ الإمام الشهيد الصدر النظريّة السياسيّة ص ٦٢ ـ ٦٤.

المرجعيّة. ففي بداية تلك المرحلة ـ وكما حدّثني سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد عبد الهادي الشاهرودي (حفظه الله) وهو أحد طلابه المقربين ـ أنّ السيّد الشهيد خاطب خاصّة طلابه في اجتماع خاصّ بهم فقال لهم:

«يجب عليكم أن لاتتعاملوا مع هذه المرجعيّة [وقصد مرجعيّته] بروح عاطفيّة وشخصيّة، وأن لاتجعلوا ارتباطكم بيّ حاجزاً عن الموضوعيّة، بل يجب أن يكون المقياس هو مصلحة الإسلام، فأيّ مرجعيّة أُخرى استطاعت أن تخدم الإسلام وتحقّق له أهدافه يجب أن تقفوا معها، وتدافعوا عنها، وتذوبوا فيها، فلو أنّ مرجعيّة السيّد الخميني مثلاً حقّقت ذلك، فلا يجوز أن يحول ارتباطكم بي عن الذوبان في مرجعيّته».

وكان هذا الكلام قبل انتصار الثورة الإسلامّية في إيران بعشر سنوات تقريباً.

وأمّا ما بعد ذلك، فيكفينا ما كتبه بخطّه الشريف في الرسالة التي وجّهها إلى طلّابه في إيران في أوائل انتصار الثورة الإسلاميّة المباركة، والتي أعلن فيها بوضوح عن تنازله وذوبانه في مرجعيّة السيّد الإمام ﵀ وأكّد فيها بوضوح كامل على أنّ المرجعيّة وسيلة لاغاية، فمتى ما حقّقت مرجعيّة من المرجعيّات الصالحة الأهداف الخيّرة التي توخّاها (رضوان الله عليه) فيجب أن تنصهر المرجعيّات الأُخرى فيها، فقد كتب ﵀:

«إنّ الواجب على كلّ واحد منكم، وعلى كلّ فردٍ قدّر له حظّه السعيد أن يعيش في كنف هذه التجربة الإسلاميّة الرائدة أن يبذل كلّ طاقاته، وكلّ ما لديه من إمكانات وخدمات، ويضع ذلك كلّه في خدمة التجربة، فلا توقّف في البذل؛ والبناء يشاد لأجل الإسلام، ولا حدّ للبذل؛ والقضية ترتفع رايتها بقوّة الإسلام...

ويجب أن يكون واضحاً أيضاً أنّ مرجعيّة السيّد الخميني التي جسّدت

آمال الإسلام في إيران اليوم لابدّ من الالتفاف حولها، والإخلاص لها، وحماية مصالحها والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم...»[١].

وقد سمعته مراراً يقول أمام بعض من كان يعترض على تأييده للسيّد الإمام الخميني والثورة الإسلاميّة:

«لو أنّ السيّد الخميني أمرني أن أسكن في قرية من قرى إيران أخدم فيها الإسلام، لما تردّدت في ذلك. إنّ السيّد الخميني حقّق ما كنت أسعى إلى تحقيقه...».

ومن الواضح أنّه لا مصلحة شخصيّة وراء ذلك الاندفاع للتنازل عن جود مرجعي قائم قد امتدّ إلى معظم العالم الإسلامي، إلّا مصلحة الإسلام الكبرى، والحفاظ على كيان الرسالة ومصالح الأُمّة.

أضف إلى ذلك أنّ القاعدة التي انطلق منها السيّد الشهيد إلى المرجعيّة، والتصدّي لأُمور المسلمين كانت من القوّة والمتانة بالقدر الذي يكفي للامتداد السريع إلى كافة طبقات الأُمّة المثقّفة الواعية التي تشكّل قاعدة البناء القويّة لكلّ تحرّك وعمل. وتلك القاعدة هي مؤلّفات السيّد الشهيد، وما تميّزت به من عمق وإبداع وأصالة.

وعلى صعيد الحوزة العلميّة استطاع السيّد الشهيد أن يُثبت فقاهة منقطعة النظير وهو في المرحلة الأُولى من عمره العلمي، وتجلّى ذلك أوّلاً فيما ضمّن بحثه التاريخي (فدك في التاريخ) من أبحاث فقهيّة في نهاية الكتاب كانت قد عبّرت عن عمق وأصالة قلّ نظيرها لمن هو في مثل عمره، ثمّ جاء بعد ذلك ما كتبه في مجال الفقه والأُصول، ليعزّز هذه الرؤية.

لقد أُثير الكثير من الشبهات حول السيّد الشهيد ﵀ بهدف إسقاطه، والقضاء

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٥٤).

على مرجعيّته، لقد قيل: إنّه عاطفي لا يصلح للمرجعيّة، وقيل: إنّه حزبيّ، والحزبيّة تتنافى مع المرجعيّة، وهذه الشبهات وإن كانت تافهة وسخيفة، إلّا أنّه لم يجرأ أحد على التشكيك في فقاهته وعمقه في أيّ ميدان من ميادين المعرفة، وكان الجميع يعترفون له بذلك تصريحاً، أو تلميحاً.

وهكذا استطيع القول بأنّ مرجعيّة السيّد الشهيد كانت تمتلك كلّ مقوّمات البقاء والاستمرار، مستمدّة ذلك من نفس المقوّمات والخصائص التي كان السيّد الشهيد رضوان الله عليه يتمتّع بها.

المرجعيّة الموضوعيّة

وبالنسبة للمرجعيّة فقد كان ﷺ قد وضع لها مخطّطاً شاملاً، ونظاماً دقيقاً في محاولة لإخراجها من الطابع الخاصّ إلى النظام المؤسّساتي الثابت، الذي لا يتغيّر بتبدّل الشخص. ومادام السيّد الشهيد قد كتب هذا النظام بنفسه، فلا أجد ضرورة إلى الحديث عنه، ويكفينا أن ننقل ما كتبه تحت اسم (المرجعيّة الموضوعيّة) فهو يكفي لإعطاء رؤية تفصيليّة عن هذا الجانب.

«بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ أهمّ ما يميّز المرجعيّة الصالحة تبنّيها للأهداف الحقيقيّة التي يجب أن تسيّر المرجعيّة في سبيل تحقيقها لخدمة الإسلام، وامتلاكها صورة واضحة محدّدة لهذه الأهداف، فهي مرجعيّة هادفة بوضوح ووعي، تتصرّف دائماً على أساس تلك الأهداف بدلاً من أن تمارس تصرّفات عشوائيّة وبروح تجزيئيّة، وبدافع من ضغط الحاجات الجزئيّة المتجدّدة.

وعلى هذا الأساس كان المرجع الصالح قادراً على عطاء جديد في خدمة الإسلام، وإيجاد تغيير أفضل لصالح الإسلام في كلّ الأوضاع التي يمتدّ إليها تأثيره ونفوذه.

أهداف المرجعيّة الصالحة:

ويمكن تلخيص أهداف المرجعيّة الصالحة رغم ترابطها، وتوحّد روحها العامّة في خمس نقاط:

١ ـ نشر أحكام الإسلام على أوسع مدىً ممكن بين المسلمين، والعمل لتربية كلّ فرد منهم تربية دينيّة تضمن التزامه بتلك الأحكام في سلوكه الشخصيّ.

٢ ـ إيجاد تيار فكريّ واسع في الأُمّة يشتمل على المفاهيم الإسلاميّة الواعية، من قبيل المفهوم الأساسي الذي يؤكّد بأنّ الإسلام نظام كامل شامل لشتّى جوانب الحياة، واتخاذ ما يمكن من أساليب لتركيز تلك المفاهيم.

٣ ـ إشباع الحاجات الفكريّة الإسلاميّة للعمل الإسلامي، وذلك عن طريق إيجاد البحوث الإسلاميّة الكافية في مختلف المجالات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، والمقارنات الفكريّة بين الإسلام وبقيّة المذاهب الاجتماعيّة ،وتوسيع نطاق الفقه الإسلامي على نحو يجعله قادراً على مدّ كلّ جوانب الحياة بالتشريع، وتصعيد الحوزة ككلّ إلى مستوى هذه المهام الكبيرة.

٤ ـ القيمومة على العمل الإسلامي، والإشراف على ما يعطيه العاملون في سبيل الإسلام في مختلف أنحاء العالم الإسلامي من مفاهيم، وتأييد ما هو حقّ منها وإسناده، وتصحيح ما هو خطأ.

٥ ـ إعطاء مراكز العالِميّة من المرجع إلى أدنى مراتب العلماء الصفة القياديّة للأُمّة بتبنّي مصالحها، والاهتمام بقضايا الناس ورعايتها، واحتضان العاملين في سبيل الإسلام.

ووضوح هذه الأهداف للمرجعيّة وتبنّيها وإن كان هو الذي يحدّد صلاح المرجعيّة ويحدث تغييراً كبيراً على سياستها العامّة، ونظراتها إلى الأُمور، وطبيعة تعاملها مع الأُمّة.

ولكن لايكفي مجرّد وضع هذه الأهداف ووضوح إدراكها لضمان الحصول

على أكبر قدر ممكن من مكاسب المرجعيّة الصالحة؛ لأنّ الحصول على ذلك يتوقّف إضافة إلى صلاح المرجع ووعيه واستهدافه على عمل مسبق على قيام المرجعيّة الصالحة من ناحية، وعلى إدخال تطويرات على أُسلوب المرجعيّة، ووضعها العملي من ناحية أُخرى.

أمّا فكرة العمل المسبق على قيام المرجعيّة الصالحة، فهي تعني أنّ بداية نشوء مرجعيّة صالحة تحمل الأهداف الآنفة الذكر تتطلب وجود قاعدة قد آمنت بشكل وآخر بهذه الأهداف في داخل الحوزة وفي الأُمّة، وإعدادها فكرياً وروحياً للمساهمة في خدمة الإسلام، وبناء المرجعيّة الصالحة، إذ ما لم توجد قاعدة من هذا القبيل تشارك المرجع من خلال معطيات تربية ذلك الإنسان الصالح لها، يصبح وجود المرجع الصالح وحده غير كافٍ لإيجاد المرجعيّة الصالحة حقّاً، وتحقيق أهدافها في النطاق الواسع.

وبهذا كان لزاماً على من يفكّر في قيادة تطوير المرجعيّة إلى مرجعيّة صالحة أن يمارس هذا العمل المسبق بدرجةٍ مّا، وعدم ممارسته هو الذي جعل جملة من العلماء الصالحين ـ بالرغم من صلاحهم ـ يشعرون عند تسلّم المرجعيّة بالعجز الكامل عن التغيير؛ لأنّهم لم يمارسوا هذا العمل المسبق، ولم يحدّدوا مسبقاً الأهداف الرشيدة للمرجعيّة، والقاعدة التي تؤمن بتلك الأهداف.

تطوير أُسلوب المرجعيّة:

وأمّا فكرة تطوير أُسلوب المرجعيّة وواقعها العملي، فهي تستهدف:

أوّلاً: إيجاد جهاز عمليّ تخطيطي وتنفيذي يقوم على أساس الكفاءة، والتخصّص، وتقسيم العمل، واستيعاب كلّ مجالات العمل المرجعي الرشيد في ضوء الأهداف المحدّدة.

ويقوم هذا الجهاز بالعمل بدلاً من الحاشية التي تعبّر عن جهاز عفوي مرتجل يتكوّن من أشخاص جمعتهم الصدف والظروف الطبيعيّة لتغطية الحاجات الآنيّة بذهنيّة تجزيئيّة، وبدون أهداف محدّدة واضحة.

ويشتمل هذا الجهاز على لجان متعدّدة، تتكامل وتنمو بالتدريج إلى أن تستوعب كلّ إمكانات العمل المرجعيّ.

ويمكن أن نذكر اللجان التالية كصورة مُثلى، وهدف أعلى ينبغي أن يصل إليه الجهاز العمليّ للمرجعيّة الصالحة في تطوّره وتكامله.

١ ـ لجنة، أو لجان لتسيير الوضع الدراسي في الحوزة العلميّة، وهي تمارس تنظيم دراسة ما قبل (الخارج)، والإشراف على دراسات الخارج، تحدّد المواد الدراسية، وتضع الكتب الدراسيّة، وتجعل بالتدريج الدراسة الحوزويّة بالمستوى الذي يتيح للحوزة المساهمة في تحقيق أهداف المرجعيّة الصالحة، وتستحصل معلومات عن الانتسابات الجغرافيّة للطلبة، وتسعى في تكميل الفراغات وتنمية العدد.

٢ ـ لجنة للإنتاج العلميّ، ووظائفها إيجاد دوائر علميّة لممارسة البحوث، ومتابعة سيرها، وتشجيعه، ومتابعة الفكر العالمي بما يتّصل بالإسلام، والتوافر على إصدار شي، كمجلة، أو غيرها، والتفكير في جلب العناصر الكفوءة إلى الحوزة، أو التعاون معها إذا كانت في الخارج.

٣ ـ لجنة، أو لجان مسؤولة عن شؤون علماء المناطق المرتبطة، وضبط أسمائهم وأماكنهم ووكالاتهم، وتتبّع سيرهم وسلوكهم، واتصالاتهم والاطّلاع على النقائص والحاجات والفراغات، وكتابة تقرير إجماليّ في وقت رتيب، أو عند طلب المرجع.

٤ ـ لجنة الاتّصالات، وهي تسعى لإيجاد صلات مع المرجعيّة في المناطق التي لم تتّصل مع المركز، ويدخل في مسؤوليتها إحصاء المناطق ودراسة إمكانات الاتّصال بها، وايجاد سفرة تفقّديّة إمّا على مستوى تمثيل المرجع، أو على مستوى آخر، وترشيح المناطق التي أصبحت مستعدّة لتقبّل العالِم، وتولّي متابعة السير بعد ذلك، ويدخل في صلاحيّتها الاتّصال في الحدود الصحيحة مع المفكّرين والعلماء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتزويدهم بالكتب، والاستفادة من المناسبات، كفرصة الحجّ.

٥ ـ لجنة رعاية العمل الإسلامي، والتعرّف على مصاديقه في العالم الإسلامي، وتكوين فكرة عن كلّ مصداق، وبذل النصح والمعونة عند الحاجة.

٦ ـ اللجنة الماليّة التي تعنى بتسجيل المال، وضبط موارده، وإيجاد وكلاء ماليّين، والسعي في تنمية الموارد الطبيعيّة لبيت المال، وتسديد المصارف اللازمة للجهاز، مع التسجيل والضبط.

ولاشكّ في أنّ بلوغ الجهاز إلى هذا المستوى من الاتّساع والتخصّص يتوقّف على تطوّر طويل الأمد، ومن الطبيعي أن يبدأ الجهاز محدوداً وبدون تخصّصات حدّية تبعاً لضيق نطاق المرجعيّة، وعدم وجود التدريب الكافي، والممارسة والتطبيق هو الذي يبلور القابليات من خلال العمل. ويساعد على التوسيع والتخصّص.

وثانياً: إيجاد امتداد أُفقي حقيقي للمرجعيّة يجعل منها محوراً قويّاً، تنصبّ فيه قوى كلّ ممثلي المرجعيّة والمنتسبين إليها في العالم؛ لأنّ المرجعيّة حينما تتبنّى أهدافاً كبيرة، وتمارس ـ عملاً ـ تغييراً واعياً في الأُمّة لابدّ أن تستقطب أكبر قدر ممكن من النفوذ، لتستعين به في ذلك، وتفرض بالتدريج وبشكل آخر السير في طريق تلك الأهداف على كلّ ممثّليها في العالم. وبالرغم من انتساب كلّ علماء الشيعة تقريباً إلى المرجع في الواقع المعاش يلاحظ بوضوح أنّه في أكثر الأحيان انتساب نظري وشكلي، لايخلق المحور المطلوب، كما هو واضح.

وعلاج ذلك يتمّ عن طريق تطوير شكل الممارسة للعمل المرجعي، فالمرجع تاريخيّاً يمارس عمله المرجعي كلّه ممارسة فرديّة، ولهذا لاتشعر كلّ القوى المنتسبة إليه بالمشاركة الحقيقيّة معه في المسؤوليّة والتضامن الجادّ معه في الموقف. وأمّا إذا مارس المرجع عمله من خلال مجلس يضمّ علماء الشيعة، والقوى الممثّلة له دينيّاً، وربط المرجع نفسه بهذا المجلس فسوف يكون العمل المرجعي موضوعيّاً، وإن كانت المرجعيّة نفسها بوصفها نيابة عن

الإمام قائمة بشخص المرجع، غير أنّ هذه النيابة القائمة بشخصه لم تحدّد له أُسلوب الممارسة، وإنّما يتحدّد هذا الأُسلوب في ضوء الأهداف، والمصالح العامّة.

وبهذا الأُسلوب الموضوعي من الممارسة يصون المرجع عمله المرجعي من التأثّر بانفعالات شخصيّة، ويعطي له بعداً وامتداداً واقعياًكبيراً، إذ يشعر كلّ ممثلي المرجع بالتضامن والمشاركة في تحمّل مسؤوليّات العمل المرجعي، وتنفيذ سياسة المرجعيّة الصالحة التي تقرّر من خلال ذلك المجلس. وسوف يضمّ هذا المجلس تلك اللجان التي يتكوّن منها الجهاز العملي للمرجعيّة، وبهذا تلتقي النقطة السابقة مع هذه النقطة.

ولئن كان في أُسلوب الممارسة الفرديّة للعمل المرجعي بعض المزايا، كسرعة التحرّك، وضمان درجة أكبر من الضبط والحفظ، وعدم تسرّب عناصر غير واضحة إلى مستوى التخطيط للعمل المرجعي، فإنّ مزايا الأُسلوب الآخر أكبر وأهمّ.

ونحن نطلق على المرجعيّة ذات الأُسلوب الفردي في الممارسة اسم (المرجعيّة الذاتيّة)، وعلى المرجعيّة ذات الأُسلوب المشترك، أو الموضوعي في الممارسة اسم (المرجعيّة الموضوعيّة).

وهكذا يظهر أنّ الفرق بين المرجعيّة الذاتيّة والمرجعيّة الموضوعيّة ليس في تعيين شخص المرجع الشرعي الواقعي، فإنّ شخص المرجع دائماً هو نائب الإمام، ونائب الإمام هو المجتهد المطلق العادل الأعلم الخبير بمتطلّبات النيابة.

وهذا يعني أنّ المرجعيّة من حيث مركز النيابة للإمام ذاتيّة دائماً، وإنّما الفرق بين المرجعيّتين في أُسلوب الممارسة.

وثالثاً: امتداداً زمنياً للمرجعيّة الصالحة لاتتّسع له حياة الفرد الواحد. فلابدّ من ضمان نسبيّ لتسلك المرجعيّة في الإنسان الصالح المؤمن بأهداف المرجعيّة الصالحة، لئلا ينتكس العمل بانتقال المرجعيّة إلى من لايؤمن

بأهدافها الواعية. ولابدّ أيضاً من أن يُهيّئ المجال للمرجع الصالح الجديد، ليبدأ ممارسة مسؤوليّاته من حيث انتهى المرجع العامّ السابق، بدلاً عن أن يبدأ من الصفر، ويتحمّل مشاقّ هذه البداية، وما تتطلّبه من جهود جانبيّة. وبهذا يتاح للمرجعيّة الاحتفاظ بهذه الجهود للأهداف، وممارسة ألوان من التخطيط الطويل المدى.

ويتمّ ذلك عن طريق شكل المرجعيّة الموضوعيّة، إذ في إطار المرجعيّة الموضوعيّة لايوجد المرجع فقط، بل يوجد المرجع كذات، ويوجد الموضوع وهو المجلس بما يضمّ من جهاز يمارس العمل المرجعي الرشيد، وشخص المرجع هو العنصر الذي يموت، وأمّا الموضوع فهو ثابت، ويكون ضماناً نسبيّاً إلى درجة معقولة بترشيح المرجع الصالح في حالة خلوّ المركز، وللمجلس والجهاز ـ بحكم ممارسته للعمل المرجعي، ونفوذه، وصلاته، وثقة الأمّة به ـ القدرة دائماً على إسناد مرشّحه، وكسب ثقة الأُمّة إلى جانبه، وهكذا تلتقي النقطتان السابقتان مع هذه النقطة في طريق الحلّ.

مراحل المرجعيّة الصالحة:

وللمرجعيّة الصالحة ثلاثة مراحل:

١ ـ مرحلة ما قبل التصدّي الرسمي للمرجعيّة المتمثّل بطبع رسالة عمليّة وتدخل في هذه المرحلة أيضاً فترة ما قبل المرجعيّة إطلاقاً.

٢ ـ مرحلة التصدّي بطبع الرسالة العمليّة.

٣ ـ مرحلة المرجعيّة العليا المسيطرة على الموقف الديني.

وأهداف المرجعيّة الصالحة ثابتة في المراحل الثلاث. وفي المرحلة الأُولى يتمّ إنجاز العمل المسبق الذي أشرنا إليه سابقاً وإلى ضرورته، لقيام المرجعيّة الصالحة.

وطبيعة هذه المرحلة تفرض أن تُمارس المرجعيّة ممارسة أقرب إلى الفرديّة بحكم كونها غير رسميّة، ومحدودة في قدرتها وكون الأفراد في بداية

التطبيق والممارسة للعمل المرجعي، فالمرجعيّة في هذه المـرحـلة ذاتـيّة، وإن كانت تضع في نفس الوقت بذور التطوير إلى شكل المرجعيّة الموضوعيّة عن طريق تكوين أجهزة استشارية محدودة، ونوع التخصّص في بـعض الأعـمال المرجعيّة.

وأمّا في المرحلة الثانية، فيبدأ عمليّاً تطوير الشكـل الذاتـي إلى الشكـل الموضوعي، ولكن لا عن طريق الإعلان عن أُطروحة المرجـعيّة المـوضوعيّة بكاملها، ووضعها موضع التنفيذ في حدود المستجيبين؛ لأنّ هذا وإن كان يولّد زخماً تأييدياً في صفوف بعض الراشدين في التفكير، ولكنّه من ناحية يـفصل المرجعيّة الصالحة عن عدد كـبير مـن القـوى والأشـخاص غـير المسـتعدّين للتجاوب في هذه المرحلة، ومن ناحية أُخرى يضطرّها إلى الاستعانة بـما هـو الميسور في تقديم صيغة المرجعيّة الموضوعيّة، وهذا الميسور لا يكـفي كـمّاً لملء حاجة المرجعيّة الموضوعيّة، بـل الطـريق الطـبيعي فـي البـدء بـتحقيق المرجعيّة الموضوعيّة ممارسة المرجعيّة الصالحة لأهدافها، ورسالتها عن طريق لجان وتشكيلات متعدّدة، بقدر ما تفرضه بالتدريج حاجات العمل الموضوعيّة، وقدرات المرجعيّة البشريّة والاجتماعيّة، ويربط بـالتدريج بـين تـلك اللـجان والتشكيلات، ويوسّع منه حتّى تتمخّض في نهاية الشوط عـن تـنظيم كـامل شامل للجهاز المرجعيّ.

ويتأثّر سير العمل في تطوير أُسلوب المرجـعيّة وجـعلها مـوضوعيّة بـعدّة عوامل في حياة الأُمّة فكريّة وسياسيّة، وبنوعيّة القوى المعاصرة في الحـوزة للمرجعيّة الموضوعيّة، ومدى وجودها في الأُمّة، ومدى علاقتها طرداً أو عكساً مع أفكار المرجعيّة الصالحة. ولابدّ من أخذ كلّ هذه العوامل بـعين الاعـتبار، والتحفّظ من خلال مواصلة عمليّة التطوير المرجعي عن تـعريض المـرجـعيّة ذاتها لانتكاسة تقضي عليها، إلّا إذا لوحظ وجود مكسب كبير في المـحاولة، ولو باعتبارها تمهيداً لمحاولة أُخرى ناجحة يفوق الخسارة التي تترتّب عـلى تفتّت المرجعيّة الصالحة التي تمارس تلك المحاولة».

كما أنّ السيّد الشهيد أضاف بعض الملحقات والاقتراحات لمشروع المرجعيّة الموضوعيّة فيما بعد، وقد لخّصها سماحة آية الله السيّد كاظم الحائري في كتابه (مباحث الأصول) [١] بما يلي:

«١ ـ اقتراح إنشاء حوزات علميّة فرعيّة في المناطق التي تساعد على ذلك ترفد بها الحوزة العلميّة الأُمّ.

٢ ـ اقتراح إيجاد علماء في الفقه والأُصول والمفاهيم الإسلاميّة في سائر أصناف الناس، فليكن لنا من ضمن الأطباء علماء، ومن ضمن المهندسين علماء، وما إلى ذلك من الأصناف، ولايشترط في هؤلاء العلماء التخصّص والاجتهاد في الفقه والأُصول، ويكون كلّ من هؤلاء مصدر إشعاع في صنفه، يبث العلم والمعرفة، وفهم الأحكام الشرعيّة، والمفاهيم الإسلاميّة فيما بينهم.

٣ ـ ربط الجانب المالي للعلماء والوكلاء في الأطراف بالمرجعيّة الصالحة، فلا يعيش الوكيل على ما تدر المنطقة عليه من الحقوق الشرعيّة، بل يُسلّم الحقوق كاملة إلى المرجعيّة، وتموّله المرجعيّة ليس بالشكل المتعارف في بعض الأوساط من إعطاء نسبة مئويّة من تلك الأموال كالثلث، أو الربع، ممّا يجعل علاقة الوكيل بالمرجعيّة سنخ علاقة عامل المضاربة بصاحب رأس المال، بل بشكل تغطية مصاريف الوكيل عن طريق عطائين من قبل المرجعيّة:

الأوّل: راتب شهري يكفل له قدراً معقولاً من حاجاته الضرورية.

الثاني: عطاء مرن وغير مُحدّد، يختلف من شهر إلى شهر، وقد لايعطى في بعض الأشهر، وقد يضاعف أضعافاً مضاعفة في بعض الأشهر، ويكون المؤثّر في تقليل وتكثير هذا العطاء عدّة أُمور:

أحدها: احتياجاته بما هو إنسان، أو بما هو عالِم المنطقة، فإنّها تختلف من شهر إلى شهر.

١ ـ الجزء الأوّل من القسم الثاني، ص٩٩.

والثاني: مقدار ما يقدّمه للمرجعيّة من أموال وحقوق شرعيّة.

والثالث: مقدار ما يقدّمه للمنطقة من أتعاب وجهود.

والرابع: مقدار ما ينتج في تلك المنطقة من نصر للاسلام.

كما أنّ هذه الأُمور قد تؤثّر أيضاً في تحديد مقدار العطاء المتمثّل في الراتب المقطوع.

٤ ـ دعم المرجعيّة الصالحة لمكتب صالح ونظيف من بين المكاتب، وهي التي كانت تسمّى في النجف (البرّانيّات) بحيث يصبح ما يصدر من ذلك المكتب ممثّلاً في نظر الناس بدرجة خفيفة لرأي المرجعيّة.

وفائدة ذلك: أنّ المرجعيّة الصالحة قد تريد أن تنشر فكرة سياسيّة أو اجتماعيّة أو غير ذلك من دون أن تتبنّاها مباشرة لمصلحة في عدم التبنّي المباشر، أو تريد أن تفاوض السلطة في أمر من الأُمور بشكل غير مباشر، فذاك المكتب يتبنّى أمثال هذه الأُمور».

عقبات التصدّي للمرجعيّة

أمّا المشاكل والعقبات التي واجهها (رضوان الله عليه) بعد التصدّي، فلا تكاد تحصى، لكثرتها وتنوّعها، بعضها مصدره السلطة، والآخر مصدره المجتمع الذي عاش فيه وبعض الجهات في الحوزة.

إلّا أنّ أهمّ معاناة كان يعيشها الشهيد الصدر ﵁ هي عدم قدرة الحوزة على استيعابه، وفقدان الفهم الكافي له في مجتمعه. فكان يشعر بغربة قاتلة في ظلّ تلك الأجواء التي جعلته بين الحين والآخر يتمنّى الموت. كان يقول حينما تتراكم عليه المشاكل الناشئة من هذا الوضع:

«لقد بلغت من العمر ما بلغه أبي وأخي، فلِمَ لايعاجلني الموت ويُريحني».

وكان (رضوان الله عليه) صبوراً كتوماً، لايشتكي، ولكن في بعض الأحيان كان

الصبر يعيا أمام عِظم تلك المشاكل، فتصدر منه تلك الأنّات واللوعات. والله يعلم إلى أيّ مدى كان الهمُّ يتصاعد، فيضطرّ إلى الشكوى، بل أيّ مشاكل كانت تلك التي لا يطيقها ذلك القلب الكبير.

كان الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) يسعى لإحداث تغيير في كيان الحوزة والمرجعيّة من الأساس، بما يلبّي الحاجات الحاضرة والمستقبليّة، وبما ينسجم مع متطلّبات العصر والحياة، ويحقّق للمرجعيّة والحوزة الحماية الكاملة، والاستقرار الثابت.

وحتّى تأسيس حزب الدعوة الإسلاميّة الذي جعله البعض حربة لطعنه، أو تشويه سمعته بين أبناء الأمّة، ما كان إلّا من أجل حماية كيان الإسلام والأمّة الإسلاميّة ـ بقطع النظر عمّا انتهى إليه بعد ذلك ـ ومن الغريب أنّ البعض كان يسمح لأبنائه بالانتماء إلى حزب البعث الصليبي، ويحارب السيّد الشهيد لتأسيسه حزب الدعوة الإسلاميّة. كان البعض ينتقد العلماء أثناء فترة الاحتلال الانجليزي للعراق فيقول: إنّهم حرّموا على أبنائنا دخول المدارس الانجليزيّة في العراق، ولم يفتحوا لهم مدارس إسلاميّة، واليوم أسّس لهم العلماء حزباً إسلاميّاً ليحصّنهم من الانتماء إلى حزب البعث، أو الحزب الشيوعي ومن الإلحاد عموماً فإذا بهم كالبنيان المرصوص ضدّه. ولو أنّهم وقفوا عند حدود معقولة، وناقشوا الأمر بروح موضوعيّة وتعقّلوا مدى صحّة هذا الأسلوب أو ذاك، لكان أمراً سائغاً ومنطقيّاً، أمّا أن يعتبروا ذلك انحرافاً، ويجعلوه حربة يحملونها بيد، وتحملها السلطة باليد الأُخرى، فتسفك بها الدماء، وتهتك بها الأعراض، تُستحلّ الحرمات، فهو أمر بمكان من الخطورة جعل قلب الشهيد الصدر يتفجر دماً، وروحه تفيض حزناً وألماً.

إنّ الجهل الذي كان يملأ قلوبهم، أو قل: الحقد الذي أعماهم وأضلّهم، كان

يُخيِّل لهم أنّ المسألة محدودة بالشهيد الصدر فقط، ولن تتعداه إلى سواه، فإذا كان اتهامه بالحزب خير وسيلة للقضاء عليه فليكن هو الأُسلوب المتّبع.

وكان حينما تبلغه الاتّهامات والافتراءات التي توجّه إليه من قبل بعض الأطراف في الحوزة يقول: «إنّ السلطة ما استهدفتني من بين المراجع الآخرين إلّا بسبب ظروفي وأوضاعي الخاصّة، وإلّا فإنّ هدفها أكبر وأشمل، إنّها استهدفت الوجود العامّ كلّه، المرجعيّات كلّها، والحوزات كلّها بغضّ النظر عن فكرة الاتّهامات الحزبيّة، وما ذريعة الحزب إلّا أداة لتضليل الناس».

والغريب أنّ هؤلاء الذين كانوا يشكّلون جبهة متراصّة لحرب السيّد الشهيد والقضاء عليه، والذين يعتبرون أنفسهم في طليعة المؤمنين الموالين لأهل البيت لم يرتدعوا حتّى بعد أن امتدّت يد العفالقة إلى شعائر الإمام الحسين ، وقتل زوّاره وإبادتهم في كربلاء، وفي الطريق إليها في انتفاضة صفر البطوليّة، لقد سكتوا جميعاً ولم يتّخذوا إلّا موقف المتفرّج والدماء تسفك والأشلاء تُطحن في أقبية مديريّات الأمن حقداً وانتقاماً على أهل البيت وأنصارهم، وهم في كلّ صباح ومساء يلعنون قَتَلَةَ الحسين ، ومن شايعهم وتابعهم إلى قيام يوم الدين، فما أغرب هذه المفارقة وما أبشعها.

لقد عانى السيّد الشهيد الكثير ممّا يصعب سرده في هذا الكتاب إلّا أنّ هناك الكثير ممّا ينبغي أن يذكر ـ وسوف يذكر إن شاء الله في المستقبل ـ وهنا لأُريد أن أُشير إلى بعض تلك المعاناة ـ وقس عليه ما سواه ـ

أتذكر أنّ أحد الطلبة جاء إلى بيت السيّد الشهيد، وكان يتكلّم بانفعال وعصبيّة ويحاسب السيّد الشهيد على تصدّيه للمرجعيّة، وطبعه للفتاوى الواضحة، وقد سجّل نتائج تلك المحادثات من خلال رسالة بعثها إلى أحد تلامذته، وهذا مقطع منها:

«عزيزي أبا جواد، في الفترة الأخيرة جاء إلى الزيارة السيّد (.......)، وهو شخص لنا علاقات ورفاقة طويلة الأمد معه، وقد اجتمع بي، ودارت أحاديث مفصّلة خلال خمسة مجالس في محاولة لتصفية العلاقات، وتوثيقها بين الجهة [اصطلاح يعني به مرجعيّته ﷺ]ومرجعيّة السيّد (......) وكان بودّي أن تكون قربي لاتحدّث إليك بكلّ ما دار من حديث، كما تعوّدت في كلّ قضيّة، ولكن ما لايدرك كلّه لايترك كلّه، وقد حدّثت الشيخ (.......) بلباب الحديث كلّه، وكلّفته بأن ينقله إليك لكي تضع سياسة الجهة هناك من الناحية الآخنديّة والحوزويّة على أساسها، وتُلزم كلّ أبنائنا بذلك.

إنّ السيّد (.....) كان يعترض ويقول: كيف تتصدّى للمرجعيّة في عهد السيّد، وقد شرحت له كلّ الظروف، وكلّ سلبيات مرجعيّة السيّد تجاهنا، والتي فرضت الاضطرار إلى موقف من هذا القبيل. وبعد أخذ وردّ طويلين قلت له: ماذا تريدون؟ قالوا: نريد أن تذكر بأنّ مرجعيّتك طوليّة. قلت: نعم، أنا ألتزم بذلك. قالوا: نريد أن تؤكّد لمحبّيك أنّ طبع الرسالة للمقلّدين شيء، ومزاحمة المرجعيّة العليا وإيجاد التفاضل في الأعلميّة والتعديل عن التقليد شيء آخر. قلت: وهذا أيضاً إنّي أراه منذ البداية، والآن سوف أُجدّد التأكيد على أصحابي في هذا المجال.

وعلى هذا الأساس أنا أُريد يا عزيزى أن تفهّم كلّ إخوتك أنّي تعهّدت عنهم جميعاً بأن يلتزموا بما التزمت به، فلا يصدر من أحد منهم محاولة تعديل شخص من مقلّدي السيّد.... عن تقليده، ولايطرح اسمي بنحو يوجب الاستفزاز، مثلاً كان السيّد (.....)ينقل: (أنّه حينما زار (.....)وكانت الجلسة عامرة فقال (.....): إنّ السيّد الصدر استغنى في المسألة الفلانيّة، وأفتى بكذا، وقال أحد رفقائه: نعم، والسيّد(.....) يوافق السيّد الصدر، إنّ مثل هذه الكلمات لايمكن أن أتحمّلها) هذا كلام السيّد (.....)، وأنتم ترون يا ولدي أنّ مثل هذا الكلام جانب الإثارة فيه أكبر بكثير من الجوانب الاُخرى.

إنّ الجهة يا أولادي وصلت بعناية الله (سبحانه) إلى مرحلة جيّدة وقد تعتبر نوعاً من الإعجاز مع أخذ كلّ الظروف والعوامل بعين الاعتبار، ولهـذا فـإنّها أحوج ما تكون الآن إلى حلّ التعقيدات بقدر الإمكان، وتمييع مـنابع الإثـارة حتّى ولو لم يحصل أي توسّع عددي....»[1]

ولحسن الحظ فإنّ عدداً من الرسائل الخطّية التي بين أيدينا عبَّر فيها عن بعض جوانب معاناته التي كان يعيشها والمضايقات التي كان يتعرّض لها، وهي وإن كان غير مؤرّخة ـ للأسف الشديد ـ إلّا أنّ القرائن تدلّ على الفترة الزمنيّة بوضوح كامل، وهي إجمالاً فترة التصدّي للمرجعيّة وماقبلها

يقول في جانب من رسالة له إلى سماحة الشيخ محمد إبراهيم الأنصاري وهو يتحدّث عن الوضع في النجف:

«أمّا الأوضاع في النجف فلا تسألوا عنها بل قيسوا الحاضر بالماضي فإنّ أبحاث النجف معطّلة بعد القضيّة الأخيرة ـ وإن كانت مباحثتنا مستمرّة ولكنّا نقلناها إلى السرداب ـ وسوق السبّ والشتم عامرة وإلى آخر الأمور المؤذية والمشوشّة من جميع الجهات...»[2]

ويتحدّث (رضوان الله عليه) عن أوضاعه النفسيّة والروحيّة بسبب ما كان يتعرّض له من مضايقات وسوء فهم سواءً من بعض الأقربين أو من غيرهم فيقول:

«قرأت رسالتك مراراً عديدة وأظنّ أنّها تركت في نفسي نفس ما تركه في نفس الإمام أمير المؤمنين قول عضده المجاهد مالك الأشتر حين رآه قد وليّ أولاد عمّه على أمصار المسلمين فقال: على ماذا حاربنا الشيخ بالأمس.

أنا أظن أنّ الشعور الذي تركه كلام الأشتر هذا في نفس صاحبه هو شعور الارتياح الممزوج بألم عنيف، أو هو الألم الممزوج بالارتياح...»[3]

---

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٥٥).

٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٥٦).

٣ ـ تجدها ضمن الوثيقة (٣٩)، وقد مضى نصّها بالكامل.

ويقول في رسالة أُخرى:

«أنت لاتعرف كيف أعيش والحمد لله على كلّ حال، حالتي النفسيّة لاتسمح لي بأكثر ممّا كتبت ولولا رضا الله سبحانه وتعالى لتمنيّت أن ألتحق بالأحبّة الذين سبقوني إلى الرفيق الأعلى واستراحوا من همّ الدنيا وغمّها، وأُتيح لهم أن يتقابلوا ويتحدّثوا في ظلٍ من رضوان الله ونعيمه...»[١]

وفي رسالة أُخرىٰ كتب يقول:

«...أبتُليت بأعراض اشتبه بعض الأطبّاء في أن تكون ارهاصات ذبحة قلبيّة أو كشيء من هذا القبيل وعلى هذا الأساس ألزموني بالراحة المطلقة مدّة ثلاثة أسابيع خوفاً من تكرر تلك الأعراض وهكذا قضيت هذه الأسابيع الثلاث التي انتهت قبل يومين كالأسير وكثيراً ماكنت أُفكّر فيك وكثيراً ماكنت أُحسّ بأنّ من العزيز عليَّ أن أستقبل الموت وبعض أحبتي بعيد عنّي، وعلى أيّ حال فقد انتهت هذه الأسابيع الثلاث قبل يومين وخلّف هذا العارض تبعة ثقيلة علىٰ نفسي وهي وصايا بعض الأطباء بأن أُبرمج وضعي الحياتي بشكل متكلّف ويخيّل لي أنّ من الشاق أو الغريب أن يتكلّف الإنسان من أجل أن يزيد في حياته التي قدّر له أن يعيشها في خضمّ المحن والآلام، وقد كان الموت يبدو لي دائما أيّها العزيز خلال هذه الفترة شيئاً مريحاً ومحبّباً إلىٰ حدٍ ما لأنّه مريح كما يرتاح التلميذ حين ينتهي الامتحان ويذهب لأخذ درجاته ولكنّه في نفس الوقت يعبّر عن درجة من المرارة والخيبة كما يشعر التلميذ بالمرارة والخيبة حين يقدّر له أن يقتصر على مرحلة محدودة من الدراسة لا أدري لماذا انفتحت علىٰ هذا الحديث...»[٢]

ويكتب كذلك:

«صحّتي جيّدة وإن كانت الظروف النفسيّة متعبة خصوصاً مع المضاعفات

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٥٧).
٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٥٨).

التي ينتجها المغرضون عن قصد، والأصدقاء ومدعوّ الصداقة لا عن قصد أو عن نصف قصد على السواء، وكان من نتيجة هذه المضاعفات ما لا يحمد عقباه من الإشاعات والافتراءات التي تلصق بأبي مرام [يعني نفسه]الأمر الذي يحتمّ أن يكون بعيداً عنه أي شخص...»[١]

وأخيراً يودّ لوهاجر إلى قرية أو مغازة ليبتعد عن المزعجات والمضايقات التي كان يتعرّض لها فيقول:

«وأرجوا أن تكونَ قد استعدتَ الهدوء والرضا فلو كنت تعلم ما نواجهه هنا من مزعجات وإيذاءات من أشخاص كثيرين ممّا لايمكنني أن أستعرضه لهان عليك ما ذكرت فهو ليس ـ علم الله ـ إلّا شيئاً يسيراً من المزعجات التي نواجهها والتي جعلتني في بعض لحظات الضعف التي تنتاب كلّ إنسان ـ عدا من عصمه الله ـ أودّ أن أُهاجر من النجف إلى قرية من القرىٰ. ولكن لابدّ من التحمل على أيّ حال. وأنا اوصيك بضبط النفس والهدوء والشعور بأنّ الصبر في مثل هذه الحالات عبادة كبيرة أيضاً...»[٢]

وعلى كلّ حال وجد السيّد الشهيد الصدر نفسه أمام أمر واقع لامجال للتغاضي عنه، وسواء كانت عمليّة التصدّي للمرجعيّة طوليّة أو عرضيّة فإنّ الظروف الموضوعيّة والحاجات الملحّة اقتضت الامتداد السريع لوجوده بين أبناء الشعب العراقي وخاصّة الطبقة الواعية والمثقفة التي وجدت فيه أملاً، لا على مستوىٰ الضرورة الفقهيّة فقط، بل وتلبية الحاجات الثقافيّة والفكريّة التي كان يمتلك القدرة الكبيرة على ملئها بأفضل الوسائل.

وقبل ذلك وجدت قطّاعات من الحوزة العلميّة في النجف في مدرسته الفقهيّة والأُصوليّة ألواناً من الإبداع والعمق والإصالة تجذب من يتوخّىٰ هذا النوع

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٥٩).
٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٦٠).

من التجديد فأصبح مجلس درسه من المجالس الرئيسيّة وآراؤه الفقهيّة والأُصوليّة مورد اهتمام العلماء والفقهاء.

لقد أصبح الوجود المرجعي للسيّد الشهيد الصدر أمراً لا يمكن تجاهله ولعلّ من عاش تلك الفترة يشهد بمستوىٰ تفاعل الشعب العراقي المنقطع النظير مع مرجعيّته رغم الظروف السياسيّة والأمنيّة القاسية.

الحرب النفسيّة ضدّ السيّد الشهيد:

لقد استغلّ بعض الأطراف حالة العداء الدائمة بين السيّد الشهيد الصدر والسلطة لضرب مرجعيّته وإنهاء وجوده، وكانت هذه الأطراف في نشاطها وفعّاليّتها أقوىٰ من السلطة وأخطر منها في أحيانٍ كثيرة، فعلىٰ مستوىٰ الحوزة العلميّة استطاعت أن تُوجد حالة من الرعب والخوف عند الطلبة أدّت إلى امتناع بعضهم، أو الأصح عددٍ كبيرٍ منهم من حضور أبحاث السيّد الشهيد الصدر العلميّة التي لاعلاقة لها بأيّ عمل سياسي أو جهادي، وكذلك التردّد على منزله وحضور مجلسه العامّ.

وعلى مستوىٰ الأُمّة والجماهير فإنّ ماوقع ليس أيسر مما وقع للطلبة في الحوزة، وأتذكر أنّ رجلاً من المناطق الجنوبيّة في العراق جاء إلى النجف الأشرف لزيارة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فحدّث السيّد الشهيد الصدر بما جرىٰ له فقال: كنت لا أعرف أين يقع منزلكم، وكانت رغبتي شديدة في أن أزوركم وألتقي بكم، فوقفت في الصحن الشريف أنتظر من يدلّني، فمرَّ بقربي أحد (المعمّمين) فسألته عن منزلكم فقال لي: ان منزل السيّد الصدر مطوّق من قِبل قوّات الأمن وسوف تعتقل حال وصولك ثم سالت آخر وآخر فكان الجواب نفسه، إلّا أنّ أحد الطلبة الشباب دلّني على منزلكم وأخبرني أنّ الأُمور طبيعيّة، وقال لي: لا تخف. وأتى بيّ إلى هنا، وأنا الآن أرىٰ الأُمور طبيعيّة فلماذا يفعل هولاء هكذا.

هذا النموذج يُعبّر عن مئات من النماذج المشابهة التي كانت تصلنا أخبارها بين الحين والآخر، وما خفي أكثر وأكبر. وكانت السلطة تغذي هذا الطرح وتدعمه، وتحاول إرهاب أكبر عدد ممكن من الناس من خلال الحملات النفسيّة المشابهة.

اعتمدت السلطة في حربها النفسيّة على أمرين:

الأوّل: الاعتقالات التي تعرّض لها السيّد الشهيد، وكذلك أنصاره وأعوانه من بين المراجع والمرجعيّات التي كانت قائمة آنذاك في النجف الأشرف، فكان يُشاع بين الناس أنّ السلطة لم تكن لتعتقل الصدر لولا تورّطه بأُمور خطيرة، وإلّا فلماذا لا تعتقل المراجع الآخرين؟

الثاني:مقاطعتها السيّد الشهيد ﵀ وهو أمر في غاية الأهميّة، فكان يقال: إنّ السلطة لاتعترف بمرجعيّة الشهيد الصدر، وتعتبره عدوّها، بدليل أنّ فلان عضو مجلس قيادة الثورة مثلاً زار المرجع الفلاني، ولم يزر السيّد الصدر، وهكذا.

وأفرزت الحملة النفسيّة بتفاصيلها الواسعة حالة من تطويق شديد للشهيد الصدر، فكان مجلسه اليومي محدوداً بعدد من الطلبة الشباب لايتجاوزون عدد الأصابع، وكان بحثه كذلك، وكانت صورة قاتمة ترتسم في الأذهان عن المستقبل لو استمر الوضع على هذا الشكل، بل أستطيع أن أجزم بأنّ مرجعيّة السيّد الشهيد كانت على وشك الانهيار التامّ، أو لا أقلّ الانزواء الكامل، حتّى أنّه ﵀ اضطرّ إلى ترك التدريس فترة من الزمن، وكان على وشك أن يغلق باب داره.

وتصدّى الراشدون الأبرار من الطلبة للعمل من أجل الدفاع عن هذه المرجعيّة، وحماية كيانها، وانضمت إليهم الطلائع الواعية من المؤمنين في صفوف متّحدة متراصّة وجهود متواصلة، رغم الأخطار التي كان من المحتمل أن يتعرّضوا لها، كان في طليعة هؤلاء سماحة العلّامة حجة الإسلام الشيخ أديب حيدر (حفظه

الله) فقد لعب دوراً كبيراً في مجال إحباط مخطّط الحرب النفسيّة مستفيداً من وجود ابن عمه زيد حيدر في عضويّة القيادة القوميّة لحزب البعث الحاكم في العراق. وتمكّن السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) أن يشق الطريق بثبات وعزم، فامتدّ إلى أعماق الأُمّة فاضطرّت السلطة فيما بعد ـ رضوخاً للأمر الواقع ـ إلى الاعتراف بمرجعيّته، والتعامل معه تعامل الندّ للند، وكانت الخطوة الأُولى في هذا المجال زيارة زيد حيدر عضو ما يسمّى بالقيادة القوميّة لحزب البعث.

زيارة زيد حيدر:

قبل زيارة زيد حيدر للسيّد الشهيد ﷺ كان مستوى الشخصيّات الحكوميّة التي تزوره منحصرة تقريباً بمدير أمن النجف، أو القائم مقام، وحتّى هؤلاء لم تكن زياراتهم ودّية، بل كانت تتمّ ضمن مخطّط وأهداف معيّنة، إلّا أنّ زيارة زيد حيدر قلبت الموازين، وشكّلت منعطفاً كبيراً في هذا المجال.

جاء زيد حيدر وهو لا يحمل مطلباً معيّناً ولا اقتراحاً خاصّاً، وقد ظلّ ساكتاً طيلة مدّة الزيارة مستمعاً فقط للسيّد الشهيد وهو يتحدّث، وقد قال السيّد الشهيد في جملة ما قال: جاء في الحديث «إذا رأيتم الحكّام على أبواب العلماء، فقولوا نِعم الحكّام ونعم العلماء، وإذا رأيتم العلماء على أبواب الحكّام، فقولوا بئس العلماء وبئس الحكّام»... ثمّ قال: إنّ العلماء هم المؤشر الحقيقي الذي يعكس بأمانة مطالب الشعب ورغباته، إنّ المواطن لا يتحرّج من البوح بما في نفسه أمام العالِم، بينما لا يفعل ذلك أمام الدولة، فإذا أردتم معرفة مطالب الشعب الحقيقيّة ورغباته المشروعة، فعليكم بمراجعة العلماء والاستفسار منهم.

ثمّ تحدّث عن دور العلماء في لبنان أثناء الاستعمار الفرنسي لها، ودورهم الكبير في تحريض الشعب على الاستقلال، ودور الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين ﷺ في تلك الأحداث.

وطال الحديث، وكانت الزيارة في المجلس العامّ وبحضور عدد من الطلبة والعلماء.

لقد نُقل فيما بعد أنّ زيد حيدر اعترف أمام قيادته في بغداد بأنّ السيّد الصدر مفكّر عربي من طراز فريد، وأنّه يستطيع تدوين قوانين دولة في مدّة يسيرة من الزمن.

وعلى كلّ حال فقد انتشر خبر زيارة زيد حيدر للسيّد الشهيد، فكانت المفاجأة لتلك الأوساط التي استغلت حالة العداء بين السيّد الشهيد والسلطة، وبدأ سوط الرعب الذي يحرّكونه متى أرادوا هزيلاً لايقوى على إخافة أحد، فكثر تردّد الناس، وعادت الأُمور بالتدريج إلى حالتها الطبيعيّة.

زيارة حسن علي:

وحصلت حادثة أُخرى، مثيلة لسابقتها، وهي زيارة حسن علي عضو مجلس قيادة الثورة ووزير التجارة للسيّد الشهيد (رضوان الله عليه)، وهي أيضاً لم تكن متوقّعة وكانت في المجلس العامّ.

ولم يدر في تلك الجلسة ما يستحق الذكر، ولكن كان تأثيرها في كسر حاجز الخوف كبيراً.

بعد ذلك كثرت زيارة مختلف مراتب المسؤولين من حكوميّين وحزبيّين، وكانت كلّها تساهم في تحقيق تلك الحالة من حيث لا يشعرون، وقد أعماهم الله (عزّ وجل) وأصمّهم.

واستطاع السيّد الشهيد أن يكسب الوقت، حتّى اضطرّت السلطة إلى التعامل معه تعامل الندّ للندّ. فمثلاً وبعد زيارة أعضاء القيادتين جاء فاضل البرّاك مدير الأمن العامّ مع مساعده مدير الشعبة الخامسة الخاصّة بتعذيب المؤمنين

لزيارة السيّد الشهيد، وكان متخفّياً، فكلّ السيارات التي كانت معه تحمل أرقاماً خليجيّة، ومعظم الأفراد الذين جاءوا لحمايته كانوا بزيّ خليجيّ، وكان يظهر الحبّ والمودّة حتّى أنّه قال للسيد الشهيد في المكالمة التلفونيّة من بغداد التي طلب فيها موعداً للزيارة: إنّه يريد أن يحضر مائدة عشاء مع السيّد الشهيد وحصر هدف الزيارة بذلك ليظهر نوعاً من المودة، وبعد أن التقى بالسيد الشهيد طلب اجتماعاً ثنائيّاً خاصّاً، وأعتقدُ أنّ سبب ذلك كان خوف البرّاك من مساعده، فقد كان الصراع بين جماعة البكر وصدام على أشدّه، والبرّاك كان محسوباً في تلك الفترة على البكر. ولعلّ مساعده كان محسوباً على صدّام. وعلى كلّ حال كانت خلاصة الاجتماع كما أخبرني السيّد الشهيد ما يلي: «إنّ البرّاك أعطى للبكر انطباعاً حسناً عن السيد الشهيد، وإنّ البكر يكنّ بالغ الاحترام للسيّد الصدر، وأمثال هذه العبائر... ثمّ قال: أرى من صالحنا جميعاً أن نتّفق على أن لاتتدخّل في شؤونكم وأن لاتتدخّلوا في شؤوننا، ثمّ قال إنّني استطيع أن أهمل جميع التقارير التي تكتب عنكم وترفع إلينا من قبل مديريّة أمن النجف وغيرها، إلّا أنّني لا أستطيع أن أفعل شيئاً للتقارير التي ترفع للقيادة مباشرة من قبل أشخاص في الحوزة نفسها، فأرجوا أن لايصدر منكم شيء يسبب لي إحراجاً أمام القيادة»، وذكر للسيّد الشهيد أسماء بعضهم، ونموذجاً من تقاريرهم، ولم يفصح ﵀ عن أسمائهم إلّا في فترة الحجز. هذه أهمّ فقرات ذلك الاجتماع، وهو يعبّر بوضوح عن الحقيقة التي ذكرتها آنفاً.

وعلى كلّ حال فقد استطاع (رضوان الله عليه) أن يكسب فرصة زمنيّة استمرّ عدّة سنوات مكّنته من القيام بأعمال ما كان يمكن أن تتمّ لولا ذلك، أذكرها على سبيل الإجمال:

إنجازاته الحوزويّة

١ ـ إعادة بناء الحوزة:

من الأُمور التي كانت موضع اهتمام السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) وضع الحوزة العلميّة الذي لم يكن يتناسب مع تطوّر الأوضاع في العراق ـ على الأقلّ ـ لا كماً ولا كيفاً.

فمن جانب كانت السلطة العفلقيّة قد أفرغت الحوزة من معظم الطاقات العلميّة عن طريق التسفير بالنسبة لطلبة العلوم الدينيّة من الإيرانيّين وغيرهم، ولم تسمح بالإقامة إلّا لعدد محدود من كبار السن، والشيوخ من خلال قوائم تنتخب وتقدّم للسلطة من قبل أحد المراجع.

كما أنّ الملاحقات الأمنيّة كانت مستمرّة للطلبة العراقيين والعرب، وبالنسبة للطلبة العراقيين كان أُسلوب الملاحقة والضغط يتمثّل تارة بدعوتهم إلى أداء الخدمة العسكريّة، وهذا إن تمّ فسوف يُفرّغ الحوزة من كلّ الطاقات الشابّة، ولن يبقى إلّا الشيوخ وكبار السن، وتارة بتوجيه الاتهامات السياسيّة إليهم، وما يتبعه من ملاحقة أمنيّة.

هذا الواقع أحدث عزوفاً عن الدراسة في الحوزة، أو الانتماء إليها خاصّة وأنّ اللانظام هو النظام الذي يسودها، فالطالب الجديد الذي يفكّر بالدراسة فيها سيجد كلّ شيء مجهولاً وغامضاً الحاضر والمستقبل، وكلّ شيء.

ورغم أنّ عمليّة التغيير تحتاج إلى تكاتف كلّ الطاقات والإمكانات، مع توفّر الوعي والقناعة التامّين بضرورة وأهميّة التغيير، إلّا أنّ السيّد الشهيد ﷺ كان يدرك أنّ الأوضاع السائدة وخاصّة أوضاع بعض المرجعيّات وكذلك أوساط كثيرة في الحوزة لا تستسيغ محاولات التغيير بعد أن تعوّدت على نمط معيّن من التعايش القائم على عدم النظام. ولكن مع ذلك ما كان هذا ليحول دون إجراء كلّ

ما هو ممكن وضروري من إصلاحات أو عمليات تغيير.

كانت أهمّ قضيّة في تلك الفترة تتمثّل بأمرين:

الأمر الأوّل، الاهتمام بإنشاء حوزات علميّة في مواطن آمنة تتحمل قسطاً من مسئووليّة إرفاد العالم الإسلامي بالعلماء المثقفين الواعين. فشجّع ودعم بعض العلماء الأفاضل مادّيا أو معنوياً أو معاً لتحقيق هذا الهدف فمثلاً يقول في رسالة له إلى الشهيد السعيد المرحوم السيّد عبّاس الموسوي (امين عام حزب الله في لبنان) مشجعاً ومباركاً إنشاء حوزة علميّة في إحدى المدن اللبنانية:

«وإنّي منذ مدّة أسمع عن المدرسة التي كان لكم شرف إقامتها ما يوجب اعتزازي وتقديري وأبتهل إلى المولى سبحانه وتعالى أن يسدّد هذه الحوزة الفتيّة المؤمنة ويرعىٰ نموّها العلمي والروحي والتوعوي ويجسّد فيها أحد النماذج الصالحة لهذا المشروع المبارك

وأمّا فكرة المَدرَس الكبير [١] فسوف أدرسها على ضوء ظروف الآخرين إن شاء الله تعالى.

وقد أرسلنا إليكم دورة من شرح اللمعة باستثناء الجزء الأوّل لفقدانه وعدد من المنطق الكبير ومن المنطق الصغير، ودورة من الحلقات، ونحن مستعدون لتزويدكم بما تحتاجه حوزتكم من كتب دراسيّة فاكتبوا إلى السيّد الهاشمي كلما شعرتم بالحاجة إلى كتب يمكننا توفيرها لكم.

وأرجو أن أسمع عنكم يا أولادي دائماً ما يؤكّد أملي فيكم لخدمة الإسلام والمساهمة في بناء هذا الصرح الشامخ...» [٢]

ويكتب له كذلك:

«وبعد فقد تلقّيت رسالتكم الكريمة وسرّني الاطلاع على أحوالكم

١ ـ المقصود به قاعة أو صالة للدراسة.

٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٦١).

وصحّتكم الغالية و نموّ المدرسة واستمرارها المبارك فنسأل المولى تعالى أن يتقبّل منكم ويرعاكم بعينه التي لاتنام.

وتجدون في الجوف الوكالة التي طلبتموها، كما أنّا أرسلنا مع حامل الرسالة بعض أشرطة بحث التفسير من أجل تعميمها على الأُمّة كما رغبتم، فإنّ في استماع الأُمّة إلى صوت المرجع تأثيراًكبيراً في نفسها، وسوف نرسل إليكم باقي الأشرطة على أن نحوّل بعض ما نتلقىٰ من طلبات بهذا الشأن عليكم.

وأمّا اقتراحكم بالنسبة إلى العون المالي للمدرسة فهو مقبول، والأمر متروك إليكم في استثماره على أفضل الوجوه...»[1]

وعن إنشاء حوزة علميّة في دولة الأمارات العربيّة المتّحدة يكتب إلى سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد عبد الله الغريفي رسالة بهذا الشأن يقول في مقطع منها:

«تسلّمت قبل فترة رسالتكم الكريمة المؤرّخة بأواخر شهر شعبان مع المبلغ الذي حوّلتموه إلينا بتوسّط الوجيه المكرّم الحاج داود العصفور أدام الله توفيقه، وسرّني الاطلاع على أحوالكم واستقراركم، وإنّي أُولي أهمّية كبيرة للمنطقة التي حللتم فيها لأنّها لاتزال تحتفظ بقدر كبير من التمسّك بالدين والأخلاق والآداب، ومن ناحية أُخرىٰ تتعرّض لهزّة وتحوّل كبيرين بحكم انفتاحها على العالم من أوسع أبوابه، فلابدّ من الاهتمام بتركيز الدعائم الدينية والروحيّة في نفوس أبناء البلاد من الآن، وقد شكرت لولدنا الفاضل السيّد محمد الموسوي حفظه الله اهتمامه ودعمه لوجودكم وشعوره بالمسؤوليّة الدينيّة.

وأمّا فكرة إنشاء حوزة علميّة في تلك المنطقة فهي فكرة صحيحة ومهمّة ونحن حاضرون لإسنادكم في ذلك إيماناً منا بأنّ النجف بحاجة إلى حوزات موضعيّة من هذا القبيل في كلّ منطقة تجسّد رسالتها وروحيّتها في تلك

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٦٢).

المنطقة من ناحية، وتهيّئ للنجف الناضجين للمرحله التالية نسأل المولى سبحانه ان يسددكم ويأخذ بيدكم...»[١]

وعن دعمه لحوزة علميّة في باكستان يكتب رسالة جوابيّة إلى سماحة الشيخ محمد حسنين السابقي النجفي يقول فيها:

«وبعد: فقد تسلّمت في أثناء محرم الحرام رسالتكم الكريمة التي تعبّر عن مشاعركم الرفيعة وإخلاصكم لرسالتكم الكبرىٰ رسالة العلم والدين وقد سرّني تصدّيكم لعمادة جامعة باب العلوم الدينيّة فنسأل المولى سبحانه وتعالى ان يسدّدكم وينفع بكم عموم الطلّاب والمؤمنين فأنتم أهل لذلك لما تتحلّون به من إيمان وتقوىٰ وفضل وعلم.

وأنت مأذون من قبلي في الصرف على حاجاتك وحاجات المدرسة الدينيّة التي تتولّىٰ شؤونها بالقدر الذي يتطلّبه وضعها من سهم الإمام عليه أفضل الصلاة والسلام...»[٢]

وعن اهتمامه بإنشاء جامعة علميّة دينيّة في باكستان يقول في رسالته إلى سماحة الشيخ محسن علي النجفي:

«وبعد فقد تسلّمت رسالتكم الكريمة منذ فترة شهر تقريباً وقرأتها بكلّ اعتزاز وتقدير لأنّها رسالة ولد بارّ وقد ابتهلت إلى المولى سبحانه وتعالى أن يرعاكم بلطفه ويمدّكم بعنايته ويرفع بجهودكم مستوىٰ جامعة أهل البيت التي كان لكم الشرف في رعايتها... وأمّا ما طلبتم من المناهج وتحديد الموادّ الدراسيّة للجامعة فهذا يتوقّف على أن نحاط علماً من قبلكم بتفاصيل عنها، من قبيل عدد الطلاّب ومستوياتهم ومقدار مالديهم من تحصيلات قبل الدخول في الجامعة ومقدار الاساتذة الأكفّاء ومسألة اللغة ومقدار إمكان تفهّم اللغة العربيّة، وما هي الدراسة الفعليّة فيها إن كانت هناك دراسة قائمة فعلاً...»[٣]

---

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٦٣).

٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٦٤).

٣ ـ راجع الوثيقة رقم (٦٥).

ومهما يكن من أمر من ناحية ماتمّ انجازه، أو المستوىٰ العلمي لهذه الحوزات فإنّه بغضّ النظر عن ذلك يعتبر إنشاء حوزات علميّة تحت رعاية المرجعيّة الدينيّة في دول تتمتّع بالأمن والاستقرار وعدم الحساسيّة الدينيّة من الأُمور المطلوبة بذاتها. ومن ناحية أُخرىٰ فإنّ مثل هذه الحوزات تُعتبر الاحتياطي الاستراتيجي في حال تعرّض حوزة النجف الأشرف إلى التدمير والإبادة، فعلىٰ ضوء الحقائق التاريخيّة المعروفة نجد أنّ الحوزات العلميّة تعرّضت لمثل هذا الافتراض فكانت الحوزات البديلة الملجأ الذي أنقذ باقي الوجود. كما أنّ تعدّد المواقع الحوزويّة في مختلف أنحاء العالم يجعل من الصعوبة لأيّ حاكم القضاء عليها.

وما من شكّ أنّ السيّد الشهيد الصدر كان بما نعرف عنه من عمق وبُعد نظر قد أخذ بنظر الاعتبار هذه الحقائق فكان ـ حسب اطلاعي ـ يركز على لبنان لما فيه من خصائص كان أهمّها روح الانفتاح التي تميّز بها.

أمّا الأمر الثاني: يتمثّل بجذب الكوادر والطاقات الشابّة والمثقّفة والواعية من أبناء الأُمّة وإثراء الحوزة بهم، وإناطة مهمّة التبليغ والدعوة إلى الإسلام بهم بالشكل الذي يلبّي حاجات العراق ـ على الأقل ـ من العلماء الرساليّين المخلصين.

وبدأ (رضوان الله عليه) خطواته على هذا الصعيد بحثّ وكلائه على تشجيع الشباب الذين تتوفّر فيهم اللياقة والكفاءة، وخاصّة من الشباب الجامعيّين على الانتساب إلى الحوزة. وكان قد تعهّد لهذا الصنف من الشباب بكفالتهم ماديّاً كفالة تامّة، وباشر بنفسه هذه المهمّة فكان يحثّ بعض الشباب ويرغّبهم بذلك في مجلسه العامّ الذي كان يعقده قبل ظهر كلّ يوم.

وخلال فترة قصيرة انتسب إلى حوزة النجف الكثير من الشباب، وامتلأت

بهم بعض المدارس الدينيّة كمدرسة أمير المؤمنين ﷺ الواقعة في منطقة (الجُديدَة) والمدرسة الشبّريّة الواقعة في محلة البراق، وغيرهما من المدارس. وفي الفترة الأخيرة اضطرّ إلى إصلاح مدرسة (الجزائري) التي كانت مهجورة لإسكان الطلبة الجُدد فيها.

ولأجل تقديم خدمات إضافيّة إلى الطلبة عموماً، وتوفير الوقت وتهيئة الجوّ الدراسي المناسب قرّر ﷺ توفير وجبات الطعام للطلبة. وبدأ هذا المشروع بطلّاب المدرسة الشبريّة كخطوة أُولىٰ على أن تعمّم هذه التجربة بعد نجاحها على باقي المدارس.

وقد أشار ﷺ في عدد من رسائله إلى ذلك منها هذا المقطع يقول:

«وقد قمنا بمشروع كفالة وجبة غذاء كاملة لطلبة المدارس وهو مشروع قد بدأ بنجاح ملحوظ والحمد لله ،والمأمول أن يمتدّ ويساهم في لون جديد من الرعاية المرجعيّة للحوزة، ومحاولة لتحويل أوضاع الطلبة المجرّدين في المدارس إلى ما يشبه الأقسام الداخليّة وسيشرح لكم الشيخ النعماني بعض تفاصيل المشروع...»(١)

واستمرّ المشروع لفترة مّا ولكنّه توقّف لأنّ سماحة الإمام الخوئي ﷺ لم ينفتح عليه وبدا منه بعض السلبيّات يقول في رسالة له بهذا الشأن:

«بالنسبة إلى مشروع الإطعام استمر إلى نهاية شهر رمضان ثم أوقفناه لأنّ السيّد الخوئي حينما تفاوضت معه في الموضوع لم ينفتح عليه وبدا منه بعض السلبيّات، وقد استبدلنا ذلك الآن بمشروع آخر حيث أعلنّا وضع زيادة في الراتب بنسبة خمسين بالمائة وربطنا الزيادة بامتحان يتكرّر وتوضع له سجلات ويلاحظ في كلّ امتحان السعي المستمر بين الامتحانين، ويزوّد

١ ـ لاحظ الوثيقة رقم (٣٠) وقد مضت الإشارة إليها فيما سبق.

الطالب بشهادة النجاح في الامتحان وسيكون هذا بتطويره مدخلاً لإصلاح الأوضاع الدراسيّة في الحوزة...»[١]

وكان (رضوان الله عليه) قد قرّر إضافة خدمات أُخرىٰ إلى جانب الإطعام كتوفير أجهزة غسل الملابس الكهربائيّة وتوفير عمّال للقيام بذلك وأمثال هذه الأُمور التي كانت تستهلك شطراً كبيراً من أوقات الطلبة.

وبالإضافة إلى ذلك اهتمّ ﵁ بتهيئة الكادر الكفوء من الأساتذة، وأمر بعض تلامذته بتدريس أيّ مادّة علميّة حتّى لو كانت أقلّ بكثير من مستواهم العلمي، بل كان يهتمّ شخصيّاً بمراجعة بعض الطلبة له بخصوص تحصيل أساتذة لهم.

واعتقد أنّ النجف لم تشهد في تاريخها المعاصر نموّاً وازدهاراً في حجم انتساب قطّاعات من شباب العراق إلى حوزتها العلميّة العريقة مثل ما حصل في تلك الفترة، سواءً من ناحية الكمّ أو الكيف، فقد تميّز ذلك الجيل بالإخلاص والتديّن والتضحية إضافة إلىٰ تميّزهم بالثقافة المعاصرة ،ومستواهم الاجتماعي المرموق وهم بذلك كسروا العرف الذي كان سائداً والذي كان لايشجّع على الانتساب إلى الحوزة ويقضي بأنّ طلبة الحوزة هم طبقات المجتمع الدانية.

٢ ـ تغيير المناهج الدراسيّة:

والخطوة الأُخرى كانت تتمثّل بتغيير المناهج الدراسيّة في الحوزة العلميّة، حيث كانت المناهج الدراسيّة تشكّل عقبة كبيرة أمام تطوير الحوزة بالشكل الذي تتطلّبه الأوضاع وحاجات المجتمع، إذ لم تكن قادرة على بناء علماء أكفّاء في فترة زمنيّة معقولة، بل كانت تستوعب قدراً كبيراً من عمر الطالب، وبالتالي كان يؤثر على مقدار عطاء الحوزة من العلماء، ولهذا السبب كانت معظم مدن العراق

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٦٦).

تعاني من فراغ خطير في هذا الجانب، في الوقت الذي كانت فيه السلطة البعثيّة قد استوعبت كافّة مدن العراق وغطّت كافة قراه ونواحيه بالمنظّمات الحزبيّة والثقافيّة، بل امتدّ نفوذها إلى معظم مساجد وحسينيّات الشيعة، وسيطرت عليها.

وعلى كلّ حال كان هناك أكثر من سبب يدعو إلى إعادة بناء المنهج الدراسي الحوزوي، وصياغته صياغة حديثة تختصر الوقت مع الاحتفاظ بالمستوى العلمي والعمق والدقّة.

ومن هنا فكّر (رضوان الله عليه) بإعداد كتب دراسيّة تكفل للطالب تلك الخصائص، فكتب معظم موادّ حلقات (دروس في علم الأُصول) في مدّة شهرين، كما ذكر هو ﵀ ذلك في مقدّمة الحلقة الأُولى، وبيّن في مقدّمة الكتاب أسباب تأليف الكتاب والضرورات التي دعت إلى كتابته.

وقد استطاعت حلقات (دروس في علم الأُصول) أن تحقّق هدفها في اختزال الوقت مع مراعاة جانب تلقّي المطالب العلميّة الذي يقتضي التدرّج في الطرح العلمي للمسائل مع الاحتفاظ بالعمق والمستوى، فكما أنّها احتوت على النظريّات الأُصوليّة القديمة تضمّنت كذلك النظريّات الأُصوليّة الحديثة، كلّ ذلك في إطار منهجيّة علميّة جديدة. ولهذا السبب نجح كتاب (دروس في علم الاصول) نجاحاً باهراً، يقول ﵀ في مقطع من رسالة له عن كتابه دروس في علم الاصول:

«أرسلنا إليكم ثلاثين دورة من الحلقات الثلاث في البريد وإذا أمكن أن يطلب بعض أصحاب المكتبات كميّة من الكتاب من بيروت ابتداءاً فهو أسهل، ونحن هنا استوردنا ألف دورة، والإقبال على الشراء قياسي وكبير جداً الأمر الذي جعلني أُفكر ـ على الخطّ الطويل ـ في كتابة مشروع مماثل لما يدرس من الفقه في السطوح أيضاً...»[١]

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٦٧).

وكان أوّل طالب ـ على ما أذكر ـ درس كتاب (دروس في علم الأُصول) هو الشهيد المجاهد الشيخ محمد البشيري نجل سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ حسين البشيري (حفظه الله).

وكما ذكر ﴿ في رسالته من أنّه يفكّر في كتابة مشروع في الفقه (دروس في علم الفقه) على نفس منهجيّة وأُسلوب دروس في علم الأُصول فقد وضع فيما بعد مخطّط الكتاب وهيكليّته إلّا أن يد الإجرام امتدّت إليه قبل أن يتمكّن من تحقيق ذلك.

٣ ـ إرسال الوكلاء.

وقّرر (رضوان الله عليه) استيعاب الساحة ببعث العلماء والوكـلاء إلى مـختلف مناطق العراق، وكان له منهج خاصّ وأُسلوب يختلف عمّا كان مألوفاً في طريقة الإرسال.

كان الأُسلوب السابق ـ باستثناء مرجعيّة الإمام الحكيم ﴿ ـ ينحصر في أنّ المنطقة التي ترغب بطلب عالم يقيم فيها تتكفّل جميع نفقاته الماليّة والمعاشيّة، والمرجع يحدّد له نسبة معيّنة من الحقوق الشرعيّة بما يشبه المضاربة.

وهذا الأُسلوب تترتّب عليه سلبيّات كثيرة، منها: أنّ بعض المناطق وبسبب أوضاعها الاقتصاديّة الضعيفة لا تتمكّن من تغطية نفقات العالم، فتعزف عن التقدّم للمرجع بطلب عالم يقيم بينهم، وتكتفي فقط باستدعاء خطيب لمناسبة محرّم وشهر رمضان على أحسن الأحوال.

ومنها: أنّ بعض ذوي الثروة يحاول السيطرة على العالِم، ويقيّده بسياسة خاصّة مستغلّاً الضغط المالي في حال كفالته لعالِم المنطقة.

وكان من شأن هذا الأُسلوب أن يعطي صورة سلبيّة عن المبلّغ والعالِم،

فيعتبر في نظر الناس متسوّلاً أو مسكيناً يستحق العطف والمساعدة، وليس قائداً للناس وموجّهاً لهم.

أمّا السيّد الشهيد فقد اتّخذ سياسة جديدة تحقّق الكثير من الإيجابيّات، وتخلو من جميع السلبيات التي أشرنا إلى بعضها فيما سبق، وكانت أركانها الأساسيّة ما يلي:

أ ـ حرص ‌رحمه‌الله على إرسال خيرة العلماء والفضلاء هدياً وأخلاقاً وتقوىً وإحاطة بما تتطلّبه الحياة والمجتمع، وتجنّب إرسال العناصر المتّسمة بالجفاف والانزواء، والتي لا تعرف مقتضيات العصر ومتطلباته.

ب ـ تتكفّل المرجعيّة بتغطية كافّة نفقات الوكيل الماديّة، ومنها المعاش والسكن، سواء كان إرسال الوكيل بطلب من المنطقة، أو مباشرة من قبل المرجع.

ج ـ الامتناع عن قبول الهدايا والهبات التي تقدّم للعالِم من قبل أهالي المنطقة.

د ـ العالِم وسيط بين المنطقة والمرجع في كلّ الأُمور، ومنها الأُمور الماليّة، وقد أُلغيت النسبة المئويّة التي تُخصّص للعالِم.

أمّا النتائج الإيجابيّة التي ترتّبت على هذه السياسة فكثيرة أذكر منها:

١ ـ تحرّكت المناطق التي كانت غير قادرة على تغطية نفقات العالم، فطلبت علماء للإقامة فيها. وأمكن بذلك ملء الفراغات الكبيرة. وخاصّة في مناطق المستضعفين، كما حصل في مدينة الثورة التي تعتبر من أهمّ مناطق بغداد على الصعيد الشعبي والجماهيري، وأدّى ذلك إلى ولادة تيار إسلامي أقلق سلطة البعث العميلة.

٢ ـ وانتجت هذه السياسة أيضاً رغبة قويّة بين الشباب المثقّفين للاتّجاه إلى الحوزة والدراسة فيها.

٣ ـ أثّرت هذه السياسة في تغيير الصورة السلبيّة الموروثة عن العالِم، وأعطت عنه صورة إيجابيّة برّاقة. فمثلاً استطاع سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ حسن عبد الساتر أن يحدث تأثيراً كبيراً في الكوت مركز محافظة واسط، وصنع جيلاً من الشباب الواعين المؤمنين المثقّفين، بل ويؤثّر حتّى على طبقة كبار السن من الشيوخ؛ لأنّ هؤلاء لم يعهدوا عالِماً يترفّع حتّى عن قبول الهدايا والهبات، بل كان يتفقّد الفقراء والمعوزين، وينفق عليهم.

ونموذج آخر هو المرحوم الشهيد الشيخ عبد الأمير محسن الساعدي الذي كان وكيلاً في إحدى مناطق محافظة ديالى، فكان يشارك أهل المنطقة حتّى في زراعة حقولهم وجني الثمار من بساتينهم، رغم إصرار أهل المنطقة على منعه من ذلك. ولمّا أنهى موسم التبليغ ـ وكان شهر رمضان ـ وأراد مغادرة المنطقة إلى النجف قدّم له الأهالي مبلغاً قدره مائة وخمسون ديناراً كهديّة، فأبى قبولها، وقال لهم: إنّ السيّد الصدر يتحمّل كافة نفقاتي، وإنّ وظيفتي التبليغ والإرشاد، وليس جمع المال. وألحّ أهل المنطقة على دفع المال إليه، فاضطرّ إلى أخذه، ثمّ قدّمه كهديّة إلى الحسينيّة، ممّا أثار إعجابهم. فهذا العفاف والترفّع لم يكن معهوداً في السابق.

وكان لكلّ عالِم بعثه السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) أكثر من قصّة من هذا القبيل، هزّت المشاعر، وحرّكت القلوب، وأعطت العالِم مكانة خاصّة في القلوب والنفوس.

وفي الوقت نفسه استطاع (رضوان الله عليه) أن يحجّم معظم اُولئك الذين استغلّوا فراغ المناطق من العلماء، فنصّبوا أنفسهم علماء، وتلبّسوا بزيّ علماء الدين، وكان معظمهم يعمل لصالح السلطة، ويسير في فلكها. والغريب أنّ بعضهم استطاع الحصول على وكالات من مراجع كبار ما كان يُحتمل أن يصدر منهم ذلك.

لقد وقف السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) بوجه هؤلاء وقفة حازمة، فحرّم الصلاة خلفهم، أو التجاوب معهم في أيّ نشاط ديني واجتماعي، وكان هذا الإجراء يُعتبر نوعاً من المواجهة مع السلطة، لأنّها هي التي نصّبت معظمهم.

وأتذكر أنّ أحد هؤلاء وكان يسكن مدينة الثورة أجبر المصلّين في أحد المساجد على تشكيل وفد برئاسته ليطلبوا له وكالة من السيّد الشهيد، فلمّا حضر الوفد طلب الشيخ من السيّد الشهيد توكيله، وقال: هؤلاء أهل المنطقة يرغبون بذلك.

وهنا وجّه السيّد الشهيد السؤال إليهم بقوله: هل ترغبون بتوكيل الشيخ؟ فقالوا: كلا، فغضب الشيخ غضباً شديداً؛ لأنّه يعلم أنّ عدم منحه وكالة من قبل السيّد الشهيد يعني إنهاء وجوده الديني والاجتماعي وكان بعض أعضاء الوفد قد أخبر السيّد الشهيد قبل ذلك بأنّ هذا (الشيخ) أجبرهم على تشكيل الوفد، ولم يتمكّنوا من الامتناع؛ لأنّه يعمل مع أجهزة الأمن. وتمكّن من تطهير تلك المساجد من أمثال هؤلاء، وإبدالهم بالأكفّاء الصلحاء من خيرة شباب الحوزة العلميّة في النجف.

وممّا يجدر ذكره بهذا الصدد أنّ السيّد شجّع الكثير من الشباب المثقّفين كالأطباء والمدرّسين وأمثالهم على دراسة ما يمكن من المناهج العلميّة التي تدرّس في الحوزة، وخاصّة الفقه والأُصول في إطار الاستفادة من هذه الطاقات لسدّ الفراغات الكبيرة التي تعاني منها المساجد والحسينيّات، وحتّى المراكز العلميّة والتربويّة التي يعملون فيها كموظفين وإداريين. وكان يقول: سأضمن لمن يرغب من هؤلاء بالتفرّغ للدراسة في الحوزة نفس المستوى المعاشي الذي كان يحصل عليه من وظيفته الحكوميّة إن لم يكن أفضل. وكان يتوخّى من ذلك الإسراع في تربية علماء يملكون ثقافة عصريّة إلى جانب ثقافتهم الدينيّة، وكذلك الارتفاع بالمستوى الاجتماعي للحوزة بتطعيمها بعناصر لهم مكانة في المجتمع،

كالأطباء والأساتذة وغيرهم، وكان ينوي توكيل بعض الأشخاص ـ من غير طلبة الحوزة ـ ممّن تتوفّر فيهم مواصفات معيّنة ليمارسوا دور العالم كل في منطقته، أو دائرة عمله. وقد طبق ذلك في دائرة محدودة أتذكر منهم المرحوم الحاج عبد الكريم وهو رجل معقّل متفقّه في الدين، هاجر إلى إيران وتوفي فيها عليه رحمة الله.

وعن هذه النقطة بالذات سأل أحدهم عن الأُسلوب والمتطلّبات التي يجب أن تتوفّر في المبلّغ في طريق الدعوة إلى الإسلام، وإليك نصّ السؤال والجواب:

«بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة آية الله العظمى المرجع الديني السيّد محمد باقر الصدر ـ دام ظلّه ـ

س: ماهو الأُسلوب الذي يجب أن يمارسه الشابّ الجامعي أو الموظّف الإداري لنشر تعاليم الدين الحنيف وبثّ مفاهيم الإسلام، وما هي المتطلبات التي ينبغي للمسلم المعاصر أن يتوفّر عليها في طريق الدعوة إلى الإسلام؟

١٩/صفر ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

ج: لابدّ له إضافة إلى تجسيد الرسالة الإسلاميّة في سلوكه وأخلاقه وعلاقاته أن يستعمل في العمل لأجل رسالته لغة العصر ومنهاج الفكر الحديث، ويصبّ المحتوىٰ الإسلامي في إطار هذه اللغة والمنهج مقارنا بأفكار العصر ومعطيات الحضارة السائدة، ويقوم في نفس الوقت بدور الوسيط بين الجامع الرشيد الذي يحمل رسالة الإسلام، والوسط الذي يعيش فيه، لأنّ كثيراً من الأوساط لاصلة لها بالجوامع فلابدّ من همزات وصل تحمل الإشعاع وتمارس عمل إمام الجامع الرشيد في قطّاعاتها المختلفة وتعيد إلى الناس الأمل في قدرة دينهم على تلبية حاجاتهم ومسايرة طموحهم المشروع وحلّ مشاكلهم بالطريقة الفضلىٰ.

محمد باقر الصدر»[1]

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٦٨).

وعلى كلّ حال كان للسيّد الشهيد ﷺ من الطموح ما هو أكبر وأشمل ممّا ذكرنا بشأن تطوير الحوزة والمرجعيّة والعمل الإسلامي، رغم أنّ ما تحقّق كان يعتبر قفزة نوعيّة قياساً إلى إمكاناته الماديّة الضعيفة، وإلى الوضع السياسي الصعب، وكذلك أجواء الحوزة، والفترة الزمنيّة المحدودة التي أُتيحت له في إطار العمل المرجعي.

وممّا يجب أن نذكره هنا هو الجنبة الذاتيّة لشخصيّته والتي حاول بشتّىٰ الأساليب أن لايجعل لها مكاناً مهمّاً في إطار عمله المرجعي خلافاً لما هو متعارف ومألوف في النجف، فمثلاً لم يكن يرىٰ أنّ الألقاب الكبيرة والتعبيرات المنمّقة ذات أهميّة للمرجع وذلك لأنّ الوجود الحقيقي لايحتاج إلى ألقاب يقول (رضوان الله عليه):

«أُريد أن أُشير:

أولاً: إلى أنّ الكراستين في الطهارة والصلاة...

ثانياً: أنّ اللقب الذي تكتبونه حينما تقولون على الغلاف أنّها وضعت حسب فتاوى فلان أرجو أن يختصر مهما أمكن وأنا أُرجّح أن يقتصر فيه على كلمة آية الله فلان فقط دون الألقاب المرجعيّة الأُخرىٰ فإنّ الوجود الحقيقي لايحتاج إلى الألقاب...» [1]

وقد تحدّثت عن بعض ذلك فيما تقدم.

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٦٩).

فهرس الموضوعات

العائلة الكريمة و مولودُها

(٣٤ ـ ٤٩)

مسيرته العلميّة في النجف الأشرف
(٥٠ـ ١٠٩)

أخلاقه و سيرته الذاتية

(١١٠ ـ ٢١٠)

المرجعيّة و الحوزة العلميّة
في حياة الشهيد الصدرﷺ
(٢١٢ ـ ٢٧٣)

فهرس الموضوعات

(٤٣٩ ـ ٤٤٥)